

رَبَّانِيُونَ
عَلَى الطَّرِيقِ
وَنَبِّعُ الْهَدْيَ رِيَانًا

obeikandi.com

ربانيون على الطريق ونبع الهدى ريان

* أهل اليمن أرق الناس أفئدة.. الإيمان يمان والحكمة يمانية :

□ لله در اليمن وأهله وقد أثنى عليهم الصادق المصدوق عليه السلام .

● فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أناكم أهل اليمن هم أرق أفئدة، وألين قلوباً، الإيمان يمان، والحكمة يمانية...»^(١) .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أناكم أهل اليمن، هم أضعف قلوباً، وأرق أفئدة، الفقه يمان، والحكمة يمانية»^(٢) .

في أطواء الظلام وأخاديد الصمت بررت جواهر كريمة في الذب عن السنة ومحاربة البدع والتقليد الجامد.

□ في اليمن كما يقول الصنعاني:

محط رحال آمال الأماضي ومغناطيس أفئدة الرجال

بها نلت المآرب مع رفاقٍ رقوا في المجد هامات المعالي

□ وكما يقول القائل منهم عن اتباعهم للسنة والرسول صلى الله عليه وسلم :

تلامذة لأحمد لا سواه تلي أحفادنا فيه الجدودا

هو القلب الكبير به حيننا وأطلقنا الواهب والزودا

□ قال الإمام الشوكاني في «البدر الطالع» في ترجمة الإمام الكبير ابن

الوزير: «إن في ديار الزيدية - يعني اليمن - من أئمة الكتاب والسنة عدداً

(١) رواه البخاري، ومسلم.

(٢) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي.

يجاوز الوصف يتقيدون بالعمل بنصوص الأدلة، ويعتمدون على ما صح في الأمهات الحديث وما يلتحق بها من دواوين الإسلام المشتملة على سنة سيد الأنام، ولا يرفعون إلى التقليد رأساً، لا يشوبون دينهم بشيء من البدع التي لا يخلو أهل مذهب من المذاهب من شيء منها بل هم على نمط السلف الصالح في العمل بما يدل عليه كتاب الله وما صح من سنة رسول الله مع كثرة اشتغالهم بالعلوم التي هي آلات علم الكتاب والسنة من نحو وصرف وبيان وأصول ولغة وعدم إخلالهم بما عدا ذلك من العلوم العقلية، ولو لم يكن لهم من المزية إلا التقيد بنصوص الكتاب والسنة وطرح التقليد فإن هذه خصيصة خص الله بها أهل هذه الديار في هذه الأزمنة الأخيرة ولا توجد في غيرهم إلا نادراً^(١).

* الإمام المجتهد المطلق محمد بن إبراهيم بن الوزير ودفاعه الفد عن السنة وأهل الحديث :

□ قال عنه الشوكاني: «تبحر في جميع العلوم وفاق الأقران واشتهر صيته وبعد ذكره وطار علمه في الأقطار... وارتفعت طبقته في العلم، وهكذا ابن حجر فإنه ذكره في «أنبائه» في ترجمة أخيه الهادي لأن صاحب الترجمة إذ ذاك كان صغيراً، فقال وله أخ يقال له محمد مقبل على الاشتغال بالحديث شديد الميل إلى السنة بخلاف أهل بيته. انتهى، ولو لقيه الحافظ ابن حجر بعد أن تبحر في العلوم لأطال عنان قلمه في الثناء عليه فإنه يشني على من هو دونه بمراحل، ولعلها لم تبلغ أخباره إليه، وإلا فابن حجر قد عاش بعد صاحب الترجمة زيادة على اثني عشر سنة. وكذلك السخاوي لو وقف على «العواصم والقواصم» لرأى فيها ما يملأ عينيه وقلبه ولطال عنان قلمه في

(١) «البدع الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» للشوكاني (٢/٨٣).

ترجمته، ولكن لعلّه بلغه الاسم دون المسمّى»^(١).

□ وقال الشوكاني عنه: «وبالجملّة فصاحب الترجمة ممن يقصر القلم عن التعريف بحاله، وكيف يمكن شرح حال من يزاحم أئمة المذاهب الأربعة فمن بعدهم من الأئمة المجتهدين في اجتهاداتهم، ويضايق أئمة الأشعرية والمعتزلة في مقالاتهم، ويتكلم في الحديث بكلام أئمة المعتبرين مع إحاطته بحفظ غالب المتون ومعرفة رجال الأسانيد شخصاً وحالاً وزماناً ومكاناً وتبحره في جميع العلوم العقلية والنقلية على حد يقصر عنه الوصف. ومن رام أن يعرف حاله ومقدار علمه فعليه بمطالعة مصنفاته فإنها شاهد عدل على علوّ طبقتة، فإنه يسرد في المسألة الواحدة من الوجوه ما يبهر لبّ مطالعه ويعرفه بقصر باعه بالنسبة إلى علم هذا الإمام كما يفعله في «العواصم والقواصم»^(٢) فإنه يورد كلام شيخه السيد العلامة علي بن محمد بن أبي القاسم في رسالته التي اعترض بها عليه ثم ينسفه نسفاً بإيراد ما يزيفه به من الحجج الكثيرة التي لا يجد العالم الكبير في قوته استخراج البعض منها، وهو في أربعة مجلدات يشتمل على فوائد في أنواع من العلوم لا توجد في شيء من الكتب، ولو خرج هذا الكتاب إلى غير الديار اليمنية لكان من مفاخر اليمن وأهله»^(٣)، ولكن أبي ذلك لهم ما جبلوا من غمط محاسن بعضهم لبعض ودفن مناقب أفاضلهم.

ومن مصنفاته «ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان» وهو كتاب في غاية الإفادة والإجادة على أسلوب مخترع لا يقدر على مثله إلا مثله. ومنها كتاب «الروض الباسم» في مجلد اختصره من العواصم، وكتاب

(١) «البدر الطالع» (٢/٨٣).

(٢) وهو كتاب في الانتصار للسنة والرد على الزيدية.

(٣) الحمد لله أنه طبع في مؤسسة الرسالة بعد ذلك.

«إيثار الحق على الخلق» وهو غريب الأسلوب مفيد في بابه.

وهو إذا تكلم في مسألة لا يحتاج الناظر بعده إلى النظر في غيره من أي علم كانت، وقد وقفت من مسأله التي أفردتها بالتصنيف على عدد كثير تكون في مجلد، وما لم أفق عليه أكثر مما وقفت عليه، وكلامه لا يشبه كلام أهل عصره ولا كلام من بعده، بل هو من نمط كلام ابن حزم وابن تيمية، وقد يأتي في كثير من المباحث بفوائد لم يأت بها غيره كائناً من كان، وديوان شعره مجلد وشعره غالبه في عصره، فإن له معهم قلاقل وزلازل وكانوا يثرون عليه ثورة بعد ثورة، وينظمون في الاعتراض عليه القصائد، وأفضى ذلك إلى أن اعترض عليه شيخه المتقدم ذكره برسالة مستقلة فأجابها بما تقدم، وكان يجاوبهم ويصاولهم ويجاولهم فيقهرهم بالحجة، ولم يكن في زمنه من يقوم له لكونه في طبقة ليس فيها أحد من شيوخه فضلاً عن معارضيه، والذي يغلب على الظن أن شيوخه لو جُمعوا جميعاً في ذات واحدة لم يبلغ علمهم إلى مقدار علمه وناهيك بهذا.

ثم بعد هذا انجمع وأقبل على العبادة وتمسيخ وتوحش في الغلوات وانقطع عن الناس ولم يبق له شغلة بغير ذلك وتأسف على ما مضى من عمره في تلك المعارك التي جرت بينه وبين معاصريه مع أنه في جميعها مشغول بالتصنيف والتدريس والذب عن السنة والرفع عن أعراض أكابر العلماء وأفاضل الأمة، والمناضلة لأهل البدع ونشر علم الحديث وسائر العلوم الشرعية في أرض لم يآلف أهلها ذلك لا سيما في تلك الأيام فله أجر العلماء العاملين وأجر المجاهدين المجتهدين، ولكنه ذاق حلاوة العبادة وطعم لذة الانقطاع إلى جناب الحق فصغر في عينيه ما سوى ذلك. وقد ترجمه بعض بني الوزير في كراريس واستوفى أحواله، ولو ترجمه في مجلد لم يكن وافيًا بحقه... ومدحه غير واحد من أعيان العلماء، والحاصل أنه رجل

عرفه الأكابر وجهله الأصاغر، وليس ذلك مختصاً بعصره بل هو كائن فيما بعده من العصور إلى عصرنا هذا.

ولو قلت: إن اليمن لم ينجب مثله لم أبعد عن الصواب وفي هذا الوصف ما لا يحتاج معه إلى غيره^(١).

□ وقال عنه صديق حسن خان: «كان فريد العصر، ونادرة الدهر، خاتمة النقاد، وحامل لواء الإسناد، وبقية أهل الاجتهاد، بلا خلاف وعناد، رأساً في المعقول والمنقول، إماماً في الفروع والأصول»^(٢).

□ يقول - رحمه الله -:

العِلم ميراث النبي كذا أتى في النص والعلماء هم ورأته
فإذا أردت حقيقة تدرى لمن ورأته فكرت ما ميرأته
ما ورث المختار غير حديثه فينا وذلك متاعه وأثأته
فلنا الحديثُ وراثتهُ نبويةٌ ولكلُّ مُحَدِّثٍ بدعةٌ إحداثه
□ ويقول - رحمه الله -:

كتب إليه العلامة المقرئ الشافعي لما اطلع على «الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم مختصر «العواصم من القواصم»: «لقد وقف المملوك على «الروض الباسم» فما هو إلا الحسام القاصم، لقد وقع من القلوب موقع الماء من الصادي والنَّجْح من الغادي، والراحة من المعمور، ولقد نصرت الحديث على الكلام، والحلال على الحرام، وأوضحت الصراط المستقيم، وأشرت إلى النهج السليم، ولم تترك شبهة إلا فضحتها، ولا حجة إلا أوضحتها، ولا زائعا إلا قومته، ولا جاهلاً إلا علمته، ولا ركناً للباطل إلا خفضته، ولا عقداً لمبتدع إلا نقضته، ولقد صدقتَ الله في النية في

(١) «البدر الطالع».. انظر ترجمة ابن الوزير في «البدر الطالع» (٢/٨١ - ٩٣).

(٢) «أبجد العلوم» لصديق حسن خان (٣/١٩٠).

الرجبة إليه، ووهبت نفسك لله، وتوكلت عليه، فالحمد لله الذي أقرّ عين السنة بمكانه، وأدالها على البدع وأهلها ببرهانه، فلقد أظهر من الحق ما ودّ كثير من الناس أن يكتمه وأيد دين الأمة الأمية بما علّمه الله وألهمه فعوض على الجذل، وسيجعل الله لك بعد عسر يسراً، وإنا لا ندري لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً، وإذا أراد الله أمراً هياً أسبابه، وفتح لمن أراد له الدخول إلى بابه.

إذا الله سنّى حلّ عقّد تيسراً.

ومن وقف على ما أفحمت به ذلك المتعدي، من الحق الذي استحلقت فيه بالإعجاز والتحدي، علم أن بينه وبين النفثات النبوية أسباباً شريفة لا تحل عقودها، ولا تضاع حقوقها، ورحما بلّها ببلالها، وبادر إلى ضلتها ووصلها، لقد أبقى نوراً في وجه الزمان، وسروراً في قلوب أهل الإيمان، وقلّدت جيد السنّة منّة وأي منّة، أصبح شخصك ملموحاً بأعين البصائر، وحديثك ملتقطاً بأسماع الضمائر.

والمنّة في ذلك المصنّف على عامة أهل الملّة وخاصة أعيان هذه النحلة، فحق على الكل أن يعرفوا حقه إن كانت لهم أفهام تقدره حق قدره، وأن يستضيئوا بنوره إن كانت لهم أبصار تثبت للنور فجره، وأرى لهم أن يكتبوا أنفاسه إن كانت الأنفاس مما يكتب سمع الدعاء إلى الفلاح فوثب، وقلب الله قلبه إلى الحق فانقلب، من غير ترغيب استفزّه، ولا ترغيب هزّه، ولا محاسدة اعترته، ولا مناظرة غيرته، بل توفيق من الله إلهي، وإلهام سماوي، سهل عليه مفارقة العادة، وما نشأ عليه بدءاً وإعادة، وإن أمراً هذا أوله، فعواقبه عن النجاح مسفرة، وقصدًا هذا مبتدؤه، فمغارسه مثمرة.

وإني لأرجو الله حتى كأنني أرى بجميل الظن ما الله صانع^(١)

(١) مقدمة «العواصم والقواصم في الذبّ عن سنة أبي القاسم» لابن الوزير (١/٥٨ - ٥٩).

❏ يقول - رحمه الله - في مقدمة «الروض الباسم»^(١) في التزامه بالسنة أصولاً وفروعاً: «ولم يكن بدعاً أن تنسبت من أعطارها روائح، وتبصرت من أنوارها لوائح، أشربت قلبي محبة الحديث النبوي، والعلم المصطفوي، فكنت ممن يرى الحظ الأسنى في خدمة علومه، وتمهيد ما تعفى من رسومه، ورأيت أولى ما اشتغلت به ما تعين فرض كفايته بعد الارتفاع وتضييق وقت القيام به بعد الاتساع من الذب عنه، والمحاماة عليه، والحث على اتباعه والدعاء إليه، فإنه علم الصدر الأول، والذي عليه بعد القرآن المعول، وهو لعلوم الإسلام أصل وأساس، وهو المفسر للقرآن بشهادة ﴿لتبين للناس﴾، وهو الذي قال الله فيه: ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾، وهو الذي وصفه الصادق الأمين بمائلة القرآن المبين؛ حيث قال في التوبيخ لكل مترف إمعة: «إني أوتيت القرآن ومثله معه». وهو العلم الذي لم يشارك القرآن سواه في الإجماع على كفر جاحد المعلوم من لفظه ومعناه، وهو العلم الذي إذا تجاثت الخصوم للركب، وتفاوتت العلوم في الرتب، أصمت مرنان نوافله كل مناضل، وأصمت برهان معارفه كل فاضل، وهو العلم الذي ورثه المصطفى المختار والصحابة الأبرار، والتابعون الأخيار، وهو العلم الفائضة بركاته على جميع أقاليم الإسلام، الباقية حسناته في أمة الرسول عليه السلام، وهو العلم الذي صانه الله عن عبارة الفلاسفة، وتقيدت عن سلوك مناهجه، فهل راسفة في الأغلال آسفة، وهو العلم الفاصل حين تلجلج الألسنة بالخطاب، الشاهد له بالفضل رجوع عمر بن الخطاب.. وهو العلم الذي يميز الله به الخيث من الطيب، ولا يرغب إلا المبتدع المتريب، وهو العلم الذي يسلك بصاحبه نهج السلامه، ويوصله إلى دار الكرامة، والسارب في رياض حدائقه، الشارب من حياض حقائقه»^(٢).

(١) «الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم» لابن الوزير ص (٥).

(٢) «الروض الباسم» ص (٥، ٦).

□ وقال - رحمه الله - :

بين الخلائق في المقام الأحمد
فيها عصيتُ معنِّي ومُقتندي
ومحل أترابي وموضع مولدي^(١)

يا حبذا يومُ القيامة شهرتي
لمحبتني سنن الرسول وإنني
وتركت فيها جيرتي وعشيرتي

□ وقال - رحمه الله - :

لو أن العلماء تركوا الذبَّ عن الحق؛ خوفاً من كلام الخلق، لكانوا قد
أضاعوا كثيراً، وخافوا حقيراً.

ومن قصد وجه الله - تعالى - في عمل من أعمال البر والتقوى؛ لم
يحسن منه أن يتركه، لما يجوز عليه في ذلك من الخطأ، وأقصى ما يخاف أن
يكل حسامه في معترك المناظرة وينبو، ويعثر جواده في مجال المجادلة ويكبو،
فالأمر في ذلك قريب؛ إن أخطأ فمن الذي عصم، وإن خطئ فمن الذي ما
وُصم. والقاصد لوجه الله لا يخاف أن يُنقد عليه خلل في كلامه، ولا يهاب
أن يدل على بطلان قوله، بل يحب الحق من حيث أتاه، ويقبل الهدى عن
أهداه، بل المخاشنة بالحق والنصيحة أحب إليه من المداهنة على الأقوال
القييحة^(٢).

□ يقول الصنعاني - رحمه الله - مثنياً على كتاب «إيثار الحق على

الخلق» لابن الوزير:

عين الكمال لنصرة الإيثار
عن حملك الأسفار في الأسفار^(٣)

انظر إلى الإيثار كيف أصابه
فإذا نظرت إليه فلتك منته

(١) «مقدمة العواصم والقواصم» ص (٧٧).

(٢) «العواصم والقواصم» ص (٢٢٤).

(٣) «فتح الخالق في مدائح رب الخلائق» ص (٢٠٢).

* رحمك الله يا ابن الوزير بما نصحت لأمتك :

رأى ابن الوزير - رحمه الله - أن في قمة التفكير الذي أدى إلى فرقة الأمة وانقسامها يأتي دور التفكير الفلسفي الذي صاغته أهواء البشر بعيداً عن الاهتداء لفظاً ومعنى بالنور الإلهي الذي لا يضل من اهتدى به ولا يشقى .

ورأى - رحمه الله - في «علم الكلام» الذي نشأ كأثر مباشر وقوي للكفر اليوناني بحوثاً لا طائل تحتها، ولقد كان أحد الأسباب لتمزق الأمة الواحدة وتناحرها، وتيه فلسفي أضاع الأمة، وهو يرسف في الضعف والهوى، والتناقض، ورأى - رحمه الله - أن كتابه «ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان» هو الصيحة في وجه الأفكار الفلسفية .

وبكتابه «إيثار الحق على الخلق» أراد أن يسلك بالأمة الطريق الواحد . . الذي لا تتعدد عنده السبل: وحدة الأمة على كتاب الله واعتصامها بسنة رسول الله ﷺ .

وقلّل من شأن المعتزلة التي رفعت العقل فوق مرتبته وإقحامه في عالم الغيب .

لقد حورب - رحمه الله - حرباً لا هوادة فيها ممن يخشون الدعوة إلى الكتاب والسنة وكانت صيحته الفذة .

يا لائمى كفّ عن لومي فمعتقدي قولُ النبي وهُمِّي في تعرّفه
فما قفوتُ سوى آيات منهجه ولا تلوتُ سوى آياتِ مصحفه^(١)

□ ويقول - رحمه الله - في «إيثار الحق» محذراً من مقاصد المنطقيين والمتكلمين: «وليحذر كل الحذر من زخرفتهم للعبارات في ذلك وترغيبهم بأنواع المرغبات في تلك المسالك، وليعتبر في ذلك بقوله تعالى لرسوله

(١) مقدمة «العواصم والقواصم» ص(١١٨).

المعصوم عليه السلام ﴿وإن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا﴾ (٧٣) ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبَتَّكَ لَقَدْ تَرَكْنَا إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٤) إِذَا لِأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿ [الإسراء: ٧٣ - ٧٥] ويا لها من موعظة موقظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد كما قال سبحانه وتعالى. ولتعرف أهل الزيف بذلك وأهل الحق بخلافه فإنهم كما وصفهم ربهم عز وجل في قوله: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبا: ٦]. ولا ينبغي أن يستوحش الظافر بالحق من كثرة المخالفين له كما لا يستوحش الزاهد من كثرة الراغبين ولا المتقي من كثرة العاصين ولا الذاكر من كثرة الغافلين. بل ينبغي منه أن يستعظم المنة باختصاصه بذلك من كثرة الجاهلين له الغافلين عنه، وليوطن نفسه على ذلك... فنسأل الله أن يرحم غربتنا في الحق ويهدي ضالنا ولا يردنا من أبواب رجائه ودعائه وطلبه محرومين إنه مجيب الداعين وهادي المهتدين وأرحم الراحمين^(١) رحم الله ابن الوزير.

أبا التنقيح والترجيح أبدي
على بحر المئين السبع شعتُ
(عواصمه) و(إيثاراً) فريدا
فأقامات المعاند والحسودا

* علامة اليمن في القرن الحادي عشر الحسن بن أحمد الجلال وتصديه

للمتوكل إسماعيل لقوله المنحرف عن الأتراك:

وُلِدَ بَصْعَةَ سَنَةِ ١٠١٣ وَتَوَفَّى سَنَةَ ١٠٨٤، وَكَانَ لَهُ فِي الْعُلُومِ النَّقْلِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ قَدَمٌ رَاسِخٌ وَكَعْبٌ عَالٍ، أَلْزَمَ نَفْسَهُ بِالِدَلِيلِ، وَتَنَكَّبَ طَرِيقَ التَّبَعِيَّةِ الْجُهْلَاءِ وَالْمَذْهَبِيَّةِ الْعَمِيَاءِ، وَكَانَ زَهْدَهُ وَتَقْوَاهُ مُضْرِبَ الْمَثَلِ، وَلَمَّا سَاءَ مَا لَقِيَ

(١) «إيثار الحق على الخلق» لابن الوزير ص (٢٦ - ٢٧).

من المتعصبة المبتدعة أثر البقاء بقرية الجراف شمالي صنعاء، وكان مصدر رزقه الوحيد تربية الخيل والإنفاق من أثمانها. صادعاً بالحق مؤثراً لرضاء الخالق على رضا الخلق، أهم مؤلفاته «ضوء النهار على متن الأزهار» وضعه على الكتاب والسنة غير آبه بالمخالف والمؤالف. وما أكثر ثناء الشوكاني عليه، واعتبره أفضل ما كُتب في بابيه ولما أصدر المتوكل إسماعيل صاحب صوران مرسومه المشهور باعتبار ما كان من البلاد تحت الأتراك خراجية وملاكها أجراء للمتوكل وأسرته، وأجاز لجنده الأخذ من أموال الرعايا في حملتهم إلى يافع ومشارك اليمن تصدى له العلامة الجلال بوضع رسالة سماها «براءة الذمة في النصح للأمة» فند فيها آراء المتوكل وكشف عن مجافاتها لنصوص الكتاب والسنة، وألزمه بالتزام الأصلين: كتاب الله وسنة رسوله^(١).

□ قال عبدالرحمن طيب بعكر «لما جاء إسماعيل بن القاسم يعلن تكفير الأتراك وأن الأرض التي كانت تحتهم خراجية، نهض الحسن الجلال في وجهه وتصدى لفتواه ببحثه القيم الذي يؤكد إسلام الأتراك».

□ قال الحسين الروضي وهو من تلاميذ الصنعاني:

قالوا أما فهم إسماعيل عالمهم	أفتاهم بمقال فيه برهان
يقول إن جنود الترك كافرة	دانت لها من جميع القطر بلدان
وبعدهم قد ملكناها بقوتنا	صارت إلينا حلالاً بعد ما بانوا
وكل شخص من الزراع عاملنا	على الذي يبيده أينما كانوا
أصولنا تقتضي هذا فلا حرج	بما أخذنا ولا والقول بهتان
إبليس سؤل هذا والنفوس عنت	إلا برغبتها فيها لها شأن
هذي الخيالات لا تجدي ليوم غد	إذا قضى بين أهل الأرض ديان ^(٢)

(١) «مصلح اليمن محمد بن إسماعيل الصنعاني» لعبدالرحمن طيب بعكر ص(١٥١، ٢٨)

مكتبة أسامة باليمن.

(٢) المصدر السابق ص(٢٨).

□ ولما مرّ الصنعاني بقبر الجلال وقال:

عيني بدمع ذي انهمال	جادت على قبر الجلال
أبكي على فقد المعالي	ووقفت فيه مد لها
الفنا تحت الرمال	جبلٌ من التحقيق غيبه
تدفقت منه اللآلي	بحرٌ إذا أخذ اليراع
فلا يعرف بالمثال ^(١)	فرد يعزّ له النظر

* الشيخ الحسن بن زيد الشامي خير كله:

□ يقول الشوكاني في ترجمته: (أنه كان خيراً كله) اجتمعت فيه ثلاث خصال تكفي الواحدة منهن جماعة من الناس أولهن حب السنة فهو مبرء من التعصب لمذهب أو طائفة واجتمع له أتباع لا يتقيدون إلا بالدليل. والثانية حب الفقراء. فقد كان يبذل جهده لإقناع المهدي اعباس بتوسيع العطاء للفقراء والبذل عليهم. وتوفي قاضي القضاة السيد أحمد بن عبدالرحمن الشامي. وكان من قرابته وجعل وصيته للإمام فعمل بها الإمام للحسن ابن زيد فر سروراً بالغاً؛ لأنه أفلح باقتطاع شطر من الأملاك وجعلها للفقراء وأثبتها بمسودة مقيدة بدواوين الدولة. الثالثة الدعوة الدائمة إلى الله للأغنياء والفقراء والخاصة والدهماء حتى النساء إذا مر به جماعة منهن استوقفهن وشرح لهن أحوال الحيض وأخذ ينصحهن بعدم الغيبة ونشر الدعوة في حافتهن^(٢).

(١) المصدر السابق ص (٢١٢).

(٢) المصدر السابق ص (٣٨ - ٣٩).

* الشيخ الصادق بالحق أحمد بن عبد الرحمن الشامي :

من أعلام القرن الثاني عشر استوعب علوم عصره وطاف على كبار مشائخ صنعاء وأتم الله النعمة بأن يسّر له الاجتماع بالعلامة عبد الخالق بن الزين المزجاجي فقرأ عليه في الأمهات الست وتمكن من علم الحديث .

ولقد تولى هذا العلم منصب القضاء الأكبر طوال حكم ثلاثة أشهر من القاسم بن الحسين إلى حفيده المهدي بن العباس فكان مثلاً في الصدق بالحق والثبات على اتحاده وآية في العفة وحسن العلم وأهله إلى كياسته وحسن تدبيره وسداد رأيه الذي كان مضرب المثل .

ومن أمثلة حلمه وطهارته خلقه وسلامته صدره أن رجلاً سمه في تمر فظل عاماً كاملاً يعاني أثر ذلك السم وهو كاتم لأمره عارف لخصمه فلما ذهب عنه آثار السم وتمائل للشفاء كان أول عمل يقوم به أن يقضي حاجة خصمه الذي سمّه . وكان إلي جانب توليه القضاء الأكبر مضطعاً بمسئوليات تلقي الوافدين إلى صنعاء ورعايتهم والإنفاق عليهم وهو في كل ذلك محمود السيرة والسريرة وكان يقول: أنه لولا خشية أن يلي الأمر من لا يرعى في الأمة تقوى الله لما بقي في منصبه يوماً . . وقد أثني عليه كل من ترجم له وفي مقدمتهم شيخ الإسلام الشوكاني . وكلهم يجمع على مجاهرته للمهدي العباس وتحذيره له من سفك الدماء وأموال الوقف . وفي مقدمة خاصته المحبين إليه (ابن الأمير) الذي كان كثيراً ما يتعاون معه على أمر بمعروف أو نهى عن منكر - رحمه الله - (١) .

* الشيخ أحمد بن يوسف الحديث يرفض الزواج من ابنة الإمام المهدي العباس :

ومن أعلام القرن الثاني عشر الناصرين للسنة سيد فاضل من آل الإمام

(١) المصدر السابق ص (٣٩ - ٤٠) .

هو أحمد بن يوسف بن الحسين بن الحسن بن القاسم برع في العلوم وتعلق في الحديث حتى عرف به . فكان يُدعى أحمد بن يوسف الحديث . وحسبك أن يشهد له إمام السنة الشوكاني بأنه المحقق البارع في علم الحديث . . وهو الذي تولى تخريج مجموع الإمام زيد بن علي رضي الله عنه فنص على تخريج كل حديث من الأمهات وما لم يجد له تخريجاً سكت عنه . كان - رحمه الله - يؤثر البعد عن أرباب الدولة وذوي الجاه منقطعاً للعلم وأهله . عرض عليه الإمام المهدي العباس أن يزوجه ابنته فأبى وحرص على الاجتماع به أكثر من مرة وهو يتخلص حتى لا يقع في شباك الدولة ورجالها^(١) .

* السيد إسحاق بن يوسف بن المتوكل ونصره للسنة :

ومن آل الإمام المشهورين بنصرة الحق والسنة والتعليق بهما والذب عنهما السيد الكريم إسحاق بن يوسف بن المتوكل . درس على علماء صنعاء وطلب الإجازة من علماء زيد فأجازه مفتياً الأكبر السيد يحيى بن عمر الأهدل في أمهات الحديث . وكانت له صولات وجولات مع المتهذبة الذين أفحمهم بأبحاثه وأسئلته التي كان ينشرها ففتلقاها بلدان اليمن ويتسابق علماءها للإجابة عليها . ومن أسئلته المشهور سؤاله علماء الزيدية عن المذهب فقام له الكثيرون ونالوا منه وأغلظوا له في القول ولكنه لم يلتفت ولم يأبه شيء من ذلك .

ومن مؤلفاته المباركة رسالة أثنى عليها الشوكاني أسماها «بالوجه الحسن المذهب للحزن فيمن تمسك بالسنة ومشى على السنن» طبعت في القاهرة سنة ١٣٤٨هـ وأنشئ عليها علماء الأزهر . وبحث آخر نفيس أسماه «تفريج الكروب وتكفير الذنوب» في مجلدين^(٢) .

(١) المصدر السابق ص (٤٠) .

(٢) المصدر السابق ص (٤١) .

* مصلح اليمن ومجتهدها في القرن الثاني عشر الأمير محمد بن إسماعيل

الصنعاني :

عمر مديد قضاة مجتهد اليمن الإمام الصنعاني في نشر ونصر سنة
رسوله ﷺ ، وكتبه تملأ الخافقين هدى ونوراً وأثراً في الجهاد مشكوراً .

ومدرسة الإمام فقف عليها وناد أميرها الحبر المفيدا
بتنوير وتوضيح لسبل وعدة من شأى الشأ والحميذا
وكان لعدل حكم واجتماع ووقف الله مدرهه المجيدا^(١)

* أولياته ونجاحه الذي أدركه :

وأول ما نسجله من رياداته هو إدخاله كتب الحديث إلى جامع صنعاء
ونشرها تدريجاً ووعظاً للخاصة والعامة . فلقد كان شغفه بالسنة مبكراً .

سلام على أهل الحديث فإنني نشأت على حب الأحاديث من مهدي
وقوله : لا للفخر والادعاء ولكن للتنبيه والتوجيه :

كان الحديث بأرضكم مستغرباً والله جدا
حتى نشرت فنونه وجلوت منه ما تصدى

□ وهو أول مصلح يمني بعد الألف يضع برنامجاً عاماً للإصلاح يجمع
بين إقامة الشريعة وتحقيق العدل وإصلاح الأوضاع المالية والاجتماعية والعناية
بتنظيم الري وتوفير مصادره ومحو الأمية الدينية، نلمس ذلك واضحاً في
النصوص السالفة من مطالبته بانتقاء القضاة وإصلاح السجون والعملية وإزالة
المظالم ..

(١) هذه هي أهم مؤلفاته الإمام الصنعاني وهي : «التنوير شرح الجامع الصغير»، و«التوضيح
شرح التنقيح» و«سبل السلام شرح بلوغ المرام» و«العدة حاشية شرح العمدة» لابن دقيق
العيد .

□ وهو أول عالم يمّني بعد الألف يتجاوز بنصائحه وتوجيهاته ملوك اليمن إلى غيرها من ملوك الجزيرة كما صنع مع الشريف مساعد صاحب مكة.

وهو أول عالم يمّني بعد الألف قصده الطلاب لا من جزيرة العرب وحدها، وإنما أيضاً من بلاد الروم والعراقين والهند.

وهو أول من حول الشعر من ترفٍ ذهني وتلاعب بديعي إلى نفيير للإصلاح ومنير للتوجيه.

هذا ما حضرني من أولياته التي نسجلها ريادات له سبق بها عصره ومصره..

أما نجاحاته التي يسر الله إدراكها فكثيرة ربما كان أهمها إقناعه الأئمة، وبخاصة المهدي العباس على حبه الجرم للمال أن يصرف شيئاً من الزكاة على مستحقيها. وكان يخرج الآلاف على يد عباد صالحين كحسن الحداد وحسن الشامي ومحسن فايع.

□ كما أنه كان سياجاً منيعاً لصون أملاك الوقف من البيع والعبث، وكان تلميذه العراسي صاحب الجهد المشكور في حفظ أملاك الوقف وتدوينها. وهو الذي تنبه إلى خطر الباطنية واصلف اليهود وغواية البانيان فتم له تفسير يوسف العجمي وتأديب اليهود حتى ألزمهم جحورهم وإجلاء البانيان من اليمن وتحطيم أصنامهم التي بلغ مالها المرصود عليها بالمخا خمسين ألفاً^(١).

□ كان الصنعاني بديراً حقيقة لا مجازاً، لم يدرك ثمة محاق ولا سرار، تجاوز إشعاعه الثمانين عاماً التي عاشها إلى القرون التي تلتها.

□ أضاء بخطبه وسطه ومدينته، وأضاء بكتبه وطنه وجزيرته، بل

(١) «مصلح اليمن محمد بن إسماعيل الصنعاني» ص (١٥٧).

تجاوزهما إلى سائر بلاد الإسلام، ووضع بمواقفه الجريئة في الله المضيئة بالتقوى مناراً شامخاً للعلماء العاملين وميسماً خالداً على أنوف وجباه الظلمة المتسلطين.

يجري عليه رزقه من غير انقطاع بعد موته وله روافده التي يستمر بها عمل الإنسان بعد وفاته:

□ الصدقة الجارية: وهو إن لم يكن بالثرى الذي يملك أن يقطع شيئاً من ماله وقفاً لله إلا أنه وتلك حقيقة ثابتة لأمرء فيها حمى أصول الوقف في صنعاء وغيرها من أطماع الطامعين وعبث العابثين، فكان ساعياً في استمرار ذلك الخير العميم.

□ وهذه كتبه ورسائله تبلغ المائتين كما أحصاها الأستاذ البحاث عبدالله محمد الحبشي تتداولها الأجيال وتهدي بهاها الأقاليم.

□ وأولاده الصالحون العلماء الربانيون الذي نشروا السنة في ربوع اليمن.

قضاياها الأساسية^(١)

«يمكن لنا أن نقتصر في هذه النقطة على أمهات اهتماماته وكليات نشاطه القولي والفعلي والتألفي وأولها التوحيد.

(أ) التوحيد

هذه هي نقطة البيكار وأصل الأصول في كل الأديان السماوية التي دعى إليها كل رسول وجاهد من أجلها كل رباني. وفي العصر الذي عاشه الأمير كانت قضية التوحيد محاطة بالكثير من غبار القرون وركام البدع وزيف المنحرفين. فهناك العقائد الفاسدة في القبور والممارسات المنحرفة لجهلة المتصوفين والتكريس الجاهل أو المتعمد من ملوك الضلالة وأمرء الغواية

(١) انظر «مصلح اليمن محمد بن إسماعيل الصنعاني» ص (١١٤ - ١٢٩).

بخليط من الأوهام والبدع والضلالات وأفضل ما وضعه الأمير لمواجهة كل ذلك رسالته الشافية الكافية (تطهير الاعتقاد من درب الإلحاد) التي تناول فيها الموضوع من كل زواياه وجوانبه. وسنقتطف منه نصوصاً معينة توضح أهم مقاصد البحث.

(ب) صور من المعتقدات الفاسدة

□ يقول: وكل قوم لهم رجل ينادونه. فأهل العراق والهند ينادون عبدالقادر الجيلاني، وأهل التهائم لهم في كل بلد ميت يهتفون باسمه يقولون: يا زيلعي يا ابن العجيل. وأهل مكة وأهل الطائف يا ابن العباس. وأهل مصر يا رفاعي يا بدوي. والسادة البكرية وأهل الجال يا أبا طير وأهل اليمن يا ابن علوان. وفي كل قرية أموات يهتفون بهم وينادونهم ويرجونهم لجلب الخير ودفع الضر وهذا هو بعينه فعل المشركين في الأصنام كما قلنا في الأبيات النجدية:

أعادوا بها معنى سواع ومثله	يغوث وود بئس ذلك من عود
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها	كما يهتف المضطر بالضرع الفرد
وكم نحروا في سوحها من نحيرة	أهلت لغير الله جهراً على عمد
وكم طائف حول القبور مقبلاً	ويستلم الأركان منهم باليد

□ فإن قال: إنما نحرت لله وذكرت اسم الله عليه، فقل: إن كان النحر لله فلا شيء قربت ما تنحره من باب مشهد من تفضله وتعتقد فيه؟ هل أردت بذلك تعظيمه؟ إن قال: نعم. فقل له: هذا النحر لغير الله بل أشركت مع الله تعالى غيره وإن لم ترد تعظيمه فهل أردت توسيع باب المشهد وتنجيس الداخلين إليه؟ ويقول: «وهذه النذور بالأموال وجعل قسط للقبور كما يجعلون شيئاً من الزرع يسمونه تلماً في بعض الجهات اليمنية وهذا شيء ما بلغ إليه عباد الأصنام وهو داخل تحت قول الله تعالى في سورة النحل:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا يَعْلَمُونَ نَصِيْبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ بلا شك ولا ريب» .

□ ويقول: أخبرني من أثق به أنه رأى من يسجد على عتبة باب مشهد الولي الذي يقصده تعظيماً له وعبادة ويقسمون بأسمائهم بل إذا حلف من عليه حق باسم الله تعالى لم يقبلوا منه فإذا حلف باسم ولي من أوليائهم قبلوه وصدقوه وهكذا كان عبَاد الأصنام. قال تعالى: ﴿إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ . . . وفي الحديث الصحيح: «من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت» .
وسمع رسول الله ﷺ رجلاً يحلف باللات فأمره أن يقول: لا إله إلا الله .

(ج) جناية الملوك وواجب العلماء

□ يقول: وترى العامة ملوك الأقطار وولاة الأمصار معززين لذلك ويولون العمال لقبض النذور. وقد يتولاها من يحسنون فيه الظن من عالم قاض أو مفتٍ أو شيخ صوفي فيتم التديس لإبليس وتقر عينه بهذا التليس .
□ ويقول: «اعلم أن هذه الأمور التي ندندن حول إنكارها ونسعى في هدم منارها صادرة عن العامة الذين إسلامهم تقليد الآباء بلا دليل ومتابعتهم لهم من غير فرق بين دبير وقبيل. ينشأ الواحد فيهم فيجد أهل قريته وأصحاب بلدته يلقنونه في الطفولة أن يهتف باسم من يعتقدون فيه . ويراهم يندرون عليه ويعظمون عليه ويرحلون به إلى محل قبره فينشأ وقد وقر في قلبه عظمة ما يعظمونه. وقد صار أعظم الأشياء عنده من يعتقدونه فنشأ على هذا الصغير وشاخ عليه الكبير. ولا يسمعون من أحد عليهم من نكير. بل ترى ممن يتسم بالعلم ويدعي الفضل وينتصب للقضاء أو الفتيا أو التدريس أو ولاية أو المعرفة أو الإمارة والحكومة معظماً لما يعظمونه مكرماً لما يكرمونه

قابضاً للندور آكلاً ما ينحر على القبور. فيظن العامة أن هذا دين الإسلام وأنه رأس الدين والسنام».

❏ ويقول: «فإن هذه القباب والمشاهد التي صارت أعظم ذريعة إلى الشرك والإلحاد وأكبر وسيلة إلى هدم الإسلام وخراب بنيانه غالباً - بل كل من يعمرها - هم الملوك والسلاطين والرؤساء والولاة. أما على قريب لهم أو على من يحسنون الظن فيه من فاضل أو عالم أو صوفي أو فقير أو شيخ أو كبير ويزوره الناس الذي يعرفونه زيارة الأموات من دون توسل به ولا هتاف باسمه. بل يدعون له ويستغفرون حتى يتقرض من يعرفه أو أكثرهم فيأتي من بعدهم فيجد قبراً قد شيد عليه البناء وسرحت عليه الشموع وفرش بالفراش الفاخر وأرخت عليه الستور وألقيت عليه الأوراد والزهور فيعتقد أن ذلك لنفع أو دفع ضرر ويأتيه السدنة يكذبون على الميت بأنه فعل وفعل وأنزل الضرر بفلان ويفلان النفع حتى يغرسوا في جبلته كل باطل.. ولهذا الأمر ثبت في الأحاديث النبوية اللعن على من أسرج على القبور وكتب عليها وبني عليها.. وأحاديث ذلك واسعة معروفة فإن ذلك في نفسه منهي عنه ثم هو ذريعة إلى مفسدة عظيمة».

وهو يقر التوسل بصالحى الأحياء أخذاً من قوله صلى الله عليه وسلم للفاروق وقد ذهب حاجاً «أدع لنا يا أخي».. ومن توسل الأصحاب بالعباس في عام الرمادة. ولكنه يشنع أن يكون التوسل بمن يهمل الفرائض فضلاً عن السنن ويشدد حملته على مبتدعة المتصوفة وخصوصاً القائلين بالأفكار المنسوبة إلى ابن عربي.

الاجتهاد

وهذا هو الموضوع الثاني الذي وقف حياته عليه وعانى من العنت بسببه طوال ثمانين عاماً.. وما من صفحة من صفحات حياته ولا معركة من

معاركه الطويلة التي خاضها إلا والاجتهاد رائدها وحاديها. وبالجملة فالاجتهاد بالنسبة له عنوان حياة وسجل وجود وشهادة خلود تفرعه بارزاً في حياته العلمية كما تشهده بارزاً في حياته العملية..

وفي سنة (١١٣٤) نظم تلميذه النابه إسحاق بن يوسف سؤاله السائر في المذهب الذي تسابق الفحول في الإجابة عليه حتى تناهى أمره إلى المتوكل القاسم، ولقي الأمير من أجله العتاب والتشهير.

العدل

سنكتفي هنا بإيراد نصوص من رسالته التي بعثها إلى المنصور من شهارة سنة ١١٤٦ بعد أن وقع عليها واستمد توقيع من كبار علماء عصره وهي تتناول أهم المظالم السائدة في عصره.

* رسالة الأمير إلى المنصور:

بعث هذه الرسالة إلى المنصور الحسين بن القاسم وهم مقيم بشهارة بعد أن وقع عليها اسمه فتبعه كبار علماء اليمن في شهارة وحوث وصنعاء وأكثرهم من تلاميذه وتولى تسليمها إلى يد المنصور بصنعاء القاضي الشجاع أحمد بن محسن الرصاص فكفاه الله شره فلم ينله بسوء.

(الحمد لله الذي لا يعبد بحق سواه ولا يُخاف إلا بطشه بمن تمرد عليه وعصاه. ولا تُرجى الإنابة إلا منه لمن التزم طاعته وتقواه. والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على الدليل عليه والفائض كل خير من الرب تعالى إلى العباد على يديه وعلى آله والذين اهدوا بهداه وسلوكوا نهجه الذي يسلكه من يرجو النجاة. أما بعد..).

ويقدم ابن الأمير التحية للمنصور ولكل من وافق على ما جاء بهذه الرسالة خصوصاً للعلماء والأعيان والسادة والقضاة ثم يقول:

«وهم بحمد الله لا يجهلون هذه الشريعة المحمدية الغراء. ولا ينكرون ما دعته من الطرق السوية فسلوكها لكل عاقل أولى وأحرى. فهذه آيات كتاب الله تعالى عليهم تتلى. وهذه سنة رسول الله ﷺ لا تزال عليهم تلى. ولا يقول أحد أن الشريعة - وحاشاها - قد نسخت ولا أن عزائمها قد فسخت ولا أن معالمها قد طُمست ولا أن ربوعها قد درست، حجتها باقية على الدهور والتكليف ثابت إلى يوم النشور. لا تزال بحمد الله رايات حقيقتها قائمة وعيون دلائلها مستيقظة غير نائمة، والأعلام تقررها في التدريس والتدوين. وتحررها جهابذة كل عصر بالإيضاح والتبيين على تغالب الأحكام عامة العوام، وأشرفت أنوار الشريعة رؤوس الأنام. إلا أن ها هنا أموراً كادت تنادي بلسان الحال أنه لا حرام ولا حلال ولا سنة ولا كتاب ولا ثواب ولا عقاب ولا جنة ولا نار ولا دار غير هذه الدار. وهل هناك من فرق بين هذه العهود وعهود الجاهلية فإنها انتهكت المحارم واتسع الخرق في المظالم. فكل ظالم لا يقف على حد في ظلمه ولا يزال باب الزيادة مفتوحاً في حد الظلم ورسمه».

□ ومنها قوله عن الأوقاف:

«ثم من المنكرات هذه الأوقاف في اليمن جعلت بنظر بعض المترفين قصارى همه سلب غلاتها وإن أسخط رب العالمين لا ينظر رقبة الوقف ولا الموقوف عليه ولا يجعل عليها نائباً إلا من يركن عليه وما بهذا أمر الله العباد ولا هذا فعل من يخاف المعاد».

المكوس

□ نقلاً عن ابن الأمير وعصره (ص ٢٩٢):

«هذه المكوس قد ملأت الدنيا بمظالمها وأذهبت من الشريعة أبهى معالمها. وهي المسماة بالمجابي في القرى والبوادي. وبالمعشر في البنادر

والسواحل .

وهي ما لا يُعلم على جوازها دليل ولا يدعيه عالم ولا جاهل إلا ما يؤثر عنه ﷺ «إن الله حرم دماءكم وأموالكم وأعراضكم». فمن الذي أباح مال من خرج من بيت الله الحرام غاسلاً ما كان عليه من الآثام .

فإنه لا يخرج إلى هذه السواحل إلا وقبض ما يحزره حتى ما يأكله من الأكل ثم يقوم عليه بالثمن الوافر . ثم يؤخذ منه ما يختاره من بضاعة الكاتب والناظر فتقوم كأنها تركة الأيتام ويؤخذ منه العشر دائماً وهو أضعاف ذلك في حقيقة الكلام .

وكذلك من يخرج من الهند وغيره من الآفاق جالباً لبضاعته نافعاً لعباد الله بتجارته .

فيا عباد الله هل ورد في هذا شريعة من الشرائع فنتبع أم وقع من رسول الله ﷺ وخلفائه فنحن لهم تبع .

● أم قال رسول الله ﷺ : «لا يحل مال مسلم إلا بطيبة من نفسه» . وثبت عنه ﷺ أن الله لا يقبل توبة ماكس وهم قابضوا المجابي التي صارت في هذا القطر اليمني في كل بلدة ومكان يأكلها من قبضت لهم من الحكام وآل الإمام .

فليتق الله كل إنسان من هذا الحرام فإنه لا يجهل أحد تحريمه من الأنام فإن الناس بين قابض ومقبض وناظر وأمر . وهو حرام بإجماع أمة الإسلام .

الإقطاع

وليس المقصود به ما هو معروف اليوم عن الإقطاع بمعناه السياسي وإنما المقصود به ما كان سائداً يومذاك من استيلاء فرد أو أسرة على جهة من البلاد فيأخذون زكاتها لأنفسهم . يقول نص الأمير :

«ثم الطامة العظمى والمصيبة في دين الله الكبرى هذه القطع التي هي من أعظم النكرات وأشنع البدع قد عم البلاء بها وطم وفرقت البلاد بيوتًا وقرى بين الأعيان من آل الإمام وغيرهم ممن لا نفع منهم للأنام وغيرهم من القبائل الطعام وإن كانوا في إقطاعاتهم أحسن سيرة من بيت الإمام. وزاد الشر حتى أقطعت الحريم وكل ذي منصب من خاص وعام. وهذه الأولى صارت من السموم القاتلة لدين الإسلام فإنه إعطاء عين الزكاة لمن تحرم عليه من ثلاث جهات.

من المنصب.. فإنه صح عن الصادق الأمين أنها لا تحمل الزكاة لمحمد ولا لآل محمد. وقد ذهب إمام المذهب الهادي أن مضطر الآل يقدم أكل الميتة على الزكاة.

● وثانيتها أيضًا فإننا لا نعلم صاحب قطعة إلا وهو غني. وقد قال عليه السلام «أنها لا تحمل لغني ولا قوي ولا لذي مرة سوي». وثالثها: أن يأخذ أضعافًا مضاعفة على النصاب».

* العمال والقضاة :

ويتناول في النقطة الثالثة نقد توليته العبيد والأغرار من حملة الشريعة تولي رقاب المسلمين وأخذ زكاتهم. ويلفت نظر الإمام إلى خطورة منصب الحكام وأن المذهب يشترط أن يكون القاضي مجتهدًا. فكيف وأكثر القضاة المعينين ظلمة جاهلين.

«ثم من المصائب في دين الإسلام هؤلاء الذين وُلِّوا منصب القضاة والأحكام فإنه في هذه الأزمنة التساهل في تولية القاصرين ولا سيما إذا كان أبوه قاضيًا فإنه يولي ابنه ولو كان من أجهل الجاهلين. والأصح في المذهب أنه لا بد أن يكون من المجتهدين كأنه ميراث فرضه الله من فوق سبع سماوات. ثم يفرض لهم من المقررات ما يكفي أمة من ذوي الحاجات من

زكاة وغيرها. ثم يقبضون أجوراً واسعة على طيافة شجار أو رقم علامة أو إحضار. وقد أجمعت الأمة كما نقله جماعة من الأئمة أنه يحرم على الحاكم قبض أجره من المتخاصمين حيث له جناية من بيت المال. وإنه لا يستحق ذلك إلا مع نفعه لعباد الله تعالى بالأقوال والأفعال».

✽ الرسامة :

وفي رسالة تسمى (الحراسة عن مخالفة المشروع من السياسة) نقلاً عن زيارة في نشر العرف، (٨٣/١): «ليس الذي اتخذه عمر رضي الله عنه مثل هذه السجون التي عورفت بين الناس من التضييق على من فيها ومنعه من الخروج والدخول لأداء الصلوات وقبض المال من المسجون ولو ساعة. ويسمونها (رسامة). وصارت الحبوس الآن مستغلات للعمال يقبلونها من الأشرار بالأموال. وتبعوا الحجاج في اتخاذ القيود والأغلال. فإنه أول من أحدث ذلك في الإسلام. ولا يخفى على متشرع أن الحبس هذا الذي اتخذه الناس عقوبة من أعظم العقوبات فإنه مشتمل على هتك عرض المسجون وعلى قبض مال منه أولاً أجره لمن يأمره الأمير أن يذهب به إلى الحبس، ثم أجره السجنان، ثم منعه عن التكسب لمعاشه. . وقد ينضاف إلى ذلك تقييده وتحكم السجنان فيه ويهدده بإدخاله محلاً مظلماً يسمونه المطبق حتى يسلم ما لا يدفع به عن إدخاله ذلك المحل. ثم منعه من كل شيء حتى يُمنع من دخول ولده أو والده إليه. بل قد يُمنع عن رؤية البرق كما قال بعض آل محمد عليهم السلام وهو في سجن بني العباس^(١) :

وبدا له من بعدما اندمل الهوى برق تألق موهناً لمعانه
يبدو كحاشية الرداء ودونه صعب الذرى متمنع أركانه

(١) أورد ابن شاعر الكتبي في «فوات الوفيات» أن الأبيات من شعر محمد بن صالح العلوي وقد سجن مدة بأمر المتوكل.

فدنى لينظر كيف لاح فلم يطق
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه
نظراً إليه صده سبحانه
والماء ما سُمَّت به أجفانه

ولقد نظرت في قول يوسف الصديق عليه السلام عند لقائه والده وأهله
وخروا له سجداً حيث قال: ﴿ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلِ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ
أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجْتَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾ . فخص إحسان الله
بإخراجه من السجن ولم يذكر إحسانه إذ أخرجه من الحب ولا إحسانه إذ برأه
من كيد النسوة ولا إحسانه به إذ ملكه مصر ولا إحسانه إذ أخرجه من الرق .
ما ذاك إلا لعظم بلية السجن وعظم ضرره بالعبد وشدة موقعه في القلب .
وإذا كان بهذه المثابة في شدته فلا ينبغي أن يسجن إلا من قد شقَّ عصى
المسلمين وخرج على خليفة قد استقام به أمر العباد فيخرج الخارج لإثارة
الفساد وإيقاظ الفتنة وتفريق كلمة المسلمين وتصيير الناس أحزاباً . وكل طائفة
تغضب لواحد وتختلف الأقوال وتُسفك الدماء وتُقطع السبل » اهـ .

* رائيته التاريخية في أيام الإمام المتوكل :

وضع هذا الإمام العظيم رائيته التي ضمَّنها كل مخازي الوضع ومظالم
الحكم، ووَزَّعت على محارِب المساجد فتداولها الناس صباح اليوم التالي في
كل صنعاء، إذ أنها جدول حافل بما كانت عليه اليمن قبل ثلاثة قرون وما
ظلت تعانيه بعد ذلك على اختلاف الأيام والأعوام نشبتها بنصها على طولها
من الديوان :

سماعاً عباد الله أهل البصائر
فشقوا ثبات الصبر عند سماعه
لقول له ينفي قيام النواظر
وصبوا من الأجفان دمع المهاجر
تقضى وأضحى في مضيق المقابر
بأرفع صوت فوق أعلى المنابر
ولا تحسبوا هذا وفاء بحق من
فقد قام ناعي الدين فيكم منادياً

فما مؤمن للسامعين بعاذر
 قلوب البرايا أم عمى في البصائر
 ويهدم من بنيانه كل عامر
 دفنتم عدواً فقدته غير ضائر
 وأين التسامي للعلی والمفاخر
 طريقته في نهيه والأوامر
 ويضحك منه كل رجس وخاسر
 ويصبح مسروراً بها كل كافر
 ومالت إلى أفعال طاغ وفاجر
 فما لكم في فعلكم من مناظر
 ففعلكم في الجور فعل مفاخر
 يقول بكم واللّه قرت نواظري
 ولم تعملوا منه بنصٍّ وظاهر
 جنّيتم العمال شر المعاشر
 وفارقت الأوطان خوف العساكر
 وتسعة أعشار تصير لعاشر
 حوته وما قد أحرزت من ذخائر
 أجابت علينا بالدموع البوادر
 أما لكم في نصحتهم سهم قامر
 بأن تنصحوا بالحق أهل المناكر
 ودافعتم عنهم بسيف المعاذر

وأسمع سكان البسيطة كلها
 أوقر على الأسماع أم في أكنة
 أيدفن فيما بينكم شرع أحمد
 ولم يرَ مَحزُونٌ عليه كأنما
 شكلكم أين التناصح للهدى
 أضعتم وصايا المصطفى وهجرتم
 وجئتم بأمر منه يبكي ذوو الهدى
 وتشمتم من أفعالكم كل ملة
 فيا عصابة ضلت عن الحق والهدى
 بأي ملوك الأرض كان اقتداؤكم
 أنافستم الحجاج في قبح فعله
 يفديكم إبليس حين يراكم
 نبذتم كتاب اللّه خلف ظهوركم
 خراجية صيرتم الأرض كلها
 لذلك الرعايا في البلاد تفرقت
 وقد رضيت بالعشر من مالها لها
 فلم تقنعوا حتى أخذتم جميع ما إذا
 سئلت عن جوركم وفعالكم
 فقل لقضاة سوء لا در درهم
 أما أخذ الميثاق ربي عليكم
 فنعتم بأخذ السحت منها وبالرشا

وما هي إلا ضحكة في المسامر
 إذا ما عليم خاف سطوة جائر
 غدا منفقاً أموالهم في العمائر
 ويعرض عما قد تلى في التهاثر
 مع الظهر منه يوم كشف السرائر
 إلى كم ترون الجور إحدى المفاجر
 ولو عاش أخلاكم بحد البواتر
 وشر ذنوب الخلق ذنب المجاهر
 وتوفيرها ظلماً على كل تاجر
 وربكم أدرى بكل الضمائر
 أكابركم في فعلهم كالأصاغر
 كإحلال أهل السبت صيد الجزائر
 فقيراً وإعطاء الغني المكائر
 وجئتم بأنواع الأمور المناكر
 تسمى سباً وهي إحدى الفواقر
 وتحمم لخمارة وهو لسامر
 وقد ظهرت في كل باد وحاضر
 وتقطيعه ملقى بجانب المقابر
 ولكن طرحتم فوقه ثوب ساتر
 وخشية أن يخزيكم في المحاضر
 وإغضائهم من موجبات الأوامر

معاذير راحت عند إبليس لاسدى
 وقتتم لمولى الأمر يأخذ مالهم
 وما خاف مولاكم عليهم وإنما
 ويأخذ بالمنقول منهم عقارهم
 ويكنز ما فيها ليكوى جبينه
 ويا عصابة من هاشم قاسمية
 ومن دون هذا أخرج الترك جدكم
 فأحللتم ما حرم الله جهرة
 وجوزتم أخذ المكوس بأرضنا
 وقتتم ترى فيها مصالح للورى
 تساويتم في كل قبح فعلتم
 أحللتهم أخذ الزكاة وأكلها
 وزديتم نص الكتاب بمنعكم
 أتيتم بأصناف الضلالات كلها
 وأما الجزاءات التي كل ليلة
 ففي بردقان أنفقت وحشيشة
 لقد أثرت هذي القبائح بينكم
 لما قد رأينا في الحسين بن طالب
 وبان لكم من غير شك غريمه
 وحابيتم الجاني لأجل قرابة
 أكابركم قد ميزوا لصلاحهم

فَسَحَقًا بَعْدَ ذَا لِعَذْرًا لِلْأَكَابِرِ
 مِنَ الْكُذْبِ الْمُنشُورِ فَوْقَ الْمَنَابِرِ
 فَمَا بِهَا عَادَتْ لِسُخْرَةٍ سَاخِرٍ
 بِهَا سُودَتْ مِنْهُ وَجْوهُ الدَّفَاتِرِ
 وَخَوْلْتُمْ أَعْمَالَكُمْ كُلَّ مَا كَرِ
 بِظَلَمٍ وَجُورٍ قَدْ جَرَى فِي الْعِشَائِرِ
 لِكُلِّ سَمِيعٍ فِي الْأَنَامِ وَنَاظِرٍ
 بِظُلْمِكُمْ قَدْ صَارَ أَعْدَلُ جَائِرٍ
 وَسِيرَتِهِ قَدْ صَارَ أَحْسَنُ شَاكِرٍ
 مَسَاجِدِنَا فِي عَصْرِهِ كَفَّ قَادِرٍ
 فَيَا بئسَ مَأْمُورٍ وَيَا خِزْيَ أَمْرٍ
 وَكَمْ مِنْ سَبِيلٍ قَدْ غَدَا غَيْرَ عَامِرٍ
 وَأَغْلَقْتُ فِيهَا مَسْجِدَ لِلْأَشَاعِرِ
 مَسَاجِدَهَا عَنْ كُلِّ تَالٍ وَذَاكِرٍ
 بِيخْسٍ وَمَا بِأَلَى بِصَفْقَةٍ خَاسِرٍ
 وَأَخْبِثَ أَعْوَانَ لِنَاهِ وَأَمْرٍ
 جَهَلْتُمْ بِأَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ قَادِرٍ
 فَفِي فَعْلِهِ لِلْحَقِّ أَعْظَمُ زَاجِرٍ
 وَأَوَّلُ مَنْ شَادَ الضَّلَالَاتِ لآخِرٍ
 وَزِدْتُمْ عَلَيَّ مَا شَادَهُ مِنْ مَنَاكِرٍ
 خَذَوْهَا عَلَيْهِمْ يَا وِلَاةَ الْبِنَادِرِ

بِإِقْطَاعِهِمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ أَخْذَهُ
 وَأَشْنَعُ خُطْبٍ مَا يَقُولُ خُطْبِيكُمْ
 مَنَابِرُ كَانَتْ لِلْمَوَاعِظِ وَالْهَدْيِ
 مَلَأْتُمْ بِلَادَ اللَّهِ جُورًا وَجِئْتُمْ
 وَوَلِيْتُمْ أَمْرَ الْعِبَادِ شَرَارِكُمْ
 وَقَدْ كُنْتُمْ تَرْمُونَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ
 وَقَبْلْتُمْ نَرَى الْمَهْدِيَّ قَدْ بَانَ جُورُهُ
 صَدَقْتُمْ لَقَدْ كَانَ الظُّلُومُ وَإِنَّمَا
 فَكُلِّ فِتْنَى قَدْ كَانَ شَكْوَى فَعَالِهِ
 وَمَا أَخَذَ الْأَوْقَافَ قَطُّ وَلَا اشْتَكَيْتُمْ
 وَلَا أَمْرَ الشَّجْنِيِّ بِأَخْذِ مَالِهَا
 فَبِالْأَخْذِ كَمْ قَدْ أَغْلَقْتُمْ مِنْ مَدَارِسِ
 وَكَمْ فِي زَبِيدٍ أَغْلَقْتُمْ مِنْ مَسَاجِدِ
 وَفِي آتَسِ كَمْ قَرْيَةٍ قَدْ تَعَطَّلَتْ
 وَلَوْ تَشْتَرِي تِلْكَ الْمَسَاجِدَ بِأَعْيَانِهَا
 وَيَا وَزُرَّاءِ السُّوءِ يَا شَرَّ فِرْقَةٍ
 إِلَى أَيِّ حِينٍ فِي الضَّلَالَةِ أَنْتُمْ
 أَمَا بِالْحَرِيبِيِّ الشَّقِيِّ اعْتَبِرْتُمْ
 هُوَ الرَّأْسُ فِي كُلِّ الضَّلَالَاتِ كَلِّهَا
 وَلَكِنْكُمْ جِئْتُمْ بِأَضْعَافِ ظُلْمِهِ
 وَقَبْلْتُمْ نَرَى الْأَجْبَارَ أَمْوَالَهُمْ لَهُمْ

ولكن دعوا آل الخليفة كلهم
ومن خفتهم من شره وفساده
فما يفعل الدجال مثل صنيعكم
فأفعالكم لو رمت حصراً لعدما
ويا علماء الدين ما لي أراكم
أما الأمر بالمعروف والنهي فريضكم
فإنهم عصوكم فاهجروهم وهاجروا
إذا كان هذا حال قاضٍ وعالم
ولم تنتهوا عن غيكم فترقبوا
فما الله عما تعملون بغافل
وقد أرسل الآيات منه مخوفاً
رماكم بقحطٍ ما سمعنا بمثله
أجيبوا عباد الله صوت مناصح
وقوموا سراعاً نحو نصره دينكم
وحسن ختام النظم أزكى صلواتنا

وأعوانه من حاكم أو مؤازر
كردمان وابن الحاج أهل العشائر
فلا تشمتموا من بعد هذا بكافر
لأفنيتم في الدنيا منداد المحابر
تغاضيتهم عن منكرات الأوامر
فأعرضتم عن ذاك إعراض هاجر
تنالوا بنصر الدين أجر المهاجر
وخال وزير أو آمر مظاهر
صواعق قهاز وسطوة قنادر
ولكنه يملئ لطاغ وفاجر
ولكن غفلتم عن سماع الزواجر
وحبس سحاب بالإغاثة ماطر
دعاكم بصوت ما له من مناصر
إذا رتمت في الحشر غفران غافر
على المصطفى والآل أهل المفاخر

وقد اهتز القصر لهول المفاجأة التي لم يكن قد تعودها ولم يدر بحسابه
وقع مثلها. فلقد أصبحت صنعاء الهادئة الصامته تتناول القصيدة الكاشفة
لفضائح الوضع ثم تناقلتها الأيدي خارج صنعاء وعلى امتداد أرجاء اليمن
وكل قارئ لها يشعر أنها تنطق عن قلبه وتحدث بلسانه؛ لأنها الصدى
المسموع لكل صور المعاناة اليومية والمتاعب الدائمة»^(١)

(١) «مصلح اليمن محمد بن إسماعيل» ص (٧٦-٧٩).

نصرة السنة ومحاربة البدعة

وهذه هي القضية الأساسية الخامسة التي قطع فيها الأيام والأعوام. وما أعظمها من قضية وما أكرمه من مقام. وقد اخترنا ثلاثة مواضع تمثل بعضاً من نشاطه الجاهد وسعيه الحميد في هذا المجال.

* الكفاءة بين الزوجين:

□ قال في «سبل السلام» ج(٢) ص(١٠٠٧):

«والذي يقوى هو ما ذهب إليه زيد بن علي ومالك، ويروى عن عمر وابن مسعود وابن سيرين وعمر بن عبدالعزيز وهو أحد قولنا الناصر أن المعتبر الدين لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ولحديث: «الناس كلهم ولد آدم»، وتامه «وآدم من تراب» أخرجه ابن سعد من حديث أبي هريرة وليس فيه لفظ كلهم «والناس كأسنان المشط لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى»، أخرجه ابن لال بلفظ قريب من لفظ حديث ابن سعد. وأشار البخاري إلى نصرة هذا القول حيث قال: «باب الأكفاء في الدين»، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ الآية. فاستنبط من الآية المساواة بين بني آدم ثم أرفده بإنكاح أبي حذيفة من سالم بابنة أخيه هند بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة وسالم مولى امرأة من الأنصار، وقد تقدم حديث «فعلبك بذات الدين» وقد خطب النبي ﷺ يوم فتح مكة فقال: «الحمد لله الذي أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتكبرها. يا أيها الناس إنما الناس رجلان: مؤمن تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله. ثم قرأ الآية».

● وقال ﷺ: «من سرّه أن يكون أكرم الناس فليتنق الله».

فجعل ﷺ الالتفات إلى الأنساب عيبة الجاهلية وتكبرها. فكيف يعتبرها المؤمن ويبنى عليها حكماً شرعياً.

● وفي الحديث: «أربع من أمور الجاهلية لا يتركها الناس». ثم ذكر الفخر بالأنساب. أخرجه ابن جرير من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. . وفي الأحاديث شيء كثير في ذم الالتفات إلى الترفع بها. وقد أمر صلى الله عليه وسلم بني بياضة بإنكاح أبي هند الحجاج وقال: «إنما هو امرؤ من المسلمين» فنبه على الوجه المقتضي لمساواتهم وهو الاتفاق في وصف الإسلام. وللناس في هذه المسألة عجائب لا تدور على دليل غير الكبرياء والترفع. ولا إله إلا الله كم حرمت المؤمنات النكاح لكبرياء الأولياء. ولقد منعت الفاطميات من جهة اليمن ما أحل الله لهن من النكاح لقول بعض أهل مذهب الهادوية أنه يحرم نكاح الفاطمية إلا من فاطمي، من غير دليل ذكره. . وليس مذهب الإمام الهادي عليه السلام بل زوج بناته من الطبريين. . وإنما نشأ هذا القول من بعده في أيام الإمام أحمد بن سليمان وتبعهم بيت رياستها فقالوا بلسان الحال: تحرم شرائفهم على الفاطميين إلا من مثلهم. وكان ذلك من غير علم ولا هدى ولا كتاب منير بل ثبت خلاف ما قالوه عن سيد البشر كما دل له. .

● وعن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها: «انكحي أسامة» رواه مسلم. وفاطمة قرشية فهرية أخت الضحاك ابن قيس وهي من المهاجرات الأول. كانت ذات جمال وفضل وكمال. جاءت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن طلقها أبو عمرو ابن حفص بن المغيرة بعد انقضاء عدتها منه فأخبرته أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم خطباها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه وأما معاوية فصعلوك لا مال له. انكحي أسامة بن زيد - الحديث». فأمرها بنكاح أسامة مولاة ابن مولاة وهي قرشية. وقدمه على أكفائها ممن ذكر. ولا أعلم أنه طلب من أحد من أوليائها إسقاط حقه. وكان المصنف - رحمه الله - أورد هذا الحديث بعد بيان ضعف الحديث الأول للإشارة إلى أنه لا عبرة في الكفاءة بغير الدين كما أورد لذلك قوله.

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلوات الله عليه قال: «يا بني بياضة انكحوا أبا هند». اسمه يسار وهو الذي حُجِمَ النبي صلوات الله عليه. وكان مولى لبني بياضة «وانكحوا إليه وكان حجاماً» رواه أبو داود والحاكم بسند جيد.

فهو من أدلة عدم اعتبار كفاءة الأنساب. وقد صح أن بلالاً نكح هالة ابنت عوف أخت عبدالرحمن بن عوف.

* ثناؤه ودفاعه عن شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب:

وتواردت إليه أخبار الشيخ المصلح محمد بن عبدالوهاب وما قام به من الجهود في تصحيح الاعتقاد وحمل الناس على التوحيد وطرح المعتقدات الفاسدة مع قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فسره ذلك كل السرور وحفزه على وضع قصيدته الدالية المشهورة إلى ابن عبدالوهاب عن طريق مكة:

سلام على نجد ومن حل في نجد وإن كان تسليمي على البعد لا يجدي
واشتملت القصيدة على تحييده حرق «دلائل الخيرات» والحملة على بدعة المذهبية والمتصوفة من أتباع ابن عربي والثناء على مذهب السلف المتمسكين بأدلة الكتاب والسنة وهي تبلغ في مجموعها أربعة وستين بيتاً وربما عدنا إليها في الباب التالي. كان ذلك في سنة ١١٦٣هـ ومضت سنوات والقصيدة تطير كل مطار متجاوزة الجزيرة إلى غيرها ووصلت إليه ردود التحييد والاعتراض من كبار علماء الأقطار إلا أن ابن عبدالوهاب لم يرد على ذلك بشيء لا شعراً ولا نثراً.

* سعيه لتدمير أصنام البانين:

وفي سنة ١١٦٣هـ حرر رسالة بتدمير أصنام البانين بالمخا فأمر المهدي بتدميرها وصودرت أموالها المحبوسة عليها وكانت تبلغ خمسين ألف ريال^(١).

(١) المصدر السابق (ص ٩٤ - ٩٥).

* نشره للسنة خلال سجنه :

سجن الإمام الصنعاني عام ١١٦٦هـ فلم يُصَيِّع الأمير فترة الشهرين التي استغرقها حبسه وإنما صرفها في نشر السنة فلله دره وأصبح النقيب الماس الذي حبس عنده من تلاميذه اللاصقين .

* فضحه لليهود وعمله على إخراجهم من شبه جزيرة العرب :

لاحظ الصنعاني - رحمه الله - انتفاش اليهود في اليمن وتطاولهم وخاصة في أيام المهدي أحمد بن الحسن ونفوذهم المتزايد داخل الحاشية وسيطرتهم على اقتصاد البلاد واحتكارهم لضرب العملة فجعلوا يتوسعون في عمارة الكنائس زيادة على العدد المسموح به والمتفق عليه وشرعوا ينشرون المبادئ في المجتمع مثل بيع الخمر وإفساد الأخلاق وتطاول بهم الأمر إلى حد أنهم كانوا يزاحمون المسلمين في الطرقات ويحملونهم على سلوك ينار الطريق كما ذكر ذلك الأمير في «سبل السلام» .

ومن يرجع إلى كتاب «حوليات يمانية» سيجد أخبار زيارتهم الغربية لصنعاء في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . وانطلاقاً من اطلاعه الواسع على تاريخهم المقيت ضد الإسلام وفهمه العميق لحكم الله تعالى ووضيعة رسوله ﷺ بإجلالهم عن الجزيرة كان يبذل وسعه ويحث الإمام على إخراجهم أو على الأقل إلزامهم بحورهم التي أنزلوا فيها . وذات يوم اعتدى مخمور على مزاهق ليفحش به فأنقذه الناس وغضب الإمام وطلب كبير اليهود سالم العرافي منكرًا عليهم بيع الخمر . ولكثرة المندسين في الحاشية من أصدقاء اليهود أو عزوا إلى سالم أن يفترى على الأمير والحسن بن إسحاق أنهما افتيا بذلك وسمع الأمير بالزعم المفترى لتوه إلى المتوكل مطالبًا

بإحضار سالم والتحقيق فيما افتراه وأحضر سالم فعلاً. وهناك فاجأه الأمير بمناقشته عن الكنائس المستحدثة خلافاً للاتفاق. وبينما سالم مرتبك في الإجابة على ذلك إذا بالأمير يفاجئه مرة أخرى بالسؤال عما زعمه من فتوى الأمير وإسحاق وعندها أقر اليهودي أنه لم يكن قد اتفق بالأمير ولا بابن إسحاق وإنما أخبرهم عالمهم بذلك فاتضح للمتوكل كذبه وأمر بحبسه ولكن الأمير أوضح له أن الحبس غير كاف وإنما المقصود هو إزالة الكنائس المستحدثة؛ لأن في بقائها شراً كبيراً. وحذر المتوكل من أصدقاء اليهود المندسين في حاشيته. وفعلاً ما كاد الأمير يصل منزله حتى هرع أفراد الحاشية يتشفعون لدى المتوكل بإخراج سالم من الحبس ووقف الهدم للكنائس..

ولنصغ إلى المؤرخ زبارة يحدثنا في «نشر العرف» عن تفاصيل تلك الحادثة وما كان من مناظرة الأمير مع يوسف المتوكل حولها ورسالة ابن الوزير بشأنها قال (ص ٥١٤): ثم أن البدر الأمير ناصح المتوكل بأنه يجب عليه إخراج اليهود من جزيرة العرب التي منها اليمن كما أوصى النبي ﷺ فإن لم يتم إخراجهم فلا أقل من التزامهم الصغار وخراب ما زادوه من الكنائس مما لم يؤذن فيه.

فأمر المتوكل عند ذلك بخراب الكنائس. ثم قال له البدر: هذا اليهودي يبذل المال لمعاونه وسيراجعكم الآن في شأنه كل أحد ثم خرج. فلما كان ببعض الطريق أرسل إليه المتوكل بأول مكتوب وصل إليه وأمر المتوكل بأن لا يقيد اليهودي.

وكان اليوم يوم الجمعة. فلما كان بعد صلاتها بلغ البدر أن المتوكل قد أمر بكف الخراب للكنائس. وكان قد شرع فيه المأمورون. فدخل على المتوكل فقال له: قد كنا سنرسل إليك السيد أحمد ابن عبدالرحمن الشامي لأن الولد يوسف بن المتوكل وصل إلي إلى المحراب في الجامع وقال: لا يحل خراب

الكنائس فقد قررهـم عليها الأئمة . فقال البدر : اطلبوه إلى مقامكم للمناظرة .
 ففرح المتوكل بذلك وأرسل إليه فلما دخل عليه قال له : هذا السيد هو المرشد
 إلى خراب الكنائس . فقال المولى يوسف بن المتوكل مخاطباً للبدر : كيف
 يصدر منكم هذا؟ فقال البدر : أما خراب الكنائس فأمرسهـل إنما أطلب من
 الإمام تنفيذ وصية رسول الله ﷺ بإخراج اليهود من جزيرة العرب .
 فقال يوسف : وأين هذا الحديث؟ فقال البدر : هو في كتب الحديث
 وغيرها . منها «شرح الآثار» .

فأمر المتوكل السيد أحمد بن عبدالرحمن الشامي أن يحضر «شرح
 الآثار» فجاء به ففتح البدر على الحديث .

قال المولى يوسف : إن السيد محمد منطيق وأنا على المنطيق لا أطيع .
 فقال المتوكل : فلم جئتنا إلى المحراب . وانقضى المجلس ولم يتم المرام
 ثم ألف السيد العلامة عبدالله بن علي الوزير رسالة يرجح فيها تقرير اليهود
 على البقاء في اليمن فأورد أدلة واهية وأرسل بها إلى القاضي يحيى بن حسن
 سيلان؛ ليلغها إلى المتوكل .
 فمر بها الرسول على المولى العلامة الحسن بن إسحاق فاطلع البدر
 عليها .

فأمر البدر رجلاً يشبه خطه خط الرسالة أن يكتب ما يملكه عليه في
 نقضها وكتب الرد في هامشها بعد كل بحث . وكان يصحح في آخر البحث
 من الرد موهماً أنه من الأصل ثم أرجعها إلى الرسول واستكتمه . فلما أبلغها
 القاضي يحيى سيلان إلى المتوكل أمر بقراءتها . ثم قال المتوكل : اقرأ ما في
 هامشها فإذا هو ناقض للأصل . فقال المتوكل كيف هذا ينقض بعضه بعضاً .
 فقال : لا أدري^(١) اهـ .

(١) المصدر السابق (ص ٨١ - ٨٣) .

□ قال الصنعاني في «سبل السلام» عن وجوب إخراج اليهود والنصارى والمجوس من جزيرة العرب:

والحديث دليل على وجوب إخراج اليهود والنصارى والمجوس من جزيرة العرب لعموم قوله: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب». وهو عام لكل دين.

والمجوس بخصوصهم حكمهم حكم أهل الكتاب كما عرفت. وأما حقيقة جزيرة العرب فقال مجد الدين في القاموس: جزيرة العرب ما أحاط به بحر الهند وبحر الشام، ثم دجلة والفرات. أو ما بين عدن أبين إلى أطراف الشام طولاً ومن جدة إلى أطراف ريف العراق عرضاً. انتهى.

وأضيفت إلى العرب لأنها كانت أوطانهم قبل الإسلام وأوطان إسلامهم وهي تحت أيديهم. وبما تضمنت الأحاديث من وجوب إخراج من له دين غير الإسلام من جزيرة العرب. قاله مالك والشافعي وغيرهما.

إلا أن الشافعي والهادوية خصّوا ذلك بالحجاز، قال الشافعي: وإن سئل من يعطي الجزية أن يعطيها ويجزي عليه الحكم على أن يسكن الحجاز لم يكن له ذلك.

والمراد بالحجاز مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها كلها.

وفي القاموس: الحجاز مكة والمدينة والطائف ومخاليفها فإنها حجزت بين نجد وتهامة أو بين نجد والسراة أو لأنها انحجزت بالحرار الخمس: حرة بني سليم وراقم ولىلى وشوزان والتار.

قال الشافعي: ولا أعلم أحداً أجلى أحداً من أهل الذمة وقد كانت بها ذمة. وليس اليمن بحجاز فلا يجلبهم أحد من اليمن ولا بأن يصالحهم على مقامهم باليمن (قلت) لا يخفى أن الأحاديث الماضية فيها الأمر بإخراج من ذكر من أهل الأديان غير دين الإسلام من جزيرة العرب.

والحجاز بعض جزيرة العرب. وورد في حديث أبي عبيدة الأمر بإخراجهم من الحجاز وهو بعض من جزيرة العرب. والحكم - كما تقرر في الأصول - أن الحكم على بعض أفراد العام لا يخصص العام. وهذا نظيره. وليست جزيرة العرب من ألفاظ العموم كما وهم فيه جماعة من العلماء. وغاية ما أفاده حديث أبي عبيدة زيادة التأكيد في إخراجهم من الحجاز؛ لأنه دخل إخراجهم من الحجاز تحت الأمر بإخراجهم من جزيرة العرب. ثم أفرد بالأمر زيادة تأكيد لا أنه تخصيص أو نسخ. كيف وقد كان آخر كلامه ﷺ: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب». كما قال ابن عباس أوصى عند موته...

وأخرج البيهقي من حديث مالك عن إسماعيل بن أبي حكيم أنه سمع عمر بن عبدالعزيز يقول: بلغني أنه كان من آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ أنه قال: «قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد لا يبقيون دينان بأرض العرب»...

وأما قول الشافعي: أنه لا يعلم أحداً أجلاهم من اليمن فليس ترك إجلائهم بدليل فإن أعدار من ترك ذلك كثيرة. وقد ترك أبو بكر رضي الله عنه إجلاء أهل الحجاز مع الاتفاق على وجوب إجلائهم لشغله بجهاد أهل الردة. ولم يكف ذلك دليلاً على أنهم لا يجلون بل أجلاهم عمر رضي الله عنه. وأما القول بأنه ﷺ أقرهم في اليمن بقوله لمعاذ: «خذ من كل حالم ديناراً أو عدله معافياً». فهذا كان قبل أمره ﷺ بإخراجهم فإنه كان عند وفاته كما عرفت. فالحق وجوب إجلائهم من اليمن لوضوح دليله. وكذا القول بأن تقريرهم في اليمن قد صار إجماعاً سكوتياً لا ينهض على دفع الأحاديث فإن السكوت من العلماء على أمر وقع من الآحاد أو من خليفة أو غيره من فعل محظور أو ترك واجب لا يدل على جواز ما وقع ولا على جواز ما ترك فإنه إن كان

الواقع فعلاً أو تركاً لمنكر وسكتوا لم يدل سكوتهم على أنه ليس بمنكر لما علم من أن مراتب الإنكار ثلاث باليد واللسان أو القلب وانتفاء الإنكار باليد واللسان لا يدل على انتفائه بالقلب وحينئذ فلا يدل سكوته على تقرير ما وقع حتى يقال: قد أجمع عليه إجماعاً سكوتياً. إذ لا يثبت أنه قد أجمع الساكت إذا علم رضاه بالواقع ولا يعلم ذلك إلا علام الغيوب. وبهذا يعرف بطلان القول: بأن الإجماع السكوتي حجة.

ولا أعلم أحداً قد حرر هذا في الإجماع السكوتي مع وضحه. والحمد لله المنعم المفضل فقد أوضحناه في رسالة مستقلة. فالعجب ممن قال ومثله قد يفيد القطع وكذلك قول من قال: أنه يحتمل أن حديث الأمر بالإخراج كان عند سكوتهم بغير جزية باطل لأن الأمر بإخراجهم عند وفاته عليه السلام والجزية فرضت في التاسعة من الهجرة عند نزول براءة فكيف يتم هذا؟ ثم أن عمر أجلى أهل نجران وقد كان صالحهم عليه السلام على مال واسع كما هو معروف وهو جراية والتكلف لتقويم ما عليه الناس ورد ما ورد من النصوص بمثل هذه التأويلات مما يطيل تعجب الناظر المنصف.

□ قال النووي: قال العلماء - رحمهم الله تعالى -: ولا يمنع الكفار من التردد مسافرين إلى الحجاز ولا يمكثون فيه أكثر من ثلاثة أيام.

قال الشافعي ومن وافقه: إلا مكة وحرمتها فلا يجوز تمكين كافر من دخولها بحال فإذا دخل في خفية وجب إخراجه فإن مات ودُفن فيه نُبش وأخرج ما لم يتغير. وحجته قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجس فلا يقربوا المسجد الحرام﴾.

﴿ قلت: ولا يخفى أن البانيان هم المجوس والمجوس حكمهم من حكم أهل الكتاب لحديثه: «فسنوا بهم سنة أهل الكتاب».. فيجب إخراجهم من أرض اليمن ومن كل محل من جزيرة العرب.. وعلى فرض أنهم ليسوا

بمجنوس فالدليل على إخراجهم دخولهم تحت «لا يجتمع دينان في أرض العرب»^(١).

□ حرقه لكتابي «الإنسان الكامل» لعبدالكريم الجيلي، ومعه «المضنون به على غير أهله» المنسوب للغزالي.

قال في الديوان: لما تناول معي عارض الإسهال زيادة على سنة ونصف ولم ينفع فيه دواء وأعياء الأطباء جاءني بعض فقهاء صنعاء بكتاب اسمه «الإنسان الكامل» تأليف الجيلي. ومعه «المضنون به على غير أهله» منسوب إلى تأليف الغزالي ولا أظنه من مؤلفاته، وإنما هو مكذوب عليه إن شاء الله.

فطالعت الكتابين وكنت أعرف الأول منهما من أيام ثم رأيت فيهما ما هو والله كفر لا يتردد فيه إيمان. فحرقتهما ثم جعلت أوراقهما في التور وخبز لي على نارهما خبز نضيج وأكلته بنية الشفاء من ذلك الداء فذهب بحمد الله ذلك الألم. وئمت الليل أو أكثره وحمدت الله تعالى على نصرة دينه وعلى العافية. وقلت أبياتاً، وهي:

ألمّ بجسمي عارض طال مكثه وأعياء الأطباء منه طول سقامي
وأشفق أولادي وأهلي وجيرتي وظن حميمي أن فيه حمامي
ومما زلت أدعو الله في كل ساعة وهل غيره يرجي لكل مرام^(٢)
* دفاعه عن الحجيج وطلب حمايتهم:

وفي شهر جمادى الآخرة من سنة ١١٨٢هـ توجه ولده إبراهيم قاصداً البيت الحرام وكانت الأخبار الواردة عن الحرمين تنقل إلى المسامع خبر

(١) «سبل السلام» (٢/٣٦٧).

(٢) «مصلح اليمن» (ص ١٢٨ - ١٢٩).

اضطراب الأحوال هناك وسطو العبيد على الحجيج فبعثها إلى الملك آنذاك الشريف مساعد يقول فيها:

وأهل البيت والبلد الحرام	إلى الأشراف أعيان الأنام
وابنا أحمد خير الأنام	بنو حسن وآل أبي نُمي
من الرب السلام على الدوام	سلام لا يزال على رباكم
يحاول فيه أنواع الأثام	ولا زلتم حماة البيت ممن
تواتر من يمني وشامي	أتانا عنكم خير غريب
يخيفون الحجيج بكل عام	بأن عبيدكم أضحوالوصواً
بيطن الجيب أو تحت الحزام	إذا ظنوا بمال عند شخص
ولو في الحجر كان أو المقام	توالتبت الجميع ليأخذوه
بلا خوف هناك ولا احتشام	ولو بالقتل إن عنهم تأبى
لماذا لا تذب عن الأنام	فقل لمساعد الملك المفدى
من الإشراف ليس له مسامي	وأنت عزيز قومك في أسود
ويلقنى الخوف في البلد الحرام	أيا من يحج بكل فج

* رده على الزنادقة :

كان الأمير يسمع بالمنكر البعيد عنه فيلزم نفسه بإنكاره ولو باللسان . .
بلغه مرة ظهور بعض الفواحش بقطر قصبي عنه فوضع قصيدة طويلة ينكر
فيها على من سمع . . وكذلك شأنه مع بيت يقول زنديق أو شبهة يروجها
فاسق فلا يلبث أن يضع رده المفحم عليها . . وقف على بيتي الراوندي:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه	وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الأوهام حائرة	وصير العالم النحرير زنديقا

وهو الراوندي المرتد الذي هرب من سيوف المسلمين وأوى إلى ابن

لاوي اليهودي ووضع له كتباً في الرد على الشريعة الإسلامية وصاحبها
عليه السلام فأجاب الأمير على بيته بقوله:

هذا الذي زاد أهل العلم معرفة
فليس بالجهل صار الرزق مغتبطاً
وإنما هي أرزاق مقدرة

□ ووقف الأمير على أبيات المعري:

كم غودرت غاظة كعاب
أحرزها الوالدان خوفاً
يجوز أن تخطئ المنايا
□ فأجاب عليه:

والله ما أخطت المنايا
وإنما خالق البرايا
قدر آجالهم كماشا
فمن تعامى وكان أعمى
□ وأطلع على قول المعري أيضاً:

أخفتم السابح في لجة
هذا وأنتم عرش للردى
□ فرد عليه:

يا برهمني الشرع ربي الذي
لو كنت تقرى الذكر والسنة
فما على من صناد حوتاً ولا
□ وقال أيضاً في الرد عليه:

حرمت أكل اللحم يا جاهلاً
ولمت من جهلك أهل الصلاح

وربنا من علينا بما
تفضلاً يا منكراً فضله
نصيد من حوت وذات الجناح
قلدت أهل الكفر لكننا
فما علينا في مباح جناح
تبع آيات الكتاب الصحاح^(١)

□ فرحم الله الإمام الصنعاني وأجزل له المثوبة بدفاعه عن دينه ونشره
للسنة وقمعه للبدعة.

* العلامة القانت يحيى بن محمد الحوثي ابن عروب تلميذ الصنعاني
وإنكاره على إمام اليمن المنصور:

في سنة ١١٤٢هـ كان هجوم الباطنية من يام على بيت الفقيه إحدى
مدن تهامة وعلى حفاش وملحان. وارتكبوا فيها العظائم. وبعد أن نهبوا
وسلبوا أرسل المنصور جنداً اعترضوهم في أثناء الطريق وانتزعوا منهم شطراً
مما نهبوه. وكانت هذه الحادثة من أشنع ما صنعته الباطنية وبعض الموالين لهم
من القبائل فإنهم لم يكتفوا بسلب الأموال وإنما أضافوا إليها سبي النساء
والأطفال وبيع الحرائر وبيع الإماء. واعتبر المنصور استيلاء جنده على الشطر
المنهوب نصراً ضربت له الطبول، ووردت به البشائر، وقبلت فيه التهاني.
لكن الله سبحانه جعل في كل جيل شهوداً منه ووازيين له. فما أن وردت
المراسيم الإمامية ناقلة التهاني مفعمة بالابتهاج حتى بعث العلامة القانت
يحيى بن محمد الحوثي ابن عروب تلميذ ابن الأمير السالف الذكر برسالة رد
إلى الإمام المنصور ينكر عليه سطوته ويوضح له حقيقة ما جرى ويجري وهي
وثيقة من وثائق الإجلال لعلماء اليمن الصادعين بالحق.

وإليك فقرة من رسالته إلى المنصور قال: خلا أن كتابكم أعلن بما لا

(١) «مصلح اليمن» (ص ٢١٣ - ٢١٥).

يقتضيه الحال والمقام. وإن لكل مقام مقالاً ولكل مقال حالاً يعرف. ذلك من نظرة في علم البلاغة وإن لم يكن من أهل الكمال دع عنك من صال في ميدان ذلك العلم وجال. والحال يقتضي أن يؤتى بكتاب حادث عظيم وخطب جسيم وكتاب تغزية بما حصل على المسلمين والضعفاء والمساكين وما لا قوه من الظلمة الضالين ثم تأسونا بما أسانا به القرآن وبما وصانا رسول الرحمن ﷺ ما اختلف الملوان وكر الجديدان وبما قاله السلف الصالحون ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾. وكيف لا؟ وهذه مصيبة في الإسلام وحادث جلل على الأنام وقد سببت كذا وكذا امرأة وكذا وكذا ولد. وأهلكت النفوس المحترمت وغصبت الأموال المملوكات واستبيحت الفروج المحرّمات. وصار المسلمون خولاً وأموالهم دولاً ونساءهم كالإماء تباع وتشتري. فخلق بالمسلمين أن يكوا دمًا لا ماء وأن يسكبوا الدموع من العيون وأن يعزي بعضهم بعضاً وأن يظهروا التلهف والجزع والخيب والفرع لا سيما من أحل بالدفع وهو عليه فرض. فهذا المقال هو الذي يقتضيه الحال لا ما استعرتوه من الأبيات المصرة والفقر المسجعة والألفاظ المصرة.

فهذه البضاعة لا تنفق إلا عند غير أهل هذه الصناعة من الجهلة الأغمار لا عند الناظرين بعين الاعتبار من ذوي البصائر والأبصار».

□ ويقول بعد استطراده في تصوير ما حدث بين الباطنية وجند المنصور من التكالب على السلب، ويخلص إلى الرد على ما كان يطلقه المنصور على جنده من نعتهم بالمجاهدين: «وما ذكرتموه من أن المجاهدين الثابتين فعلوا وفعلوا ممن ذكرتهم لا يستحق اسم المجاهد الشهيد. وإنه قد حدّ لنا نبينا ﷺ حين سئل ما هو؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا».

وهؤلاء إنما قتالهم على حطام الدنيا. وكان يجب عليكم الدفع عن رعييتكم من الضعفاء قبل أن تنهشهم الكلاب والذئاب، وقبل أن يصلوا إلى بلاد حفاش وملحان. ولو كسرتم تلك الفئة الباغية قبل أن يصلوا إلى المسلمين لعددنا ذلك نصراً مبيئاً وبشارة عظيمة ولكأنكم فتحتم القسطنطينية وفلسطين، ولو كان جندكم من أهل الحق كما ذكرتم لردوا ما نهبوه إلى أهله ولما بقوا في الحين وحرار محررين أنفسهم من سقوط السماء أو كأنهم حافظون لها وهي لا تقع على الأرض إلا بإذن الله».

□ ثم يسرد بعض الخطوب التي نزلت برعاياه ويحدد أسباب الداء. ولعمري أنه لقول فاصل ما أحوج الناس حتى اليوم إليه.

□ قال - رحمه الله -: «نعم قد كتبنا كتباً من جهة المصالحة لحاشد وبكيل ويافع، وأجبتهم بجواب مغالطة تركتم ما ذكرناه لكم من المصالحة لأنكم لو فعلتم ذلك لما نهبت يافع قطعة... والسبب فيما حصل أنكم خصصتم بوزراء سوء كل واحد منهم عن الدين عاطل، دينهم أكل أموال الناس بالباطل، ولا يصلون إلى ذلك إلا بفتح هذه المهالك، ولم يرقبوا شديد بطش المالك، فبعضهم يقف فوق سجاده بعض يومه وليلته وتلك شبكة لأموال المسلمين، وبعضهم يخطب خبط عشواء كحاطب ليل في ظلما لا ينظر في الأمر بعين الحقيقة، ويوهم بأنه من أهل الطريقة، وكلهم يتبع كل ما قيل له: هذا كذا قال: بلى هذا يصلح هذا من أحسن ما يكون. فهؤلاء يجب عليكم الدفع عن المسلمين بما أمكن إما بقتال العدو أو المصالحة كما كان عليه من قبلكم، وكذلك النظر في المحوسين؛ فإن تحميلهم القيود الثقيلة المهلكة أو المثخنة مما لا يجوز وكذلك غيرهم من المستضعفين. ولم يكن لأئمة أهل البيت ذلك، وإنما كانت قيودهم بأقفال تُفتح للصلاة» اهـ^(١).

□ وفضل الحوثي ابن عروب شاهد بفضل الصنعاني فإنه حسنة من حسناته.

✽ الشوكاني شيخ عصره - قذى في عيون المبتدعة والمقلدة وشجى في حلوق الرافضة:

واجه الشوكاني أدواء قومه ومفاسدهم الويلة، والركام الهائل من الاعتقادات المنحرفة والأهواء الزائفة والنظريات السقيمة التي أصابت الأمة على امتداد القرون وتناول الأحقاب وابتعادها شيئاً فشيئاً عن صراطها المستقيم وعروتها الوثقى الكتاب والسنة فنتج عن ذلك البعد أخطبوط متعدد الجنبات والاتجاهات:

- ١ - الرافضة بما تعنيه من ثلب الأصحاب وبالتالي منابذة السنة فالتردي في المهالك التي لا يبقى معها دين.
- ٢ - الباطنية بمنطلقها المجوسي الحاقد على الإسلام وتنظيمها الهادم لأسس العقيدة المفضي إلى نسف كيان الأمة.
- ٣ - التصوف الفلسفي المؤثر للابتداع على الاتباع مما يؤدي إلى الانحراف والخبط في المتاهات.
- ٤ - المذهبية لابتعادها عن المصدر الواحد النقي، والتيه في مختلف الأقوال، والجمود وعدم تمحيص أقوال الرجال على ضوء الأدلة القطعية.
- ٥ - إلى جانب ذلك المظالم المتعددة من الظلم الإداري الناتج عن عبث واختلاس رجال الحكم والظلم المالي المتمثل في المكوس الجائرة المفروضة على المسلمين بغير سند شرعي، وإنما هي معارضة لما نهى عنه الكتاب والسنة والظلم الاجتماعي المتمثل في ما كان سائداً ولا يزال في بعض الجهات من التحايل على ميراث المرأة باسم الوصايا والنذور ومنعها من حقها المكفول لها

بالشريعة. وكذلك موضوع الطلاق الذي أصبح مع طول الزمن مخالفاً في أغلب صورته لمقتضى الشريعة المبين بالكتاب والسنة الصحيحة والظلم القبلي الذي كان ولا يزال يحدث من اعتداء قبيلة على أخرى وإهدار الأرواح والديار والأموال.

كل تلك الأمراض والمظالم كانت موضوعة في خارطة الشوكاني الفكرية والعملية وهو يتحسس أوجاع قومه.

* دعوة الشوكاني إلى عقيدة السلف :

يرى الإمام الشوكاني: «أن طرق المتكلمين لا توصل إلى يقين ولا يمكن أن تصيب الحق فيما هدفت إليه؛ لأن معظمها قام على أصول ظنية، لا مستند لها إلا مجرد الدعوى على العقل، والفرية على الفطرة، فكل فريق منهم قد جعل له أصولاً تخالف ما عليه الآخر، وقد أقام هذه الأصول على ما رآه عنده هو صحيحاً من حكم عقله الخاص المبني على نظره القاصر، فيبطل عنده ما صح عند غيره، وقاسوا بهذه الأصول المتعارضة كلام الله ورسوله في الإلهيات وما يتصل بها من العقائد، فأصبح كل منهم يعتقد نقيض ما يعتقد الآخر، وكل منهم يزعم أن العقل يقتضي ما يعتقد، وحاشا العقل الصحيح السالم عن تغير ما فطره الله عليه، أن يتعقل الشيء ونقيضه، فإن اجتماع النقيضين محال عند جميع العقلاء»^(١).

والإمام الشوكاني يدافع عن عقيدة السلف ويفرد لها بعض الرسائل مثل رسالة «التحفة في مذهب السلف»، و«كشف الشبهات عن المشتبهات»، وهو يقول هذا بعد أن سبر علم الكلام، وأكبّ على مؤلفات طوائفه المختلفة، وشغل بها زمناً، فلم يظفر بشيء ولم يستفد غير الحيرة.

(١) «كشف الشبهات عن المشتبهات» للشوكاني (ص ٢٢، ٢٣).

وغاية ما حصلته من مباحثي
هو الوقوف ما بين الطريقتين حيرة
على أنني قد خضتُ منه غمارة
ومن نظري من بعد طول التدبير
فما علم من لم يلق غير التحير؟
ولم أرتض فيه بدون التبحر^(١)

* دعوته إلى تطهير الاعتقاد :

رأى الإمام الشوكاني ما أدخله غلاة الشيعة والصوفية على العقيدة الإسلامية من جرأ رفعهم القبور، وبناء القباب، ودعوة الأموات والعكوف على قبورهم، وطوافهم بها وتعظيمها، والذبح لهم والنذر لهم، وهذا كفر بواح يناقض شهادة «أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله».

وهو يجهر بهذه الدعوة للعوام والخواص، وما كتبه يشفع فيه على بعض الخواص، ممن نسوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وانساقوا وراء التعصب أو التقليد رسالة بعنوان «شرح الصدور بتحريم رفع القبور»، وهو في هذه الرسالة يرد على الإمام يحيى بن حمزة وهو من كبار أئمة الزيدية في القرن الثامن الهجري في قوله: «لا بأس بالقباب والمشاهد على قبور الفضلاء والملوك لاستعمال المسلمين، ولم ينكر». فيثبت أن هذا أول نداء بهذه البدعة صدر في الديار اليمنية، ثم تتابع المؤلفون في الفقه بهذا التصريح والجواز وراءه، تقليداً له واقتداء به. وهو يبطل هذه الفتوى بإبطال أدلتها التي أسندها بها صاحبها، وهي «استعمال المسلمين ولم ينكر» فإن استعمال المسلمين أو عدم انكارهم، إذا تعارض مع الكتاب أو مع السنة، كان ذلك الاستعمال باطلاً، فإن المرجع في الجواز وعدمه هو كتاب الله وسنة الرسول؛ ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، وقد ظهر في الكتاب

(١) «التحفة في مذهب السلف» للشوكاني (ص ٥٤)، و«كشف الشبهات» للشوكاني (ص ٢٣)،

والسنة أن هذه أعمال تتساوى مع الكفر وعبادة الأصنام، وقد قال الرسول ﷺ: «كل أمر ليس عليه أمرنا فهو رد»، ثم إن علماء المسلمين في كل عصر، ما زالوا يروون أحاديث رسول الله ﷺ في لعن من فعل ذلك ويقررون شريعة الإسلام في تحريم ذلك في مدارسهم ومجالس حفاظهم، يروونها الآخر عن الأول والصغير عن الكبير»^(١).

□ ويدعو الشوكاني - رحمه الله - إلي إخلاص التوحيد، أو النطق بشهادة «أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» على وجهها، وأن المجتمع لا يمكن أن يستفيد من إيمانه في حياته الاجتماعية أو الاقتصادية والسياسية، إلا إذا كانت هذه الشهادة خالصة من مظاهر الشرك، فهنا يمكن أن ينتفع الإنسان من هذه الشهادة ديناً ودنياً، وأنه ما أضر المسلمين، وقعد بهم عن الاستمرار في نهضتهم وعزتهم، إلا تحريف هذه الشهادة، وحيلولة مظاهر الشرك بينها وبين حلولها في القلب، أو حلولها ولكن بزيغ وتشويه، وأن هذه هي علة المسلمين اليوم، والتي وراء كل جمود وتأخر وذلة»^(٢).

«وقد أخذت هذه الدعوة منه حيزاً كبيراً بحيث صار فيها في اليمن إماماً كابن عبد الوهاب في الحجاز من قبل، وابن تيمية في مصر والشام، ولاقى من جرأتها الكثير من المتعصبين ومن المقلدين، ورُمي بالنصب من أجلها، ومن أجل دعوته إلى الاجتهاد والرجوع بالتشريع إلى طريقة السلف الصالح من الصحابة والتابعين»^(٣).

ورد على ادعاؤهم بأنه ناصبي بكتابه «رد السحاب في مناقب القرابة

(١) «شرح الصدور بتحريم رفع القبور» للشوكاني (ص ٩) وما بعدها.

(٢) رسالة «الدواء العاجل في دفع العدو الصائل» للشوكاني (ص ٦٢، ٦٣، ٦٨).

(٣) مقدمة «قطر الولي على حديث الولي» أو «ولاية الله والطريق إليها» للشوكاني (ص ٣٧ -

تحقيق الدكتور إبراهيم إبراهيم هلال - دار الكتب الحديث.

والأصحاب في فضائل علي رضي الله عنه، وزوجة فاطمة وأولادها رضي الله عنهم .

* دعوته إلى الاجتهاد، ومحاربه العنيفة للتقليد :

ورأيه في الاجتهاد والتقليد عنوان لروح مذهبه، وهو عالم أصيل متمكن، متحمس له من باب التدين والمحافظة على الكتاب والسنة، وهو يقول في ذلك: «والذي أدين الله به أنه لا رخصة لتعلم من لغة العرب ما يفهم به كتاب الله بعد أن يقيم لسانه بشيء من علم النحو والصرف، وشطر من مهمات كليات أصول الفقه في ترك العمل بما يفهمه من آيات الكتاب العزيز، أو السنة المطهرة، ولا يحل التمسك بما يخالفه من الرأي سواء كان قائلاً واحداً، أو جماعة، أو الجمهور»^(١) .

ولقد ألف الشوكاني كتاباً للتراجم كدليل عملي وواقعي على أن باب الاجتهاد لم ينسد، وأنه مفتوح إلى يوم الدين، ذلك هو كتابه المشهور «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» ذكر فيه أصنافاً من المجتهدين، أو ممن فاقوا رتبة الاجتهاد، كإبطال لفكرة انتهاء الاجتهاد بانتهاء القرن السادس الهجري، وفي ذلك يقول: «فإنه لما شاع على ألسن جماعة من الرعاع اختصاص سلف هذه الأمة بإحراز فضيلة السبق في العلوم دون خلفها، حتى اشتهر عن جماعة من أهل هذه المذاهب الأربعة تعذر وجود مجتهد بعد المائة السادسة كما نقل عن البعض، أو بعد المائة السابعة كما زعمه آخرون . . . حداني ذلك إلى وضع كتاب يشتمل على تراجم أكابر العلماء من أهل القرن الثامن ومن بعدهم مما بلغني خبره إلى عصرنا هذا، ليعلم صاحب تلك المقالة، أن الله - وله المنة - قد تفضل على الخلف، كما تفضل على السلف»^(٢) .

(١) «البدر الطالع» (٢/٨٤).

(٢) «البدر الطالع» (١/٢، ٣).

□ قال - رحمه الله - :

يا غارقين بشؤم الجهل في بدع
ما باجتهاد فتى في العلم منقصة
لا تنكروا مورداً عذباً لشاربه
ونافرين عن الهدى القديم، عدواً
النقص في الجهل لا حياكم الصمد
إن كان لا بد من إنكاره فردوا

□ تجد هذه الروح القوية في جميع كتبه التي وصلتنا والتي ألفت في علوم الكتاب والسنة جميعها، مما يجعل منه مجاهداً كبيراً في هذا الميدان لا مجرد صاحب دعوة وكفى، وقد وقف بعض كتبه على بيان وجوب الاجتهاد، وعدم جواز التقليد مثل: كتاب «السييل الجرار»، وكتاب «أدب الطلب، ومنتهى الأرب»، وكتاب «القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد»، وكتاب «بغية المستفيد في الرد على من أنكر الاجتهاد من أهل التقليد».

* كتاب «السييل الجرار» وردده على فقه «الزيدية» :

وكتاب «السييل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار» في الفقه، يُعتبر تطبيقاً عملياً من الإمام الشوكاني لمبدأ الاجتهاد في مسائل الفقه ومناهضا للفقه الهدوي في الزيدية، إذ أنه يأتي بالمسألة التي تكلم عنها الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى في الأزهار، أو علق عليها في شروحه هو أو غيره، فيسطها، ويبين وجه التقليد فيها للإمام الهادي يحيى بن الحسين، أو الإمام يحيى بن حمزة، أو غيرهما، ويقيم الأدلة من القرآن والسنة على بطلان ذلك وابتداعه.

* جهاد الشوكاني للمقلدين وذمه لهم :

□ يقول - رحمه الله - : «ولقد كان لي مع هؤلاء في أيام الاشتغال بالدرس والتدريس وعنفوان الشباب، وحدة الحداثة قلائل وزلازل جمعت فيها رسائل، وقلت فيها قصائد فمن جملة ما خاطبتهم به ما قلته في

قصيدة:

من ليس يفهم قل لي كيف تنتقد؟
أيصعد الوعر من بالسهل يرتعد؟
كيف السبيل إذا ما اغتالك الأسد؟
ويُلي عليك أتنجو إن علا الربد؟

يا ناقداً لمقال ليس يفهمه
يا صاعداً في عور ضاق مسلكها
يا ماشياً في فلاة لا أنيس بها
يا خائض البحر لا يدري سباحته
□ ومما قلته في ذلك:

يرون الحق ما قال الجدودُ
وكلُّ منهمُ عنه شرودُ
بمعضلة وفاقرة تؤود
لخير الرسل لا قول ولود
عدا هذين تطرقه الردود
وكلهم لمورده ورود

رأوني لا أدين بدين قوم
ويطرحون قول الطهر «طه»
فقالوا قد أتى فينا فلان
يقول الحق قرآن وقول
فقلت كذا أقول وكل قول
وهذا مهيع^(١) لأعلام قبلي
□ ومما قلته:

في نصره الحق ما حررتُ في الكتب
يسعون للدين لا يسعون للنشب
ولا بسنة خير الرسل رأى عني
حجبتها عن ذوي التقليد والريب
وصيرت رأس أهل العلم كالذئب
غداً ابداً عندكم من جملة النصب^(٢)

موتوا إذا شئتم قد طار من كلمي
وأرتجى أن يلي دعوتي نفرٌ
لا يعدلون بقول الله قول فتى
أبث ما بينهم من مذهبي درراً
يا فرقة ضيعتُ أعلامها سفهاً
من قال: قال رسول الله بينكمُ

(١) المهيع: الطريق الواضح.

(٢) «قطر الولي على حديث الولي» للشوكاني (ص ٣٤٧ - ٣٥١).

❑ وَيُرْجَعُ تَعْصِبُ الْمُتَقَلِّدِينَ إِلَى الْجَهْلِ:

أَتَانَا أَنْ سَهْلًا ذَمَّ جَهْلًا علوماً ليس يعرفهنَّ سهلُ
علوماً لو دراهما ما قلاها ولكن الرضى بالجهل سهلُ

❑ يَقُولُ الشُّوْكَانِيُّ فِي وَاجِبِ الْعُلَمَاءِ وَأَوْلَى الْأَمْرِ نَحْوَ الْمُتَقَلِّدِينَ:

«وواجب على كل من له ولاية يأمر فيها بمعروف أو ينهى عن منكر أن يجعل نهى المنكر الذي عليه هؤلاء عنوان كل نهى ينهى به عن منكر، فإنهم في الحقيقة إنما يطعنون على علماء الدين من السلف الصالح، ومن مشى على هديهم القويم، ويدفعون بالرأي الذي هو ضد الشريعة، ما شرعه الله لعباده، وهم بهذه المنزلة من الجهل البسيط أو المركب.

فهل سمعت أذنك بمنكر مثل هذا المنكر، وبلية في الدين مثل هذه البلية، ورزية في الملة الإسلامية مثل هذه الرزية؟؟ فإن النيل من عرض فرد من أفراد المسلمين منكر لا يخالف فيه مسلم إذا كان عن طريق الغيبة، أو البهتان، أو على طريق الشتم مواجهة ومكافحة.

فكيف بمن جاء بما هو من أعظم البهتان، وأقبح الشتم للشريعة المحمدية، والدين الإسلامي، ولعلماء المسلمين سابقهم ولاحقهم؟؟ فيالله وللمسلمين، يالله وللمسلمين، يالله وللمسلمين!!!

فإن هؤلاء لما رأوا كثيراً من العلماء يداهنونهم ويدارونهم اتقاء لشهرهم ما زادهم ذلك إلا شراً، ولا أثر فيهم إلا تجرأ على ما هم فيه.

ولو تكلم أهل العلم بما يجب عليهم من نصر الشريعة والذب عن أهلها بما يجب عليهم لكانوا أقل شراً وأحقر ضرراً^(١).

(١) المصدر السابق (ص ٣٥٧ - ٣٥٩).

* الشوكاني يداوي قومه وأمته:

ولم يكن دواء الشوكاني منحصرًا في التأليف فقط، وإنما كان موزعًا على ثلاث شعب:

١- الجانب العلمي: وتبلغ مؤلفاته وأبحاثه ورسائله المئتين أو تزيد تناول فيها كل ما يهم الإنسان من تبصرة بأمور دينه ودنياه وأهمها في مواجهة الأمراض والمظالم السالفة عشرة كتب هي: «فتح القدير في التفسير» و«نيل الأوطار» و«الفوائد المجموعة في الحديث»، و«السيل الجرار على متن الأزهار» في تحقيق القول في المذهب والنص على صحيحه وسقيمه. . . وكان هذا الكتاب الذي أمضى فيه اثني عشر عامًا من أسباب مضاعفة النعمة عليه و«إرشاد الغبي في مذهب أهل البيت في أصحاب النبي»، و«در السحابة في الذب عن الصحابة»، و«القول المفيد بين الاجتهاد والتقليد»، و«الفتح الرباني الجامع لفتاوى الشوكاني».

٢- الجانب العملي: وحياته كلها جهاد متواصل لتمكين الشريعة ونشر السنة. ويمكن إجمالها في تدريسه لكتب الحديث وتطهيره لجهاز القضاء من الجهلة والظلمة وحثه للإمام المنصور على أخذ الزكاة عينًا بحسب مقاديرها في الشريعة وإلغاء المكوس ومحو الأمية الدينية بنشر المعلمين في الأرياف والقرى على حساب الدولة. وقد أفلح في كل ذلك ولو إلى حين وتمكن من إنصاف المرأة من حقه في الإرث وتنظيم الطلاق.

٣- الجانب التوجيهي: ويعتبر الشوكاني في هذا الجانب مؤسس مدرسة تربوية رائدة وكتبه في هذا المضمار عديدة. منها «أدب الطلب» و«الدواء العاجل» و«البدر الطالع» وديوان شعره.

هذه باختصار بالغ مجمل إنجازات الإمام الشوكاني الذي كان في عصره شيخ شيوخ السنة في عالم الإسلام على الإطلاق.

* ومن الهند ربّانيون آمرون بالمعروف ناهون عن المنكر :

«تشرّفت الهند بالإسلام في عهد الخلافة الراشدة، وفتحت بلاد السند في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك سنة ٩٣هـ على يد المجاهد الباسل محمد بن القاسم الثقفي.

وكان أهلها منذ الفتح الإسلامي إلى أواخر القرن الرابع عاملين بالكتاب والسنة على مذهب أهل الحديث، بعيدين عن الجمود الفقهي الذي فرق جمع الأمة الإسلامية، وشئت شملها فيما بعد.

وشهد على ذلك أبو القاسم المقدسي الرّحالة المعروف في كتابه «أحسن التقاسيم» حين زار بلاد السند سنة ٣٧٥هـ قائلاً:

«أكثرهم أصحاب الحديث، ولا تخلو القصبات من فقهاء على مذهب أبي حنيفة - رحمه الله، وليس به مالكية ولا معتزلة، ولا عمل للحنابلة. إنهم على طريقة مستقيمة ومذاهب محمودة، وصلاح وعفة. قد أراحهم الله من الغلوّ والعصية والفتنة»^(١) «^(٢).

□ وأرض الهند رويت أرضها وازدهرت بدماء الغزاة والفاطمين المسلمين، وعرق الدعاة والمصلحين، ودموع الأولياء والصالحين، ودعوات الضارعين المبتهلين.

* ملوك آل تغلق وجهادهم للبدع والمنكرات :

ورد عديد من تلامذة شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - من الشام ومصر إلى الهند وكان لهم أثر في دعوة الملك محمد تغلق إلى القضاء على

(١) «جهود مخلص في خدمة السنة المطهرة» للفريرائي (ص٦) - طبعة السلفية بالهند.

(٢) «دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية ولصلاح الدين مقبول» (ص١٦٣) - دار ابن الأثير -

العادات والتقاليد والبدع والخرافات. وعلى رأس هؤلاء التلامذة:

□ [«العلامة عبدالعزيز الأردبيلي: قد صرّح بوروده إلى الهند وتأثيره في الملك محمد تغلق المذكور عدد من المؤرخين منهم: أكبر شاه النجيب آبادي في «مرآة الحقائق»، والشيخ محمد إكرام في «ماء الكوثر»، والأستاذ محمد إسماعيل الندوي في «تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية».

□ والشيخ عليم الدين (حفيد الشيخ بهاء الدين زكريا المتلاني): ذكره الشيخ محمد إكرام والنجيب آبادي وصرّح بأنه من «تلامذة ابن تيمية، وكان من أبرز من دعا محمد تغلق إلى إزالة البدع والمنكرات، وشجّعه على استئصال الأوهام والخرافات»^(١).

* والعلامة شمس الدين ابن الحريري:

□ قال النجيب آبادي: كان حنفي المذهب، وكان قاضياً في مصر إلا أنه قد عزّل عن القضاء لأجل تأييده الإمام ابن تيمية، وجاء إلى الهند سنة ٧٠٨هـ في عهد السلطان علاء الدين الخلجي، وجاء معه بأربعمئة كتاب في الحديث، ولعلّ هذه الخزانة الحديثية التي وصلت إلى الهند أجدز بالذكر والتنويه من غيرها»^(٢).

وكان الشيخ شمس الدين يقول: «إن لم يكن ابن تيمية شيخ الإسلام فمن؟ وقال بعض أصحابه: أتمحبّ الشيخ تقي الدين؟ قال: نعم! والله لقد أحببت شيئاً مليحاً».

□ «لقد أشاد هؤلاء المؤرخون وغيرهم من كبار العلماء مع بعض تعصباتهم وتصوفهم أمثال السيد سليمان الندوي، والأستاذ خليق أحمد

(١) «مرآة الحقائق» (ص ٤٣٣).

(٢) المصدر السابق (ص ٤٣٣).

النظامي بجهود تلامذة شيخ الإسلام ابن تيمية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عصر الملك محمد تغلق وتأثر الملك بهم في حكم العباد وسياسة البلاد»^(١).

* ملك الهند الشجاع محمد تغلق :

حُثَّ تلامذة ابن تيمية على إحياء ما اندرس من معالم الإسلام، والاهتمام بإقامة الصلوات الخمس، ورغبوه في اختيار منهج شيخ الإسلام في العقائد والعبادات والآداب والمعاملات وأثمرت دعوتهم ولاقت عنده قبولا^(٢).

«ومما يُحكى في اشتداده في إقامة الشرع ورفع المغارم والمظالم أنه كان شديداً في إقامة الصلاة أمراً بملازمتها بالجماعات، يُعاقب على تركها أشد العقاب. ولقد قتل في يوم واحد تسعة نفر على تركها كان أحدهم مغنياً، وكان يبعث الرجال الموكلين بذلك إلى الأسواق، فمن وجد بها عند إقامة الصلاة عوقب، حتى انتهى إلى عقاب مربي الخيل إذا ضيَعوا الصلاة، وأمر أن يُطالب الناس بتعليم فرائض الوضوء والصلاة والإسلام، فكانوا يُسألون عن ذلك، فمن لم يُحسنه عوقب، وصار الناس يتدارسون ذلك ويكتبونه.

ومما قيل في ذلك أنه أمر أخاه أن يكون قعوده مع قاضي القضاة في قبة مرتفعة مفروشة بالبسط، فمن كان له حق مع أحد من كبار الأمراء وامتنع عن أدائه لصاحبه يُحضره رجال أخيه عند القاضي لِيُنصفه.

ومما فعل من ذلك أنه أمر برفع المكوس عن بلاده، وأن لا يُؤخذ من الناس إلا الزكاة والعشر خاصة. وصار يجلس بنفسه للنظر في المظالم في كل

(١) «البداية والنهاية» (١٤٢/١٤)، و«الدرر الكامنة» (٣٢٠/٥).

(٢) «دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها على الحركات الإسلامية المعاصرة» (ص ٢٤، ٢٥).

يوم اثنين وخميس.. ولا يمنع أحد ممن أراد الشكوى من المثول بين يديه.. وعين أربعة من الأمراء الكبار يجلسون على أبواب أربعة لأخذ القصص من المشتكين.. وإن لم يأخذه مضي إلى قاضي الماليك، فإن أخذ منه وإلا شكا إلى السلطان، فإن صحّ عنده أنه مضي إلى أحد منهم فلم يأخذه أدبه. وكل ما كان يجتمع من القصص في سائر الأيام يطالعه بعد العشاء الآخرة»^(١).

□ وقال الشيخ محمد إكرام: «إن المتصوفة الكبار وأصحاب التراجم ألصقوا بالملك محمد تغلق تهماً كثيرة، وذكروا عنه قصصاً تشكك في عقائده، ولكن الأمر الذي يدعو إلى التفكير فيه هو أن محمد تغلق أدى المتصوفة فقط. وأما العلماء فلم يلاقوا منه إلا احتراماً وتبجيلاً. وكان يؤكد على إقامة الصلوات الخمس بكل قوة وشدة، وكان يحافظ على الصلوات الخمس بالجماعة.

وكان محمد تغلق - رحمه الله - حافظاً للقرآن كله، محافظاً على الصلوات الخمس في أوقاتها بكل عناية»^(٢).

□ قال الأستاذ مسعود الندوي بعد ما ذكر محمد تغلق وماله وما عليه: «ومهما يكن من حقيقة الأمر فإنه أحب لدينا ممن تقدمه من ملوك الهند الجبابرة؛ لأنه قام بشيء من واجبه في سبيل إحياء مآثر الإسلام وتجديد ما اندرس من آثاره ومعاله في هذه البلاد. والناس فيما يعشقون مذاهب»^(٣).

□ قال مؤرخ الهند الهندوكي الوثني تاراشند: «كان محمد تغلق ملتزماً التزاماً كاملاً بمقتضيات دينه، وكانت حياته العائلية نزيهة ولم يكن عصبياً.

(١) «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» للسيد عبدالحى الحسني (١٢٩/٢).

(٢) «ماء الكوثر» (ص ١٠٤).

(٣) «تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند» لمسعود الندوي (٢٤ - ٢٥).

وحاول إصلاح حياة الهنادك، والقضاء على تقاليد الديانة الهندوكية في شأن النساء المتوفى عنهن أزواجهن فقد كُنَّ يحرقن أنفسهن مع أزواجهن، وكان يسمى هذا العمل «ستي»^(١).

ولم ينصفه ابن بطوطة وادعى عليه ما ليس فيه من أنه تجاسر على إراقة الدماء وزدّ عليه الدكتور مهدي حسن في كتابه عن حياة محمد تغلق.

* الملك فيروز شاه تغلق وعطفه على الرعية وإعلاؤه لكلمة الله:

تولى فيروز شاه تغلق (٧٥٣ - ٧٩٠هـ) الأمر بعد وفاة ابن عمه محمد تغلق فرأت البلاد منه ملكاً صالحاً يعطف على الرعية ويعني بأمور صلاحهم. لم تظهر منه بادرة تزري بسيرته في رعيته وسياسته في ملكه، وأنه قد أتى في سبيل إعلاء كلمة الله ورفع لوائها من الأعمال الجليلة بما لم يأت به، بل وبما يضاهيه أحد ممن تقدّمه من ملوك المسلمين. وذكر بنفسه كل الإصلاحات التي قام بها في تاريخه «فتوحات فيروز شاهي». ولخصه الأستاذ مسعود الندوي في كتابه «تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند»، وفيه كل ما يحتاج إليه العباد والبلاد من الإصلاحات في العقيدة والدين، والمعيشة، والاقتصاد، والسياسة والحكم، اللهم بعض التصرفات والنقائص وسبحان من تنزّه عنها وله الكمال المطلق^(٢). اهـ.

* الإمام أحمد بن عبدالأحد السرهندي المعروف بمجدد الألف الثاني (٩٧١هـ - ١٠٣٤هـ):

لن نستطيع أن نعرف قدر هذا الإمام حتى نقف أولاً على زندقة الملك أكبر وما فعله بالإسلام:

(١) «مختصر تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند» (ص ١٧٢ - ١٧٣).

(٢) «دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية» (ص ٢٤ - ٣٠).

الملك أكبر وفتنة القرن العاشر الكبرى «الاعتقاد بداية نظام جديد للعالم على بداية الألف الثاني من الهجرة»:

نادى الزنديق محمود بسيخواني في أواخر القرن التاسع الهجري إلى الديانة التقطوية^(١) وبلغ أتباع هذه الفرقة الضالة الألوف المؤلفة في إيران والهند، ويعتقد هذا الزنديق بقدم العالم، ولا يؤمن ببعث الأجسام، وبالخشع إطلاقاً، ويعتبر الراحة واللذة في الدنيا مكان الجنة والنار، ويقول بنظرية النشوء والارتقاء ويعتقد أن القرآن الحكيم من تأليف محمد بن عبدالله عليه السلام، ويستهزئ بالصلاة والحج والأضحية، ويسمي شهر رمضان «شهر الجوع والظما» ويسخرون من أحكام الطهارة والغسل، ولا يؤمن بحرمه النساء المحرمات، وقال بأن الدين الإسلامي أصبح منسوخاً، فلا مناص من قبول الدين الجديد الذي جاء به محمود، وأن الإسلام قد استنفد دوره، وقضى عمره، فمست الحاجة إلى دين جديد وأنه مع بداية الألف الثاني الهجري سيظهر الدين الجديد نبوءة محمود أنه سوف يظهر في عام ٩٩٠هـ. رجل يحو الباطل ويقيم الدين الحق، وهو ما يسمى عندها لعقيدة الألفية آلاف أخرى إلا في الشعوب العجمية^(٢).

وكان شريف الأملي وهو من المقربين إلى الملك أكبر ملك الهند ذا صلة وثيقة بكبار هذه الفرقة، وكان الملك أكبر يعامله معاملة المرید لشيخه، فرغب أكبر في الدين الجديد وظل يستميله إليه، وأسند إليه الملك أكبر قيادة الجيش المكون من ألف جندي، ونصبه داعياً في بنكاله إلى «الدين الإلهي» وكان من

(١) سميت بذلك لادعاء ذلك الزنديق أنه يتعين في بيان مفاهيم القرآن بعدد الحروف والنقط.

(٢) انظر «الإمام السرهندي حياته وأعماله» لأبي الحسن الندوي (ص ٥٣ - ٥٩) - دار القلم بالكويت.

أخص أصحاب الملك أكبر وأصدقائه الأربعة وكان ينوب عن الملك في مخاطبة أتباع الدين الإلهي ومريديه، والمعتقدين فيه.

□ ومن دعا الملك أكبر إلى اعتناق هذه الديانة ودعاه إلى التحرر من الشريعة، وانحرف به عن الجادة أبو الفضل بن الشيخ مبارك. ولقد نشر أبو الفضل الناكوري بساط ذلك القانون الخاسر الكاسد في بلاد الهند ولم يجدوا شخصاً أجدر وأحق في الدعوة إلى الدين الجديد من الملك أكبر.

□ دعا أكبر إلى عبادة النار والشمس والكواكب بدل التوحيد، وإلى عقيدة التناسخ مكان البعث والنشور، وأخذ البيعة على هذا الدين الجديد، وكانت الكلمة التي يدخل بها الإنسان في هذا الدين: «لا إله إلا الله، أكبر خليفة الله»، وكان مع هذه الكلمة عهد وميثاق يقول فيه معتق هذا الدين: «إنني عن رغبة ورضا مني وحب من قلبي، أفارق دين الإسلام المجازي التقليدي الذي سمعت عنه من آبائي، وشهدتهم عليه، وأرفضه، وأدخل في الدين الإلهي الأكبري، وأقبل مراتب الإخلاص الأربعة في الدين، من ترك المال والنفس، وترك العرض والدين».

وكان الربا والقمار، والخمر والخنزير حلالاً طيباً في هذا الدين، وأجريت تعديلات في أحكام النكاح، وكان النهي البات عن الحجاب والختان، وقد نظم فيه الزنا تنظيمًا خاصًا، وعُين للمومسات مكان خاص، وأصدر بصدده قانون، فكان بغاءً رسمياً، وعدّلت طريقة الدفن للموتى.

□ ومواقيت العبادة عنده عند الفجر والظهر وعند العشي فقط، ويسجد له الأتباع سجدة التحية والتعظيم، وأحيا أعياد ومهرجانات المجوس، وحبّد ودعا إلى الشرب من ماء نهر كنكا «الكنج» وهو النهر المقدس عند الهنادك، وأصدر فرماً بمنع الزكاة، وأنكر المعجزات، ومنع من الصلاة، فلم يكن يستطيع أي واحد من الناس أن يؤدي الصلاة جهاراً في القصر، وأسقط

الصلاة والصوم والحج، وازدري الإسلام وأهانه ولقد وصم تراث الملة الإسلامية كله بالحدوث، واعتبره مجموعة من السفاهات، وأن واضعيه ومؤسسيه أعراب فقراء من جزيرة العرب كانوا مفسدين في الأرض، وقطاع طرق، واستدل على ذلك بيئتين من «شاهنامه فردوسي» الذي قالهما على طريق النقل والرواية:

«من شرب ألبان الإبل، وأكل الضباب، بلغ العرب إلى أن بدأوا يحملون ببلاد العجم، سحقا لدوائر الزمان سحقا»، وسخر من الإسراء والمعراج وأنكرهما، وأهان مكان النبوة، ونفر من أسماء النبي وكرهها مرضاة لزوجاته الهندوكيات، واستهزأ بأركان الإسلام. يقول السيد سليمان الندوي: «أوقد المجوس النيران في معابدهم، ودقت النصارى نواقيسهم في كنائسهم، وزينت البراهمة أصنامهم، تمالأ التصوف واليوك وألحا على أن يشعلا شمعة واحدة في المعبد الهندوكي والكعبة، وإذا أراد إنسان أن يتصور مدى ما تركت هذه الحركة الحماسية من آثار فليراجع «ديستان مذاهب»^(١) ليرى كم من أصحاب الزنار يحركون المسابح، وكم من أصحاب السبح يعلقون في أعناقهم «الزنانير» كم من الأمراء يمرغون وجوههم على عتبة السلطان، وكم من أصحاب العمائم يقفون في البلاط، ويسمع من منابر المساجد نداء «تعالى شأنه - الله أكبر» كانوا في كل هذا، وإذا بصوت يعلو من جهة سر هند: «أن خلوا الطريق، فقد جاء صاحب الطريق، ظهر مجدد فاروقي»^(٢)، في الأبهة الفاروقية، كان ذلك أحمد السرهندي^(٣) قال عنه شيخه عبد الباقي الدهلوي

(١) كتاب في وصف الديانات المختلفة والفرق الإسلامية في الهند، في الفارسية.

(٢) نسبة إلى عمر الفاروق رضي الله عنه.

(٣) تقدم كتاب «سيرة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد» لأبي الحسن الندوي بقلم السيد سليمان الندوي (ص ٣٠، ٣١)، و«الإمام السرهندي» لأبي الحسن الندوي (ص ١١١).

«إن أحمد شمس، تأفل في ضوئها آلاف النجوم أمثالي»^(١).

✽ العلماء والمشايع الشجعان الصرحاء في عهد «أكبر» و«جهانكير»:

مخطئ من ظن الصمت لف ربوع الهند استكانة لأمر هذا الزنديق «أكبر» بل تشهد كتب التاريخ والتراجم أن رجالاً ربانيين بذلوا جهودهم، وأبدوا استنكارهم لهذه الأوضاع قدر استطاعتهم، وجاهروا بعواطفهم الدينية وحميتهم الإسلامية، نذكر منهم:

الشيخ إبراهيم المحدث الأكبر آبادي:

ذهب الشيخ إبراهيم المحدث الأكبر آبادي (م ١٠٠١هـ) ذات مرة إلى معبد الملك «أكبر» بناء على دعوته، فلم يسجد له، ولم يأت بالتحيات التقليدية للملك، التي كانت مخالفة للشريعة، ثم خطب عنده، فرغبه ورهبه، وذكره بالله، ولم يتهبب الشوكة والحشمة الملوكية^(٢).

الشيخ شهباز كنبوه (م ١٠٠٨هـ):

كان من كبار الأمراء في بلاط السلطان أكبر، تولى منصب «ميربخشي»^(٣)، وكان ذا جرأة ونجدة لا يقصر عن قول الحق عند السلطان ولا يخافه، ولا يبالي برضاه أو سخطه في الأمور الشرعية، فلم يقصر للحية، ولم يشرب الخمر، ولم يرغب في الدين الإلهي المخترع قط.

قال شاه نوازخان في «مآثر الأمراء»: «إن أكبر شاه السلطان كان يتفرج يوماً بين العصر والمغرب، على بركة ماء بفتحبور، وكان شهبازخان بين يديه، فأخذ بيده والتفت إليه، وكان يمشي ويتكلم معه، والناس كانوا يزعمون أن

(١) «الإمام السرهندي» (ص ١٣٣).

(٢) «نزهة الخواطر» (ج ٥)، و«الإمام السرهندي» (ص ٢٦٥ - ٢٦٦).

(٣) «الأمير الكبير الذي يرجع إليه أمر العساكر السلطانية المعينة في تلك الولاية»، وهو من

شهباز لا يستطيع أن ينزع يده عن يد السلطان، فتفوته الصلاة، وكان من عادته أن لا يتكلم بعد العصر إلى المغرب، فلما رأى شهباز أن الشمس قد مالت إلى الغروب استأذن السلطان للصلاة، فقال السلطان: تداركها بالقضاء، ولا تتركني خلياً، فنزع شهباز يده، وبسط مئزره على الأرض واشتغل بالصلاة، ثم بالأوراد الراتبة والسلطان واقف على رأسه يشدد عليه، وتواجد مير أبو الفتح، والحكيم على الكيلاني أيضاً في تلك الساعة فشعرا بدقة الموقف فتقدما وقالوا - لصرف نظر السلطان وغضبه عنه - نحن نستحق أيضاً أن يلتفت إلينا السلطان، فسكن غضبه، وانصرف عن شهبازخان، والتفت إليهما^(١).

الشيخ عبدالقادر الأجي:

كان الشيخ عبدالقادر الأجي من أصحاب النجدة والجراءة، لم يوافق السلطان في مخالفة الشريعة، قدم إليه أكبر ذات يوم الأفيون، على جري عادته، فامتنع عن بلعه، فأنكر عليه السلطان، فينما هو قد فرغ من الصلاة المكتوبة يوماً في «عبادات خاتمه» - القصر الذي بناه أكبر للعبادة - واشتغل بالنوافل، إذ خرج عليه أكبر، وقال: ينبغي لك أن تنتقل في بيتك، فقال عبدالقادر: يا مولانا، هذا ليس بملك فيكون تحت سلطانك، فغضب عليه السلطان وقال: إذا لم تكن ترضى عن ملكي، فأخرج عنه، فخرج الشيخ من ساعته، ورحل إلى مدينة «أج»، وعكف على الإفادة والعبادة، وكذلك سميته عبدالقادر اللاهوري (م ١٠٢٢هـ) الذي كان السلطان ساخطاً عليه لتصلبه في الدين وشدة تمسكه بالشريعة، فأمره أن يسافر إلى مكة المكرمة.

مرزا عزيز الدين الدهلوي كوكه (م ١٠٣٣هـ):

كان تربياً لأكبر وأخاه من الرضاعة، يحبه «أكبر» حباً مفرطاً، ويقدمه

(١) «نزهة الخواطر» (ج ٥)، و«الإمام السرهندي» (ص ٢٦٦ - ٢٦٧).

في كل باب، وكان عزيز - مع ذلك - يغلظ القول عليه فيما يأمره وينهاه، لا سيما فيما يخالف الشرع، فعزله عن ولاية كجرات، ثم ولّاه على بنكاله وبهار، ولقّب به بالخان الأعظم وكان رغم ذلك، لا يستحسن بعض ما اخترعه من السجدة بحضرتة، وحلق اللحية وغيرها.

الشيخ منور بن عبد الحميد اللاهوري (م ١٠١٥هـ):

ولّاه أكبر الصدارة عام ٩٨٥هـ بأرض مالوه، ولكن لم يدم له هذا الحال، لصلابته في الدين، واستقامته في السلوك، وضيق عليه في السجن حتى مات^(١).

ميزة الإمام السرهندي من بين هؤلاء:

لكن الفضل الأكبر في مقاومة انحراف الدولة وضلالها، ومعارضتها بقوة وتنظيم الجهود الموقفة الحكيمة في إصلاحها وتقويمها يرجع إلى الإمام السرهندي الذي قيّضه الله - عز وجل - لصيانة الدين، ونصر الإسلام والمسلمين، وقدّر أن يناط به هذا العمل التجديدي العظيم، الذي واصل ليله بنهاره في إكمال هذه الخطة التجديدية، وإحداث تلك الثورة الصامتة الهادئة التي لم تهرق فيها الدماء وغيّرت مجرى التاريخ، ولا يوجد لها نظير في تاريخ الدول والبلاد الإسلامية الأخرى، وكان نتيجة هذه الجهود أن تولى الدولة - بعد وفاة السلطان أكبر - من امتاز بحميته للإسلام، وتعظيمه لحرمات الدين، وسلامته من الجرائم المناوئة للإسلام، والكرهية له، وانتهت هذه السلسلة الذهبية، وبلغت الأوج والكمال على يد السلطان محيي الدين أورنگ زيب الذي كان مثله الأعلى حياة الخلفاء الراشدين، وخدمتهم للإسلام والمسلمين.

(١) «الإمام السرهندي» (ص ٢٦٧ - ٢٦٨).

□ لقد كانت الأيام الأخيرة من حياة السلطان أكبر التي أهدقت فيها الفتن والأخطار بالهند، وهُدِّد الإسلام بالزوال والانقراض - هي الفترة التي بلغ فيها الإمام السرهندي كماله الروحي، ونضجه الفكري^(١).

* السلطان جهانكير واستئناف الإمام السرهندي عمله التجديدي لإصلاح الدولة والسلطان:

بعد موت السلطان أكبر عام ١٠١٤هـ أخذ السلطان جهانكير زمام البلاد بيده، ولئن كان جهانكير لتربيته تحت إشراف والده أكبر لم يكن له نزعة دينية خاصة، وتقيد بالشريعة الإسلامية، والتزام للفرائض والواجبات الدينية، فإنه لم يكن كذلك يحمل في صدره بغضاً للإسلام، أو تأثيراً بحضارة قومية، أو فلسفة من الفلسفات الدينية، أو الرغبة في إعلان دين جديد، ولم يكن راغباً في محو آثار الإسلام وطمس معالمه.

* سجن السرهندي في قلعة كواليار، وإسلام الآلاف على يديه، وهداية آلاف آخرين من المسلمين:

طلب جهانكير الإمام السرهندي إلى مقره، وأكد على حاكم سرهندي أن يوجهه إليه كيفما استطاع، فتوجه إليه السرهندي، ولما دخل عليه لم يأت من الآداب والتقاليد التي كان يلتزم بها الوافدون على السلطان، فلقت بعض أبناء الدنيا ممن لا يخاف الله، نظر السلطان إلى أن الإمام لم يراع أدب الدخول عليه، ولم يأت بالتحية المعتادة للملوك^(٢)، فسأله السلطان عن

(١) كل يؤخذ من قوله ويرد، ويؤخذ على الإمام السرهندي صوفيته، والتلقين النقشبندي، والمكافات. والبيعة والتكميل الباطني النقشبندي، والخلوة وتلقين الذكر القلبي وغيرها من ترهات الصوفية. والخير كل الخير في هدي محمد ﷺ.

(٢) كانت تلك التحية تقليداً سائداً في البلاط منذ عهد السلطان أكبر، وكانت على ثلاثة

السبب، فقال: إنني لم أزل متقيداً بالآداب والأحكام التي دعا إليها الله ورسوله ﷺ، ولا أعرف غير هذه الآداب، فغضب السلطان، وقال: اسجد لي، فقال الإمام: ما سجدت لغير الله قط، ولن أسجد لغيره أبداً، فتعَيَّظ السلطان وزاد غضبه، وأمر بفرض الإقامة الجبرية عليه في قلعة كواليار.

وكان شاهجهان بعث قبل هذه الحادثة العلامة أفضل خان، والمفتي خواجة عبدالرحمن بالكتب الفقهية، وبهذه الرسالة إلى الإمام، أن الانحناء للسلاطين مرخص فيه في بعض الكتب الفقهية^(١)، فلو فعلت ذلك أضمن لك بأنه لا يصيبك أي ضرر، فقال الإمام: إنه محض رخصة، والعزيمة أن لا ينحني المسلم لغير الله، تعظيماً وتقديساً.

وقعت هذه الحادثة في شهر ربيع الأول عام ١٠٢٨ هـ، وصودرت كتب السرهندي ورسائله، وبستانه، وبثره، ورباطه، وبيته، ونُقل أهله إلى مكان آخر.

ونادى السرهندي وراء جدران السجن بأعلى صوته ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، ذكر بعض المؤرخين أن آفاقاً من السجناء من غير المسلمين اهتموا على يديه، ودخلوا في الإسلام، وأن مئات من السجناء المسلمين تابوا على يديه^(٢).

أصناف، أولها الكورنش، وهو أن يضع يمينه على جبينه ويطأ رأسه إلى الصدر، وثانيها: التسليم، وهو أن يضع ظاهر الكف من يمينه على الأرض ويقوم ويضع باطنه على الرأس، وثالثها السجدة كما يسجد في الصلاة «الهند في العهد الإسلامي» لعبدالحفي الحسني (ص ٣٧٢).

(١) عند الإكراه الفعلي خشية القتل والقلب مطمئن بالإيمان.

(٢) «الإمام السرهندي» (ص ١٤٥ - ١٤٦).

□ يقول الدكتور آرنلند في كتابه «الدعوة إلى الإسلام»:

«كان في عهد السلطان جهانكير عالم سني يدعي الشيخ أحمد المجدد، اشتهر في عصره بالرد على العقائد الشيعية، وكان الشيعة ذوى نفوذ في البلاط، فاحتالوا عليه حتى سبوا له الاعتقال فبقي في المعتقل عامين، واستمال في هذه المدة مئآت من رفقة السجناء من غير المسلمين إلى الإسلام فاعتنقوه»^(١).

وجاء في دائرة معارف الأخلاق والديانات:

«يُحكى عن عالم من علماء المسلمين يسمى الشيخ أحمد المجدد - كان في القرن السابع عشر الميلادي في الهند، واعتقل ظلماً - أنه أدخل مئآت من غير المسلمين السجناء الذين رافقوه في السجن، في دين الإسلام»^(٢).

وبقى السرهندي في قلعة كواليار عامًا كاملاً، ثم اختار السرهندي مرافقة السلطان فبقي في عسكره ثلاث سنين، وأثرت هذه المرافقة في السلطان وعسكره، ورأى السلطان عن قرب سلوك السرهندي وسيرته، وشاهد إخلاصه وربانيته، وأنه لا يقيم لزينة الدنيا وزهرتها وجاهها وسلطانها أي وزن، فأثر ذلك في السلطان جهانكير بالغ التأثير، فقد كان لمرافقته دخل كبير في نشأة النزعة الدينية الجديدة فيه، وعنايته بتعمير المساجد المنهدمة من جديد، وشغفه بإقامة المدارس الدينية في المناطق المفتوحة، وما ظهر منه عام ١٠٣١هـ بمناسبة فتح قلعة كانكره من عواطف إسلامية، وإظهار شعائر الإسلام فيها يدل على حدوث التحول، والتقدم في التدين الذي يمكن معه القول بأنه كان غيضاً من فيض مرافقة الإمام السرهندي وصحبته.

لقد اتصل السرهندي بأعضاء الدولة وأمرائها، وأثار فيهم الحمية

(١) «الدعوة إلى الإسلام» لآرنلند (ص ٤١٢) - الطبعة الثالثة.

(٢) «المجلد الثامن» (ص ٧٤٨).

الإسلامية، والعواطف الدينية، فيمن عرفهم واتصلوا به من قبل، واعتقد أخلاقهم، وسمو شخصيتهم، وتوجعهم للأوضاع، لينفضوا الرماد عن تلك الجمرات الكامنهم في قلوبهم، ويشعلوها وينفخوا فيها، وحرّضهم على النصيحة للسلطان، وأن يثوا فيه الحمية للإسلام، وحماية حوزته، وتضميد قلوب المسلمين الجريحة، ودعاهم إلى الزهد والتقشف، وسمو النفس وعلو الهمة.

□ لقد كانت لهذه السنين التي أقامها السرهندي في عسكر السلطان تأثير عجيب في الحاشية وأعيان الدولة، وتحوّل المعسكر إلى رباط، وكان السرهندي يرى أن الساعة الواحدة في المعسكر أفضل من كثير من الساعات في أماكن أخرى.

□ وجّه السرهندي خطابه إلى أركان الدولة وكبار الأمراء والوزراء واستأنف المراسلات التي بدأها قبل اعتقاله ونثر قطع قلبه، ومزّع نفسه على صفحات الرسائل التي تمتاز ببلاغتها، ونصاعة أسلوبها، وروعة تأثيرها، وكانت هذه الرسائل رسول السرهندي وسفيره في الدعوة، وترجمانه الصحيح لقلبه المكلم الجريح، وهي قطرات دموعه، وفلذات أكباده، وقد كانت لها مساهمة أساسية فعّالة في إحداث ذلك الانقلاب العظيم الذي ظهر في الدولة المغولية في القرن العاشر بالهند.

لقد راسل السرهندي عدداً كبيراً من أمراء الدولة وأركانها وأعيانها، راسل السيد مرتضى المعروف بالشيخ فريد وكان مستشاراً خاصاً للسلطان، فحرّضه على أداء مسؤوليته الدينية، وما يفرض عليه كونه من أهل بيت النبوة من واجب إسلامي في نصح السلطان.

وراسل خان أعظم مرزاكوكه، وخان دهان اللودهي، وصدر جهان البهانوي، وبيك جهانكير.

* الوعظ بالرسائل، وما صدر من القلب وصل إلى القلب وليست النائحة
الثلكى كالمستعارة:

يقول في رسالة: «وا ويلاه، وا مصيبتاه، واحزنه، وا حسرتاه! أتباع
محمد ﷺ - الذي هو حبيب رب العالمين - أذلة ضعفاء مهانون،
والجاحدون بنبوته، أعزة أقوياء مكرمون، كان المسلمون بقلوبهم الجريحة
المكلومة، يندبون الإسلام، ويرثونه وينوحون عليه، وكان المكابرون الجاحدون
يسخرون، ويستهزؤون وينكثون جروح المسلمين الدامية، غابت شمس الهداية
في ظلام الضلال، واختفى نور الحق في حجب الظلام وسحبه الداكنة.
واليوم بعد أن زال ما كان يحول بين الإسلام، وتقدمه وانتصاره،
وتشنت الأذان، يبشرى تمكن سلطان الإسلام من عرش الحكومة ورأى أهل
الإسلام من الواجب عليهم أن يساعدوا السلطان ويناصروه، ويبصروه بطريق
نشر الشريعة الإسلامية، وتأييد الملة الخنيفة، سواء كانت هذه المساعدة
والمناصرة باليد أو باللسان».

□ ويقول بعد بضعة سطور، وقد وضع الأصبع على الداء الذي أصيبت
به الدولة في عهد «أكبر» «كل رزية رزى بها الإسلام في القرن الماضي، كان
من شؤم علماء السوء، فهم الذين أضلوا السلطان وأغوه، وعندما تفرقت
الملة الإسلامية اثنتين وسبعين فرقة واتخذت طريق الزيغ والضلال كان علماء
السوء رؤوس هذه الفتن، وقادة هذا الانحراف، وقليل من ضل من العلماء
وانحرف، ولم يؤثر ضلاله على الناس، وأن معظم جهلة هذا العصر،
المتزعمين للتصوف يمثلون دور علماء السوء، ففسادهم - كذلك - فساد متعدد
مُعد، فإذا كان هناك من يستطيع أن يناصر في هذا العمل «نصر الدين
الخنيف» ثم يقصر ويتكاسل ولا يؤدي دوره، فإنه مسئول عن الإسلام،
يستحق الملام... أرجو منكم - لتقربكم إلى السلطان وتهيؤ الفرص في

الحديث معه - أن تبذلوا جهودكم في تمكن الشريعة المحمدية ونشرها،
وتخرجوا المسلمين من غربتهم ومسكنتهم ومهانتهم»^(١).

□ ويقول للسيد فريد - وهو من أهل البيت -:

«سيدي الشريف! إن الإسلام - اليوم - مسكين غريب، وإن فلساً واحداً
ينفق - الآن - لتقوية الإسلام وتأييده، يعادل الملايين، فلننظر من يكون ذلك
الصقر الجريء الذي ينعم الله عليه بهذه النعمة الجليلة، إن العمل الذي يقوم
الإنسان به لنشر الدين وتأييد الملة - في أي عصر من العصور - جميل
محبوب ولكنه اليوم حيث الإسلام غريب أجمل وأحب».

□ ويكتب إلى مرزا عزيز الدين خان أعظم «أيديكم الله - سبحانه -
ونصركم على أعداء الإسلام في إعلاء الإسلام، قال رسول الله ﷺ: «بدأ
الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء». فقد بلغت غربة الإسلام
في هذه الديار أن أطل الكفار ألسنتهم على الإسلام، ويعيبون المسلمين، ولا
يستحيون من إظهار أحكام الكفر، ومدحه والثناء عليه في المشاهد
والأسواق، والمسلمون إزاءهم لا يقدرّون على إظهار أحكام الإسلام،
ويُعاونون إذا عملوا بها ويُذمّون».

□ وقد قال الشاعر ما معناه:

«ما بال الخور العين مصفرةً الوجوه، شاحبة الألوان، والسعالي في
الجمال والدلال، يا للحيرة القاتلة، ويا للعجب العجاب».

ثم يقول: «ترى وجودكم الكريم - اليوم - نعمة سابعة، ولا نرى فارساً
غيركم في الساحة لإدالة الإسلام من منافسيه، وخصومه وإقالة عثاره،
أيديكم الله ونصركم».

(١) «الإمام السرهندي» (٢٧٥ - ٢٧٩) باختصار.

ثم قال: «إن هذه الفرصة للجهاد بكلمة الحق، التي أتاحتها الله لكم اليوم، هو الجهاد الأكبر، فانتهزوا هذه الفرصة وقولوا: هل من مزيد، واعتبروا هذا الجهاد باللسان - في هذا الوقت بالذات - أفضل من الجهاد بالسيف والسنان، ونحن الفقراء العجزة، عجزنا عن هذه النعمة العظيمة: هنيئاً لأرباب النعيم نعيمهم وللعاشق المسكين ما يتجرع به». هديناك إلى مكان الكثر الدفين، فإن كنت لم أظفر به لعلك أنت تظفر به».

□ ويكتب إلى الأمير خان جهان:

«لو جمعتم بين ما تتبأون من منصب كبير وبين العمل على الشريعة لأديتم أمانة الأنبياء - عليهم الصلوات والتسليمات - وأوضحتم الدين المتين وأضأتموه، وعممتموه، ولو جهدنا - نحن الفقراء - أنفسنا أعواماً طوالاً، لما حلقتنا بغيار أمثالكم من صقور الإسلام.

ألا نفوس أبيات لها همم أما على الخير أنصاراً وأعواناً؟»
 وكتب إليه «لما كان السلطان العظيم جهانكير يستمع إلى حديثكم بإصغاء واهتمام، ويقدره قدره، فما أجمل هذه الفرصة لتبلغوا إلي السلطان - بصريح العبارة أو الإشارة - كلمة الحق التي يعتقدونها أهل السنة والجماعة، شكر الله سعيهم، وتقدموا إليه بكلام أهل الحق ما اتسع له المقام، واقتضى الحال، بل انظروا والتمسوا دائماً مناسبة من المناسبات يتطرق فيها الكلام إلى الدين والشريعة الإسلامية، حتى تنتهزوا الفرصة لإظهار أن الإسلام حق والكفر باطل شنيع»^(١).

ويقول: «فلو تمكن الإسلام في بداية هذه الدولة، وارتفعت رؤوس

(١) «الإمام السرهندي» (ص ٢٨١ - ٢٨٢).

المسلمين ونالوا العزّة والكرامة، فيها ونعمت، وإذا حال توقّف وتردد في هذا الأمر دون ذلك، والعياذ باللّهِ، فسوف يزداد حال المسلمين سوءاً وتعقداً ورزيئة، فالغيث الغياث، ثم الغياث الغياث، فلننظر من المقبل المنصور الذي يشرّفه اللّهُ بهذا السعادة، ومن هو الصقر الجسور الذي يظفر بهذه النعمة الجليلة ﴿ذلك فضل اللّهِ يؤتيه من يشاء واللّهُ ذو الفضل العظيم﴾.

* العمل التجديدي الذي قام به الإمام السرهندي:

تحت هذا العنوان: «ما هو العمل التجديدي الذي قام به الإمام السرهندي؟»

كتب أبو الحسن الندوي: «إنه تجلية الفكر الإسلامي، وإنعاش الروح الدينية، ومقاومة الفتن الخطيرة المحدقة، واستئصالها من جذورها، وكسر طلائع المحاولات الضالة المؤسسة على الرياضات والمجاهدات، والإشراق وصفاء الباطن، والتجارب الروحية - لمعرفة اللّهِ تعالى والوصول إليه، التي كانت تعتمد على وسائلها وطرقها الخاصة، وتستكف عن اقتفاء سيدنا محمد ﷺ واتباع سنته وهديه، ولا ترى لزوماً لذلك، وكشف النقاب عن وجه العقائد والنظريات المتلبسة بالوحدة والاتحاد، وقد بلغا أوج التطرف والمغالاة، وانتشرا في كثير من الأوساط وتلقّاهما كثير من الناس بالقبول، وأحدث رجّة في المعتقدات الدينية، وهزة في المجتمعات الإسلامية، وفوضى في الخلق والدين،... والتشديد في الإنكار على البدع والخرافات - التي أصبحت تشريعاً إزاء تشريع - وتفنيداً، وعدم الاعتراف بوجود «البدعة الحسنة»، وتثبيت أقدام الإسلام المتزلزلة في الهند، وإزالة آثار الكفر ومعالم الضلال، التي خلفها عهد أكبر المظلم، والمحاولة الجادة الحكيمة الناجحة لثورة دينية تجديدية، وتغيير جذري عظيم، كان من نتاجهم السلطان محيي الدين أرونك زيب عالمكير سلطان الهند، وصاحب الأمر والنهي فيها، سياسياً وإدارياً،

وحكيم الإسلام الإمام ولي الدهلوي وخلفاؤه وتلامذته الذين هم من حلقات هذه السلسلة الذهبية - روحياً وفكرياً، وكان كل ذلك امتداد هذه الدعوة والحركة، وهم الذين بذلوا جهوداً جبارة في نشر تعاليم الكتاب والسنة، والدعوة إليها بعلو هممة، وشرحهما وتبيينهما للناس، وكانت جهودهم في الإفادة والتدريس، وإنشاء المدارس الدينية، والتزكية الروحية، والتربية الباطنية، وإصلاح العقائد، والردّ على البدع والتقاليد، ثم جهادهم، واستماتتهم في سبيل الله وسعيهم لإعلاء كلمة الله، وبفضل هذه الجهود بقيت شجرة الإسلام في الهند، قائمة على ساقها، ناضرة مخضرة، بل حوّلوا الهند مركز الثقل في العالم الإسلامي في العلوم الدينية لا سيما علم الحديث الشريف، والفكر الإسلامي، والدعوة والإرشاد.

هذا كله صحيح ومقرر تاريخياً وعلمياً ولكن ما هي النقطة المركزية والمحور الأساسي الذي تدور حوله هذه الجهود التجديدية، والأعمال الإصلاحية العظيمة؟ وما هي تلك المأثرة التجديدية المهيمنة، التي تحتضن هذه الجوانب كلها، وتغذيها؟

للناس - حسب ميولهم وأذواقهم - إجابات مختلفة على هذا السؤال الخطير وللناس فيما يعيشون مذاهب.

وتفرّق الناس في الإجابة فرقاً وأحزاباً، نخصّ ثلاث فرق منها بالذكر فيما يلي:

(١) يقول فريق من هذه الفرق: إن الإمام السرهندي يستحق وصفه بمجدد الألف الثاني لأنه استعاد الهند إلى راية الإسلام، وحفظها من الارتقاء في حضن البرهمية، وفلسفة «وحدة الأديان»، ووجهها إلى لواء محمد ﷺ وسلّمها لوصاية الإسلام، وحمايته، ودفع عنها في القرن الحادي عشر الهجري - القرن السادس عشر الميلادي - ذلك المصير الذي صارت إليه في

القرن الثالث عشر هجري - القرن التاسع عشر الميلادي - بل الواقع أنه حفظ الأمة الإسلامية الهندية من خطر الردة العقائدية والفكرية والحضارية الشاملة، التي ظهرت - בזكاء تلك الشخصية القوية صاحبة الكلمة النافذة والإرادة الحديدية كالمملك أكبر، ودهاء مستشاريه كملأ مبارك، وفيضي وأبي الفضل - واقعاً ملوساً يحس، وقد كان هذا التحول الروحي والمعنوي والردة الفكرية والحضارية أخطر، وأدق، وأرسخ جذوراً من انقراض الدولة، والانتهيار السياسي، الذي وقعت كارئته في أواخر القرن الثامن عشر، وأوائل القرن التاسع عشر، بقيام القوى غير الإسلامية الناهضة في الهند، وسيطرة الانكليز وتسلطهم في البلاد.

ولعل الدكتور محمد إقبال أشار إلى هذه الحقيقة، إذ قال في بيت من شعره، يشير إلى الإمام السرهندي: «ذلك الحامي لدمار الأمة الإسلامية في الهند، الذي قيّضه الله - في الحين المناسب - ونصبه حارساً للدين القويم».

(٢) ويقول الفريق الثاني: إن عمله التجديدي يتركز في معالجته تفضيل الشريعة على الطريقة، وأن الطريقة تابعة خاضعة للشريعة، في قوة وإيضاح، وثقة وبصيرة، لم يسبق إلى هذا الأسلوب القوي المبين حتى تجلّى لكل ذي عينين أن الطريقة خادمة للشريعة، وأوقف بذلك تلك الفتنة الخطيرة الناجمة في أواسط «السلوك والطريقة» التي كانت تدعو إلى الاستغناء عن الشريعة - أحياناً - والانحراف عنها - أحياناً أخرى، والاعتماد الكامل على الرياضات والمجاهدات، والحواس الباطنة، والتي كانت تستهدف أول ما تستهدف الهند - لكونها مركزاً لليوك والتنسك المتطرف والرهبة - ولم يستطع أحد بعده أن يتجرأ على القول بأن الشريعة في واد، والطريقة في واد، وليس من حق الشريعة فرض الرقابة على الطريقة.

(٣) ويرى الفريق الثالث أن مآثرته التجديدية الأساسية، هي ضربته

القاسمة لعقيدة «وحدة الوجود»، وهدم فلسفتها من أساسها فسَدَّ ذلك السيل العام الذي كان يجرف بالعقائد الصحيحة، وحول تياره العنيف الذي اكتسح جميع الأوساط العلمية والروحية في القرون الأخيرة.. وكلام السرهندي في «وحدة الشهود» لا يُقبل ومردود عليها بعد ذلك.

* إعادة الثقة والإيمان بحتمية النبوة المحمدية وخلود الرسالة الأخيرة :

ولكن الواقع أن علمه التجديدي الأساسي الذي تدور حوله سائر أعماله الإصلاحية التجديدية، ومنبعه الأصيل الذي تتفجر منه ينابيع جميع مآثره الإصلاحية، وتتحول إلى نهر يجري في العالم الإسلامي كله، هو ذلك العمل الإصلاحي، العظيم الذي تجلّى في إعادة الثقة والإيمان إلى قلوب أبناء الأمة الإسلامية، بخلود الرسالة المحمدية وحاجة الناس إليها، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وترسيخ جذور هذه العقيدة المهمة، ولا أعلم أحداً من المجددين في التاريخ الإسلامي، قام بهذا العمل على هذا النطاق الواسع، وبهذه القوة والصراحة كما قام به الإمام السرهندي، ولعل السبب في ذلك عدم مسيس الحاجة إليها في عهودهم، وأنه لم تبرز على المسرح في عصورهم فلسفة أو حركة منظمة دقيقة كتلك التي ظهر في عهده»^(١) اهـ.

ونختم بما قاله الدكتور محمد إقبال بعد أن أثنى ثناءً كثيراً على الإمام السرهندي، والإمام ولي الله الدهلوي، والسلطان محيي الدين عالمكير وقال: «إنني أقول دائماً إنه لولا وجود هؤلاء، وجهودهم الموفقة لذاب الإسلام في الديانة الهندية وحضارتها»^(٢) اهـ.

(١) «السرهندي» (ص ١٦٧ - ١٦٩).

(٢) المصدر السابق (ص ٣٠٥).

الدين النصيحة

الرد السلفي على أبي الحسن الإمام السرهندي بقلم الندوي

كل من خدم الإسلام حبيب إلى النفوس، ولكن الحق أحب إلينا من أي أحد، والحق لا يُعرف بالرجال، بل هم يُعرفون به، وأهل الحديث أهل السنة والجماعة لا ينتصرون لإمام، أو شيخ، أو طائفة انتصاراً مطلقاً، غير رسول الله ﷺ وأصحابه - رضي الله عنهم أجمعين.

□ نسأل الله العفو والمغفرة لأهل التوحيد، ونبرأ إلى الله من الهوى والبدع، ونحب السنة وأهلها، ونحب العالم على ما فيه من الاتباع، والصفات الحميدة، ولا نحب ما ابتدع فيه بتأويل سائغ، وإنما العبرة بكثرة المحاسن، و«الشخص الواحد يُحِبُّ وَيُؤَالِي لما عنده من الخير والسنن، ويبغض ويكره ويعادى لما عنده من الشر والبدع والفتن ولكن لا يصل حبه إلي ستره، وترك معاداته، والانخداع به، والانحياز إلى بدعه وطاماته»^(١).

□ ولله در شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - حين يقول:

«وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر، وفجور وطاعة، ومعصية وسنة وبدعة: استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعادة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا وهذا»^(٢).

□ لقد كتب الشيخ أبو الحسن الندوي كتابه عن الإمام السرهندي بقلم الصوفي فائتي على السرهندي الموغل في صوفيّاته.

(١) «الماتريدي» للدكتور شمس الدين الأفغاني (٤٧/١) مكتبة الصديق.

(٢) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٢٨/٢٠٩).

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا
والشيخ السرهندي فقيه ماتريدي^(١) له في بيان العقائد على مذهب
«الماتريدي» وكلام في الطريقة الصوفية النقشبندية ولسان أي لسان! فهو فقيه
حنفي، ماتريدي، وصوفي نقشبندي هذا ما يؤخذ عليه.

□ وتأليفه تدل على توغله في التصوف، وهذي بعض النماذج من
مكتوباته يوجد فيها كل ما يوجد عند الصوفية من الإلغاز، وتعقيد العبارة،
والفناء في الشيخ وما إلى ذلك وكلامه عن وحدة الشهود وانتصاره لها:
«قال: ... والمنع من إظهار حقائق عالم الأمر، إنما هو بسبب دقة
تلك المعاني المكنونة...»

وليس في بثي الأسرار مصلحة وإن ظهرن لنا كالشمس في فلك
... وبقية الجواهر العليا التي فوق الصفات الحقيقية داخلية في دائرة
حضرة الذات تعالت وتقدست، ولهذا يُقال لتجليات هذه المراتب الثلاث
تجليات ذاتية، ولا مصلحة في التكلم وراء ذلك «بلغ اليراع إلى هنا فتكسرا»
«المنتخبات من المكتوبات» (ص ٧)، وعنها في «الكشف» (ص ٦٩)، وقال:
«أظن أن القارئ يعرف الآن أن عبارة «بسبب دقة تلك المعاني المكنونة» هي
للمغالطة، وأن السبب الحقيقي هو خوف التكفير».

وقال: «... وإذا قال هؤلاء الصوفية بنفسهم بأن ذات الحق سبحانه
وتعالى لا يحكم عليها بحكم، يكون الحكم عليها بالإحاطة والسريان مخالفاً
لهذا القول، والحق أن ذاته تعالى ليس كمثلته شيء، ولا سبيل لحكم من
الأحكام إليها أصلاً، بل في ذلك الموطن الحيرة الصرفة والجهالة المحضنة،

(١) يقول السرهندي في مكتوباته «مكتوبات أحمد السرهندي» (٢/ ١١٠) - الدرر
المكنونات: «زعم جماعة ممن لا خبر لهم أنه تعالى فوق العرش، وأثبتوا له سبحانه
وتعالى جهة فوق والعرش».

فكيف يتطرق السريان والإحاطة إليها؟ ويمكن الاعتذار من جانب الصوفية القائلين بهذه الأحكام بأن مرادهم بالذات هو التعين الأول، فإنهم لما لم يقولوا بزيادة ذلك التعيين على المتعين، قالوا لذلك التعين عين الذات، وذلك التعين الأول بالمعبر عنه بالواحدية سار في جميع الممكنات...» «المنتخبات من المكتوبات» (ص ١٠).

وقال: «... لتسهيل التحليل، يعني بالإحاطة قولهم «اللّه محيط بكل شيء أو بالممكنات» ويشيرون بها إلى وحدة الوجود، وبالسريان قوله: «اللّه سار في كل الممكنات، أو الأشياء»، ويعنون بها وحدة الوجود أيضاً. وطبعاً القول بالإحاطة هو حكم، وكذلك القول بالسريان هو حكم أيضاً، لذلك لا يقولون بها؛ لأن ذات الحق لا يحكم عليها بحكم، ويعنون بكلمة «المتعين» الجزء من اللّه (جل اللّه وعلا)، الذي تشكل أو تعين بالمخلوقات، ويقرّر المجدد أنهم لم يقولوا بزيادة التعين (أي الخلق) على المتعين، فهو هو، والمتعين الأول هو محمد ﷺ وطبعاً، هذا أسلوب جديد يقدمه المجدد لتقرير وحدة الوجود بأسلوب موهم، فيه شيء من التعقيد، أرجو من القارئ أن يحلله بهدوء ليزداد تمرساً باللغة الصوفية، وليتأكد أن العقيدة عندهم تلاعب بالألفاظ».

□ وقال: «... وهذه المحافظة إنما هي إلى زمان الوصول إلى الشيخ الكامل المكمل، ثم بعد الوصول إليه، ولا شيء عليه سوى تفويض جميع مراداته إليه، وكونه كاليت بين يدي الغسال لديه، والفناء الأول هو الفناء في الشيخ، ويكون هذا الفناء وسيلة الفناء في اللّه...» «المنتخبات من المكتوبات» (ص ٢١)، وعنهما في «الكشف» (٣٢٧).

□ وقال: «... ومن علومهم (أي الفلاسفة) علم الهندسة وهو لا يغني شيئاً!!! وعلم الطب وعلم النجوم وعلم تهذيب الأخلاق.. وهؤلاء

الأشقياء أخرجوا رقابهم عن برقة التقليد، وصاروا في صدد الاثبات بالدلائل، فضلوا وأصلوا. ولما وصلت دعوة عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام إلى أفلاطون، وكان هو أكبر هؤلاء الخذلة، قال: نحن قوم مهذبون لا حاجة بنا إلى من يهديننا، ما أسفهه وما أشقاه حيث أدرك شخصاً يحيى الأموات ويبرئ الأكمه والأبرص...» «المنتخبات من المكتوبات» (ص ٧٤) وعنهما في «الكشف» (٤٧٧)، وقال: «ترك التعليق للقارئ، ولكنني أنه إلى أن أفلاطون مات قبل ميلاد عيسى بـ ٣٤٧ سنة، فأين الكشف؟ مع العلم أن السرهندي يعترف أن الكشف قد يخطئ.

□ وقال: «...» فما تكون نسبة الآخرين لهؤلاء الأكابر؟ وربما تصدر العبادة عن الآخرين وتكون غير مرضية، وهؤلاء الأكابر يتركون العبادة في بعض الأحيان ويكون ذلك الترك مرضياً. فكان تركهم أفضل عن الحق جل وعلا من فعل غيرهم. والعوام حاكمون بخلاف ذلك يعتقدون ذلك عابداً وهذا مكارراً أو معطلاً...» «المنتخبات من المكتوبات» (ص ١٥٢)، وعنهما في «الكشف» (٥٩٠ - ٥٩١)، وقال: «أقول: من مثل هذا تبين لنا دور الكشف في تزوير عقول الأمة؛ لأن هذا القطب المجدد عرف هذا الحكم عن الله الذي هو هو، أثناء إحدى فئاته، وهو طبعاً، يعتقد أن هذا حق لا ريب فيه».

□ يذهب الشيخ أحمد السرهندي إلى تعطيل صفة الاستواء عفا الله عنه.

□ وقال: «وجدت الله عين الأشياء كما قاله أرباب التوحيد الوجودي من متأخري الصوفية، ثم وجدت الله في الأشياء من غير حلول ولا سريان، ثم ترقيت في البقاء وهو ثاني قدم في الولاية فوجدت الأشياء ثانياً فوجدت الله عينها بل عين نفسي، ثم وجدته تعالى في الأشياء بل في نفسي ثم مع الأشياء، بل مع نفسي...» إلخ... «المواهب السمرديّة» (ص ١٨٢)،

و«الأنوار القدسية» (ص ١٨١)، وعنهما في «النقشبندية» (ص ٥٩).

وقال السرهندي: «كثيراً ما كان يعرج بي فوق العرش المجيد، ولقد عُرِجَ بي مرة، فلما ارتفعت فوقه بقدر ما بين مركز الأرض وبينه، رأيت مقام الإمام نقشبند رضي الله عنه، ورأيت فوق ذلك قليلاً مقامات بعض المشايخ». . . وذكر أسماء عديدة ثم قال: «واعلم أنني كلما أريد العروج يتيسر لي» (المواهب: ١٨٤، والأنوار: ١٨٢، وعنهما في النقشبندية: ص ٤٨).
وقال: «أريت الكعبة المطهرة تطوف بي تشریفاً منه تعالى وتكرماً لي» (المواهب: ص ١٨٥، وعنهما في النقشبندية: ص ٤٨)^(١).

□ ولا يقبل منه مدحه للنقشبندية وشيخها. والشيخ السرهندي هو مؤسس الطريقة النقشبندية المجددية.

□ ولقد ردّ الدكتور شمس الدين الأفغاني على أبي الحسن الندوي ما كتبه عن السرهندي في سلسلة «رجال والدعوة في الإسلام» قال الدكتور شمس الدين عن السرهندي: «مع أنه من كبار أهل وحدة الشهود التي هي وحدة الوجود المتطورة المهذبة.

راجع على سبيل المثال «الدرر المكنونات - ترجمة المکتوبات» (٢/٥ - ٧)، و«المنتخبات من المکتوبات» (١٠)، وانظر «نزّهة الخواطر» (٥/٥٣، ٥٤) في ترجمته، وراجع ما في «جهود علماء الحنفية» (ص ١٤٩١ - ١٤٩٢)، وللعلامة الخجندي المعصومي (١٣٧٩هـ) كلام مهم في «مفتاح اللجنة» (٨٠ - ٨١) في ذكر بعض خرافاته وشركياته^(٢).

(١) الأستاذ أبو الحسن الندوي الوجه الآخر من كتاباته للعالم السلفي صلاح الدين مقبول أحمد.

(٢) «جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية» للدكتور شمس الدين الأفغاني (١/٧٣) - دار الصمعي.

* كلام طيب للشيخ صلاح الدين مقبول أحمد في كتابه «الأستاذ أبو الحسن الندوي الوجه الآخر في كتاباته»:

□ قال الشيخ صلاح الدين مقبول في كتابه: «مركز الإمام السرهندي الاجتهادي والتجديدي في نظر الأستاذ الندوي»:
قال الأستاذ الندوي:

«اختار الإمام السرهندي مذهباً رابعاً إزاء هذه المذاهب الثلاثة، وهو أن وحدة الوجود مقام يعرض للمسالك خلال السلوك، فيشاهد - عند ذاك - عياناً وجهاراً - إنه لا وجود هناك إلا لواجب الوجود، وكل ما يراه الإنسان من وجود، فهو وجود واحد، وما سواه فليس إلا «تنوعاته وتلويناته» وفي تعبير الشيخ محيي الدين ابن عربي والعارفين المتذوقين لهذا المشرب الوجودي إنما هي «تنزلاته».

ولكن لو حالف التوفيق الرباني ورافق الهدي النبوي، وكان السالك صاحب طموح وعلو همة، فإنه يفوز بمقام آخر، وهو مقام «وحدة الشهود»^(١).

وهكذا يضيف الإمام السرهندي - مع نقضه لنظرية وحدة الوجود، الذي كان مذهب غالب المتصوفين والحكماء المدققين، والإشراقين المتعمقين، واعترافه بعلو كعب مؤسس هذه النظرية: علمياً: ورائدها الأكبر الشيخ محيي ابن عربي، في كثير من العلوم والتحقيقات - إضافة جديدة، ويكتشف عالماً جديداً يوافق عقيدة جمهور المسلمين، ويتفق مع الكتاب والسنة والشريعة

(١) ونقل الأستاذ الندوي عن الإمام السرهندي أنه قال: «هو مقام العبدية والتوحيد الذي جاء به الأنبياء - عليهم السلام - المصدر المذكور: (ص ٢٥٨)، وأما شيخ الإسلام ابن تيمية فقال في هذا المقام: «من جعل هذا نهاية السالكين، فقد ضل ضلالاً مبيناً»: «فتاواه» (١١٩/٣)، فضلاً عن أن يجعله «مقام العبدية والتوحيد» وعقيدة جمهور المسلمين.

الإسلامية^(١)، في جانب، ويضيف شيئاً - بدون أن يرجع بالعلوم القهقري، ويلغى تحقيقات جماعة كبيرة ذات شأن وعلومها ومداركها - ينسجم مع التحقيقات والكشوف الأخيرة في الأنفس والآفاق، ويتلاءم مع النصوص الشرعية والأصول القطعية، ويطابق بينهما جميعاً^(٢).

✽ نقل الأستاذ الندوي عن الإمام السرهندي انتقاله من مقام إلى مقام حيث قال :

«لقد كان كاتب السطور يعتقد أولاً في التوحيد الوجودي، وكان على علم بهذا التوحيد من صغره، وقد رسخ يقينه في قلبه، إلا أنه لم يكن - عند

(١) ولا ريب أن الإمام السرهندي قدّم نظرية وحدة الشهود إزاء وحدة الوجود، ولكن يرى «بعض كبار العلماء المحققين» - على قول الأستاذ الندوي - : «إن هذا النزاع كان نزاعاً لفظياً صرفاً».

وقال بعضهم: «إن الإمام السرهندي أخطأ التوفيق في هذا المجال، وأنه لم يطلع على جميع مؤلفات الشيخ الأكبر: ابن عربي». ولأجل ذلك ألف الشيخ غلام يحيى البهاري (١١٨٠هـ) كتاباً ردّ فيه على تلك النزعة التطبيقية التي كان بعض أوساط السلسلة المجددية أيضاً يحاول على أساسها التوفيق بين وحدة الوجود، ووحدة الشهود». «الإمام السرهندي» (٢٦٢ - ٢٦٣).

هذا، وإن نزعة التوفيق والتطبيق بين النظريتين قائمة، ولم يكن ردّ البهاري على النزعة التطبيقية نهاية هذه المشكلة. إذن، كيف يقال: «إن الإمام السرهندي اكتشف عالمًا جديدًا يوافق عقيدة جمهور المسلمين، ويتفق مع الكتاب والسنة، والشريعة الغراء...؟!» وكيف تكون وحدة الشهود عقيدة جمهور المسلمين، وهي لم تعرف في جيل الصحابة - رضي الله عنهم؟! وبالتالي كيف تتفق هذه انظرية مع الكتاب والسنة، وهذه هي حالها؟!!

وعلى هذا، ليست وحدة الشهود إلا محاولة لتطوير وحدة الوجود، فليعلم... إن التصوف المصطلح بعيد من روح الإسلام الخالص، بحيث لم يستطيع أن يتفق مع الكتاب والسنة بعد إصلاحه وترميمه أيضاً.

(٢) «الإمام اسرهندي» (ص ٢٥٢).

ذلك - صاحب الحال في هذا المقام، فلما شدا في طريق السلوك، انكشف له طريق توحيد الوجود، فجال في هذا المقام ومراتبه وصال، لمدة طويلة من الزمن، وفاز بعلوم كثيرة خاصة بهذا المقام، وانحلت عقدة تلك الواردات والخواطر المشككة التي تعرض لسالكي طريق الوحدة، بهذه المكاشفات، والعلوم المفاضة الموهوبة، ثم استولت على هذا الفقير بعد مدة غير قليلة نسبة أخرى، فتردد في طريق توحيد الوجود في حال استيلاء هذه النسبة، ولكن هذا التردد كان يرافقه حسن الظن، لا الإنكار والجهود، وبقي متوقفاً متردداً مدة طويلة من الزمن، حتى بلغ به الحال إلى الإنكار، وكشف له أن هذه المنزلة أدنى وأحط، ووصل إلى مقام الظلية الذي يفوقها ويفضل عليها، وكان هذا الإنكار اضطراراً وعن اندفاع، فإنه لم يكن يجب الخروج من هذا المقام؛ لأن كبار المشايخ والعارفين ألقوا به عصا الترحال، ولكنه لما بلغ مقام الظلية، ورأى نفسه والعالم كله ظلاً، تمنى أن لا يفارق هذا المقام؛ لأنه كان يعتقد الكمال في وحدة الوجود، ولهذا المقام مناسبة بها بالجملة، ولكن كان من مقادير الله، ولطفه وكمال شفقته عليه، أن رقاها وصعد به إلى مقام أسمى وأرفع، هو مقام العبدية^(١)، فتجلى له - عند ذلك - كمال هذا المقام وعظمته، وجعل يتوب إلى الله، ويستغفره من المقامات السابقة، فلو لم يكن لطف الله أرشد هذا المسكين إلى هذه الجادة الواضحة، ولم يكشف له تفوق

(١) بعد هذا المشوار الطويل في أودية التصرف وصل الإمام السرهندي إلى هذا المقام فراراً من وحدة الوجود، وقدم نظرية وحدة الشهود إزاءها، ولكن لأجل تعلقه بها من الصغر، كأنه لم يأتي بشيء واضح في هذا الجال عند بعض كبار المحققين في التصوف حيث قالوا: «إن هذا النزاع كان نزاعاً لفظياً صرفاً» «الإمام السرهندي» (ص ٢٦٢). واعتبر الإمام السرهندي هذا المقام مقام العبدية وغاية السالكين كما هو واضح من تقريره، ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية قال في هذا المقام: «من جعله نهاية السالكين فقد ضل ضلالاً مبيناً» «فتاواه» (٣/١١٩).

مقام على مقام، لكان يعتقد انحطاطه وسقوطه في ذلك المقام؛ لأنه كان يرى أن لا مقام أفضل وأعلى من مقام «وحدة الوجود، واللَّه يقول الحق، وهو يهدي السبيل»^(١).

* رأي السرهندي في ابن عربي:

ذكر الأستاذ الندوي تحت عنوان «الرأي الوسط العادل عن الشيخ الأكبر»، أن الإمام السرهندي يرى أن الناس سلكوا مسلك الإفراط والتفريط في ابن عربي... وأن كلا الفريقين جانب الاعتدال، ثم نقل عنه قوله في ابن عربي حديث قال:

«ومما يعجب له أن الشيخ ابن عربي يبدو من المقبولين، وتبدو أكثر معارفه وتحقيقاته التي جانب فيها أهل الحق خاطئة بعيدة عن الصواب»^(٢).

* ويذكر - في موضع من رسائله - الفارق الحقيقي بينه وبين عامة المثبتين أو

النافين لوحدة الوجود، فيقول:

«إن اختلاف هذا الفقير مع القائلين بوحدة الوجود، عن طريق الكشف والشهود، والعلماء يستبجحون هذه الأمور (كوحدة الوجود، والنفي المطلق لما سوى واجب الوجود)، أما الفقير فلا يتردد في الاعتراف بحسن هذه الأقوال والأحوال الصادرة من فكرة وحدة الوجود، إذا أدت بصاحبها إلى العبور، (أي: أن يعبر السالك هذا المقام إلى مقام أرفع)^(٣).

(١) «الإمام السرهندي» (٢٥٧ - ٢٥٨).

(٢) «الإمام السرهندي» (ص ٢٥٨)، نقلاً عن «الرسالة» رقم (٢٦٦) المجموعة الأولى.

(٣) المصدر المذكور (ص ٢٥٨) وقال: «وهو مقام العبودية والتوحيد، الذي جاء به الأنبياء - صلوات الله عليهم وسلامه -» (الرسالة رقم (٤٢) المجموعة الثانية، بعث بها إلى الشيخ جمال الدين حسين).

وسياتي ما في هذا المقام من الكلام قريباً إن شاء الله تعالى.

* وحدة الشهود في نظر شيخ الإسلام ابن تيمية:

ذكر الأستاذ الندوي فكرة وحدة الشهود في كتابات شيخ الإسلام فقال: لا نعلم في حدود دراستنا واطلاعنا إلا شخصيتين شهيرتين - نجد عندهما فكرة وحدة الشهود إزاء نظرية وحدة الوجود، وإشارات متفرقة إليها...

(أحدهما): شيخ الإسلام ابن تيمية..

(والآخر): شرف الدين أحمد بن يحيى المنبري..

ويتجلى من كتابه «العبودية» أنه من المطلعين على فكرة وحدة الشهود ويعرف هذه الحقيقة أنها مقام يعترض السالك أثناء تربيته وسلوكه... ولكنه - لعدم غوصه في هذا المجال - يكتفي بإيماءات وإشارات^(١). هذه العبارة تحتاج إلى بعض التوضيحات حتى لا تحمل على غير محملها، ومنها:

□ قد يفهم من قوله في البداية أن شيخ الإسلام قدّم وحدة الشهود إزاء نظرية وحدة الوجود وهذا خلاف الواقع.

□ ثم تنازل إلى قوله الواضح: «أنه من المطلعين على فكرة وحدة الشهود». ولكن يعلم أن اطلاعه عليها شيء، وتقديمه إياها إزاء نظرية وحدة الوجود شيء آخر، بل قال: «من جعل هذا نهاية السالكين فقد ضلّ ضلالاً مبيناً»^(٢)، فضلاً أن يجعله مقام العبودية والتوحيد.

□ انبسط الأستاذ الندوي حين ذكر تقي الدين ابن تيمية وشرف الدين المنبري في فكرة وحدة الشهود، وذكر أنهما يشتركان في سلامة الذوق وسلامة الفطرة.

(١) «الإمام السرهندي» (٢٤٩ - ٢٥٠).

(٢) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (١١٩/٣).

فيلعلم حتى لا يلتبس، أن شرف الدين في وحدة الشهود في واد (هو وادي التصوف)^(١)، وتقي الدين في واد آخر (هو وادي السنة).

ذكر الأستاذ الندوي شيخ الإسلام ابن تيمية في نظرية وحدة الشهود، مثله مثل تشبّث الغريق بالحشيش، ولعله أراد بنسبتها إلى شيخ الإسلام - أي نوع من النسبة - تقليل وحشة الناس من وحدة الشهود إزاء وحدة الوجود.

ولا ريب أن شيخ الإسلام ابن تيمية يعتبر موسوعياً في كل ما يتناول من المباحث في كتبه ورسائله، وفتاواه، وقد ذكر مسألة «الفناء» أيضاً في فتاواه في عدة أمكنة^(٢) وهو لم يكتف بالإشارات والإيماءات^(٣) فقط، بل فصلها حيناً، ولخصها حيناً آخر، فيفهم تفصيله في ضوء تلخيصه، وتلخيصه في ضوء تفصيله، فقد ذكر في فتاواه خلاصة ما في هذا الموضوع فقال:

«والفناء يراد به ثلاثة أمور:

(أحدها): هو الفناء الديني الشرعي الذي جاءت به الرسل، وأنزلت به الكتب، وهو أن يفنى عما لم يأمر الله به بفعل ما أمر الله به: فيفنى عن عبادة غيره بعبادته، وعن طاعة غيره بطاعته وطاعة رسوله، وعن التوكل على غيره بالتوكل عليه، وعن محبة ما سواه بمحبته ومحبة رسوله، وعن خوف غيره بخوفه، بحيث يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ

(١) قارن قوله في هذه القضية، بما يأتي عن كلام شيخ الإسلام ابن تيمية.

(٢) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٣/ ١١٨ - ١١٩)، (١٠/ ٢١٨ - ٢١٩) العبودية، (١٠/ ٣٣٧ - ٣٤٣)، وإبطال وحدة الوجود» (٦٣ - ٦٥).

(٣) قال الأستاذ الندوي: «ولكنه لعدم خوضه في هذا المجال يكتفي بإشارات، وإيماءات»

«الإمام السرهندي» (ص ٢٢٠).

وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴿ [التوبة: ٢٤] فهذا كله هو مما أمر الله به ورسوله (١).

وأما (الفناء الثاني): وهو الذي يذكره بعض الصوفية، وهو أن يفنى عن شهود ماسوى الله تعالى (٢)، فيفنى بمعبوده عن عبادته وبمذكوره عن ذكره

(١) قال شيخ الإسلام في «فتاواه» (٣٣٧/١٠) أيضاً:

أحدها: فناء القلب عن إرادة ما سوى الرب، والتوكل عليه وعبادته، ما يتبع ذلك، فهذا حق صحيح وهو محض التوحيد والإخلاص، وهو في «الحقيقة» عبادة القلب، وتوكله، واستعانته، وتألوه وإنابته، وتوجهه إلى الله وحده لا شريك له، وما يتبع ذلك من المعارف والأحوال، وليس لأحد خروج عن هذا.

وهذا هو «القلب السليم» الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّمَا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:

٨٩] وهو سلامة القلب عن الاعتقادات الفاسدة، والإرادات الفاسدة وما يتبع ذلك.

(٢) هذا الذي يسمونه بـ «وحدة الشهود».

قال شيخ الإسلام أيضاً في «فتاواه» (٣١٤/٢): «ومن الناس من يجعل هذا من السلوك، ومنهم من يجعله غاية السلوك، حتى يجعلوا الغاية هو الفناء في توحيد الربوبية فلا يفرقون بين المأمور والمحظور، والمحبوب والمكروه.

وهذا غلط عظيم... فمن طلب رفع إنيته بهذا الاعتبار لم يكن محموداً على هذا، ولكن قد يكون معذوراً».

وقال (٣٤٤/٢): «... هذا مقام الفناء الذي يعرض لكثير من السالكين لعجزهم عن كمال الشهود المطابق للحقيقة، بخلاف «الفناء الشرعي»، فمضمونه الفناء بعبادته عن عبادة ما سواه...».

وقال (٣٦٩/٢): «... لكن إذا كان قد ورد على الإنسان ما يعجز معه شهود هذا وهذا، كان معذوراً للعجز، لا محموداً على النقص والجهل».

وقال أيضاً في «فتاواه» (٢١٩/١٠): «فإذا قوى على صاحب الفناء هذا، فإنه يغيب بموجوده عن وجوده، وبمشهوده عن شهوده، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن معرفته، حتى يفنى من لم يكن وهي المخلوقات المعبدة ممن سواه، ويبقى من لم يزل وهو الرب تعالى.. والمراد فناؤها في شهود العبد وذكره، وفناؤه عن أن يدركها أن يشهدها. وإذا قوى هذا ضعف المحب حتى اضطرب في تمييزه فقد ظن أنه هو محبوبه، كما يذكر: أن رجلاً ألقى نفسه في اليم فألقى معه نفسه خلفه، فقال: أنا وقعت فما أوقعك خلفي

وبمعرفة عن معرفته، بحيث قد يغيب عن شهود نفسه لما سوى الله تعالى، فهذا حال ناقص قد يعرض لبعض السالكين، وليس هو من لوازم طريق الله.

ولهذا لم يعرف مثل هذا للنبي ﷺ وللسابقين الأولين، ومن جعل هذا نهاية السالكين، فهو ضالّ ضلالاً مبيّناً، وكذلك من جعله من لوازم طريق الله فهو مخطئ، بل هو من عوارض طريق الله تعالى تعرض لبعض

قال: غبت بك عني، فظننت أنك أتي».

وقال في «فتاواه» (٢٢٠/١٠) أيضاً: «وأكابر أولياء الله كأبي بكر وعمر، والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، لم يقموا في هذا «الفناء»، فضلاً عن فوقهم من الأنبياء، وإنما وقع شيء من هذا بعد الصحابة... فإن الصحابة - رضي الله عنهم - كانوا أكمل وأقوى وأثبت في الأحوال الإيمانية من أن تغيب عقولهم، أو يحصل لهم عشى، أو صعق، أو سكر، أو فناء، أو وله، أو جنون. وإنما كان مبادئ هذه الأمور في التابعين من عباد البصرة فإنه كان فيهم من يعيش عليه إذا سمع القرآن، ومنهم من يموت: كأبي جهير الضرير، وزرارة بن أوفى قاضي البصرة...».

وفرق شيخ الإسلام بين الفناء الأول، وهذا الثاني فقال في «فتاواه» (٣٣٨/١٠):

«(الأمر الثاني): فناء القلب عن شهود ما سوى الرب، فذاك فناء عن الإرادة، وهذا فناء عن الشهادة. ذاك فناء عن عبادة الغير والتوكل عليه، وهذا فناء على العلم بالغير والنظر إليه، فهذا الفناء فيه نقص؛ فإن شهود الحقائق على ما هي عليه، وهو شهود الرب مديراً لعباده، أمراً بشرائعه، أكمل من شهود وجوده، أو صفة من صفاته، أو اسم من أسمائه، والفناء بذلك عن شهود ما سوى ذلك».

وقال في «فتاواه» (٥٩٤/١٠) أيضاً: «والذين يسلكون في محبة الله مسلكتاً ناقصاً يحصل لأحدهم نوع من ذلك يسمى «الاصطلام» و«الفناء» يغيب بمحبته عن محبته، وبمعرفة، وبمذكوره عن ذكره، حتى لا يشعر بشيء من أسماء الله وصفاته وكلامه وأمره ونهيه».

و«منهم» من قد ينتقل من هذا إلى «الاتحاد». فيقول: أنا هو، وهو أنا، وأنا الله، ويظن كثير من السالكين أن هذا هو غاية السالكين، وإن هذا هو «التوحيد» الذي هو نهاية كل سالك. وهم غالطون في هذا؛ بل هذا من جنس قول النصارى، ولكن ضلوا؛ لأنهم لم يسلكوا الطريق الشرعية في الباطن في خبر الله وأمره.

الناس دون بعض، ليس هو من اللوازم التي تحصل لكل سالك.

وأما (الثالث): فهو الفناء عن وجود السوي، بحيث يرى أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق، وأن الوجود واحد بالعين، فهو قول أهل الإلحاد والاتحاد، الذين هم من أضلّ العباد^(١).

هذا الذي قرره شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في مسألة الفناء، في فتاواه ورسائله^(٢)، في مواضع عديدة.
وبعد هذا، نتساءل:

ما الذي حمل الأستاذ الندوي أن يذكر شيخ الإسلام في هذا الباب، وهو لم يستفد من كتاباته في «مسألة الفناء»، مع وضوحها وجلالتها؟!.

وما رآه الأستاذ الندوي مقام العبودية والتوحيد وغاية السلوك، على

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٣/ ١١٨ - ١١٩).

(٢) وهذا الذي فهمه منه تلميذه الرشيد: الإمام ابن قيم الجوزية - رحمهما الله -، وذكره في كتابه «طريق الهجرتين ونباب السعادتين» (٤٣٠ - ٤٣٢)، ورد على ابن الصائف وشيعته في قولهم: «إن فناء شهود السوى هو عين الكمال» فقال: «فيقال: هذا هو مقام الفناء الذي يشير إليه كثير من المتأخرين، ويجعلونه غاية الغايات ونهاية النهايات، وكل ما دونه فمراقبة إليه، وعيلة عليه... وقد تبين ما في ذلك، وما هو الصواب بحمد الله...» (المصدر المذكور: ٥٣٢ - ٥٣٣).

وهذا الذي فهمه العلامة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين - حفظه الله - من المعاصرين، فقال، عند ذكره ثلاثة أقسام للفناء:

«القسم الثاني: صوفي بدعي، وهو الفناء عن شهود السوى... وهو فناء ناقض من وجوه:

(الأول): إنه دليل على ضعف قلب الفاني...

(الثاني): إنه يصل بصاحبه إلى حال تشبه حال المجانين والسكران...

(الثالث): أن هذا الفناء لم يقع من المخلصين الكمل من عباده الله... «فتاوى ابن عثيمين» (٤/ ٢٤٠ - ٢٤٢).

مذهب الإمام السرهندي، وهو الذي قال فيه ابن تيمية «ومن جعله نهاية السالكين، فهو ضال ضلالاً مبيناً»^(١).

* منع كتاب «السرهندي» للندوي بفتوى من الشيخ ابن باز:

لأجل هذه التناقضات والمخالفات خاصة في هذا الباب، والباب الأخير من كتاب «الإمام السرهندي» للأستاذ الندوي، نراه في «قائمة الكتب التي يجب منع دخولها إلى المملكة العربية السعودية، أو طباعته فيها، أو بيعها في المكتبات التجارية نصحاً لله ولعباده وحماية للمسلمين من شر ما فيها وذلك بعد الثبوت والتأكد مما فيه من الجهة المختصة...»^(٢).

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٣/١١٩).

(٢) بتوقيع من «الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد: عبدالعزيز ابن عبدالله بن باز - حفظه الله - . (مجلة البحوث العلمية بالرياض: العدد (١٥) ص ٢٨٦ - ٢٨٧) وعنهما في «كتب تحت المجهر» (٢/٢١ - ٢٢) للشيخ عبدالعزيز بن محمد السدحان.

* السلطان العظيم محيي الدين أورنك زيب عالمكير وحميته الدينية
وحميته للإسلام:

□ قال عنه الشاعر محمد إقبال:

«ذاك السلطان أورنك زيب ذو المجد السامق الذري الذي تتباهى به
الأسرة الكوركانية، وتعتر به، علا به نجم المسلمين، وارتفعت مكانتهم،
ونالت به الشريعة عزا وكرامتها، كان السهم الأخير في كنانة الإسلام،
للحرب الحامية بين الكفر والإيمان!، تعرضت الأمة الإسلامية لمحنة عظيمة،
بسبب بذرة الإلحاد والزندقة، التي بذرها «أكبر»، وسقاها ونماها، والتي
نشأت - مرة ثانية - في فطرة داراشكوه^(١)، وكانت شموع القلوب في
الصدور خامدة مظلمة بسبب الفساد الشامل والظلام الحالك.

هنالك قبض الله - سبحانه وتعالى - السلطان عالمكير، ذلك الزاهد
الغيور الفارس الجسور، الذي اجتباه الله - عز وجل - لإحياء الدين وتجديد
الإيمان واليقين، فحرقت صواعق سيوفه المهتدة بيارد الكفر والزندقة،
وأضاءت شموع الدين في محافل المسلمين، وتخرّص المتخرصون من قصار
النظر، وضعاف النفوس، فحكموا عليه بأحكام قاسية، وقاسوه بمقاييسهم
الزائفة، ولم يعرفوا عمق مداركه، وأبعاد تفكيره، لقد كان فراشة متهافئة
على شعلة التوحيد، وكان في بلاد الشرك والوثنية كإبراهيم في نار نمرود،
نسيج وحده في صف الملوك والسلاطين، ومثالا فريداً في زمرة الزهاد
والناسكين^(٢).

(١) داراشكوه بن شاهجهان وكان ولياً للعهد وأخاً لأورنك، ووقف علماء المسلمين إلى صف
أورنك حتى تربع على عرش المملكة عام ١٠٦٨ هـ وذلك لأنهم لاحظوا أن داراشكوه
يميل إلى مذهب جده أكبر وأنه معجب بفلسفة وحدة الأديان والجمع بين الديانة الإسلامية
والديانة الهندوكية.

(٢) «رموز بيخودي» الديوان الفارسي (ص ٩٨).

تأثر أورك زيب عالمكير بأبناء الإمام السرهندي وأحفاده، وكان يجلبهم ويعظمهم، وينسجم مع دعوتهم، وكان اتصاله بالشيخ محمد معصوم بن السرهندي وابنه سيف الدين اتصال تلميذ بشيخه، وقد كان الشيخ محمد معصوم من يوم أن كان السلطان ولياً للعهد يعتنى به اعتناءً خاصاً، ويلقبه بولي العهد الحامي لدمار الإسلام - الذي كان إرهاباً مستقبلاً العظيم، وتفاؤلاً نافعاً.

وتفيد رسائل الشيخ سيف الدين - التي بعث بها إلى السلطان أورك زيب وطُبعت باسم «المكتوبات السيفية دراسة عميقة» - أن صلة السلطان أورك زيب بالشيخ سيف الدين - بصفة خاصة - وبأسرة الإمام السرهندي - بصفة عامة - لم تكن صلة حب وإجلال فحسب، كما توجد لدى السلاطين المتدينين مع علماء ومشايخ بلادهم وعهودهم، بل كانت هذه الصلة عملية أكثر منها عاطفية وتربوية إصلاحية أكثر منها حباً وإجلالاً محضاً. وكان الشيخ سيف الدين يرافق السلطان من حين لآخر - في غزواته ورحلاته إلى الركن، وإقامته الطويلة فيها، ويشاركه في تفكيره ويدعو له.

وكان الشيخ سيف الدين داعياً عظيماً إلى السنة، ونبذ البدع والمنكرات، واصل جهوده مع السلطان في إحياء السنة، وتنفيذ الشريعة الإسلامية، ولم يدخر في ذلك وسعاً، وتوجد في مجموعة رسائله «المكتوبات السيفية» ثماني عشرة رسالة كتبها إلى السلطان، لفت فيها انتباهه إلى إزالة البدع والمنكرات، وإحياء السنة، وإعلاء كلمة الله، وتمكين الدين الإسلامي في هذه البلاد.

وتذكر كتب التاريخ دخول الشيخ سيف الدين في قصر السلطان، وإنكاره على الصور المنحوتة في الجدران، وانقياد السلطان له، وأمره - مباشرة - بإزالة هذه الصور، وكتب الشيخ محمد معصوم إلى السلطان «إنها

لنعمة عظيمة أن يسمع السلطان - رغم أبهته وشوكته وحشمته - كلمة الحق وينصاع لها، ويؤثر فيه قول مسكين فقير»^(١).

□ وكتب الشيخ محمد معصوم إلى ولده الشيخ سيف الدين «ما ذكرته من أحوال السلطان الحامي لدمار الإسلام... وتقبله الحسن لكلمة الحق، وإزالة بعض المنكرات... فيجب علينا أن نحمد الله عز وجل - على ذلك، فإن هذه الصفات شاذة نادرة في طبقة السلاطين»^(٢).

لقد كان الشيخ سيف الدين على رتبة عظيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يكن عليها شيخ من المشايخ مثله، حتى كادت البدع ترتفع عن بلاد الهند في زمنه وتستأصل، ولذلك لقبه والده «بمحتسب الأمة».

□ ويصعب الحكم على جميع أعمال أي حاكم أو سلطان لدولة ما من الدول وجميع عاداته وأخلاقه، وأحكامه وأقضيته، وإجراءاته بأنها موافقة - مائة في المئة - للتعاليم الإسلامية، والأحكام الشرعية، ولا يمكن أن يقال ذلك إلا في الخلفاء الراشدين، وبعض الولاة الذين كانوا على سيرة عمر بن عبدالعزيز في إقامة الخلافة على منهاج النبوة، إلا أن الوثائق التاريخية الثابتة عن السلطان أورنك تدل بوضوح أنه خطأ خطوات جريئة وأحدث تغييرات عميقة بعيدة المدى في نظام الدولة، وفي المجتمع المسلم - الخاضع لهذا النظام، ونفّذ - لأول مرة - بعض الإصلاحات التي كانت تؤثر على اقتصاد الدولة، تطبيقاً لبعض الأحكام الصريحة في الشريعة الإسلامية.

□ فقد غير أورنك التقويم المجوسي المتبع في الإدارة والولاية منذ عهد أكبر، وأحلّ بدلاً منه التقويم الهلالي الإسلامي، وأمر بتقديم التقويم الهلالي

(١) «رسائل الشيخ محمد معصوم» (ج ٣)، «الرسالة» رقم (٢٢٧).

(٢) لا يقبل من السلطان أورنك صوفيّاته النقشبندية، وقد كان متأثراً في ذلك بشيوخه من أسرة السرهندي. وخير الهدي هدى محمد ﷺ.

على التقويم الشمسي، وأمر بإلغاء الاحتفال بمهرجان نوروز لتشبهها بطريقة عباد النار المجوس، وقرر بداية الجلوس بغرة شهر رمضان، وأبدل مهرجان نوروز بمهرجان عيد الفطر.

□ أمر السلطان بإلغاء «راهداري» - ضريبة الطريق - الذي كان يؤخذ على جميع الحدود والثغور، وتوضع جميع وارداته في خزانة الدولة، كما ألغى السلطان جميع الواردات التي كان دخلها من الحانات والخمارات، والغرامات وما يقدم إلى الموظفين والحكام إظهاراً للشكر وغير ذلك، مما يبلغ الملايين من الروبيات، وكان دخلاً كبيراً للدولة.

□ وذكر مؤلف «نزهة الخواطر» اعتماداً على كتب التاريخ بالفارسية أن عالمكير نسخ عام ١٠٦٩هـ ثمانين نوعاً من الخراج والضرائب، التي كان دخلها السنوي للخزانة السلطانية ثلاث ملايين روبية.

□ «وكانت الحسبة منصباً خطيراً في الحكومات الشرعية، وشعاراً ظاهراً من شعائر الخلافة الإسلامية، وكانت الحسبة مهجورة معطلة في الحكومات المسلمة في الهند، وأحيا السلطان هذه السنة أيضاً».

□ يقول مؤرخ الهند الأستاذ ذكاء الله الدهلوي في كتابه «تاريخ هندوستان»:

«عين السلطان الشيخ عوض وجيه محتسباً، وأمره أن ينهى الناس عن جميع المحرمات، وخاصة عن شرب الخمر، وتناول الحشيش وجميع المسكرات، وجميع الفواحش، ويمنعهم - قدر المستطاع - من جميع الميسئات والمنكرات»^(١).

□ وأمر السلطان بإلغاء الرقص والغناء، ونهى عن اجتماع الناس تحت

(١) «تاريخ هندوستان» لذكاء الله الدهلوي (٩٢/٨).

قصر السلطان لزيارته، ورؤية طلعتة من نافذة في أعلى القصر^(١)، وكان هذا تقليداً من التقاليد السلطانية المخترعة، ويسمى «جهروكه درشن»، وترك نفسه الجلوس على النافذة، استنكاراً لهذه التقاليد غير الشرعية.

□ وكان السلاطين المسلمون في الهند - حسب معتقدات الهنادك وعاداتهم القديمة يثقون كثيراً بتنجيم المنجمين، ويعينون الأيام والشهور لأعمالهم الخاصة حسب ما يقرر المنجمون في ضوء علم التنجيم، ففضى السلطان عالمكير على هذه العقيدة والعادة المتبعة.

□ وأهم من ذلك أن الأحكام القضائية كانت تقتصر على محاكم الحكام والأمراء وأحكامها، فعين السلطان عالمكير قضاة شرعيين وأعطاهم السلطة المطلقة فيما يتعلق بالقوانين الشرعية.

□ وتكفل السلطان لتنفيذ القوانين الشرعية، وتوفير التسهيلات للقضاة - بترتيب المسائل الفقهية وتدوينها من جديد، وكون لأجل ذلك لجنة من علماء الأحناف وكانت الثمرة هي «الفتاوى العالمكيرية» أو «الفتاوى الهندية» خدمة للقضاء الشرعي على المذهب الحنفي.

□ وأذن السلطان لرعاياه أن يرافعوا إلى المحكمة ضد السلطان، ويطلبوا بالحكم طبق الشريعة الإسلامية، وعين لذلك محامين شرعيين.

□ يقول مؤرخ الهند ذكاء الله:

«أمر السلطان عام ١٠٨٢هـ، بأن يُنادى في البلاط والمدن والقرى: من كانت له دعوى شرعية على السلطان، فليحضر وليراجع وكيل السلطان، وليأخذ حقه إذا ثبتت دعواه، وأمر بتعيين المحامين والوكلاء في البلاط، وفي

(١) في ديانة أكبر المخترعة قال أكبر «إن رؤية وجه السلاطين هي العبادة، إنهم يُسمون «ظل الله» ولكن رؤيتهم تذكر في الحقيقة بالخالق» - انظر «الإمام السرهندي» (ص ١٠٧).

المدن القريبة والبعيدة حتى يرفع من لا يستطيع الوصول إلى البلاط أمره إليهم، ويثبتوا عن طريقهم دعواهم، ويطلبوا حقهم».

□ يقول: «صدر الأمر بأن المسلمين عند مقابلة السلطان ينبغي أن يقتصروا على أن يقولوا السلام عليك، ولا يضعوا أيديهم على رؤوسهم مثل الكفار، ويجب على الحكام والأمراء أن يتبعوا ذلك مع الخاصة والعامة». ولقبت الأوساط الدينية السلطان أورنك زيب - بناء على هذه الإجراءات «بمحيي الدين»^(١).

* لله در أورنك زيب عالمكير:

□ يقول الأستاذ ذكاء الله الدهلوي عن عبادة عالمكير في رمضان: «كان السلطان يصوم النهار، ويقرأ الأوراد، ويتلو القرآن، ويحفظه غيباً، ويكتب ويؤلف، ويدير دفة شئون الدولة، ويقوم بأعمال المحكمة والقضاء والسلطة، وبعد أن يدخل مسجد غسل خانه «مسجد الدرة» المعروف في داخل القلعة الحمراء فيصلي المكتوبات، والترايح والنوافل حتى ينتصف الليل، فيتناول قليلاً من الطعام، وقليلاً ما يهجع وينام، ويحیی بقية الليل بالقيام، ويحیی بعض الليالي ذات الخيرات والبركات كلها، وهكذا يقضي شهر رمضان».

□ يقول المؤرخ واصفاً احتضار السلطان:

«غلبته الحمى العام الواحد والخمسين من جلوسه، الموافق ١١١٨هـ، والتزم الصلاة بالجماعة - رغم شدة المرض - أربعة أيام، لكمال ورعه وتقواه، وكان قد كتب وصية من قبل، أوصى فيها بأن ينفق أربع روبيات ونصف روبية - وهي ما بقي مما اكتسبه بيده بخياطة القلانس - فيشتري بها ما يحتاج

(١) «تاريخ هندوستان» (٨/٢١٤).

إليه في التكفين والتدفين، وتوزيع ثمانمائة وخمسة روبيات، وهي ما حصلت لي من أجرة كتابة المصاحف، على الفقراء والمساكين، ولما كان يوم الجمعة ٢٨ ذي القعدة عام ٥١ للجلوس، الموافق ١١١٨هـ، صلى السلطان صلاة الفجر، ثم اشتغل بالتهليل، حتى فارق هذه الدنيا الفاتنة بعد أن تعالي النهار، ورحل للأبد إلى دار القرار»^(١).

* حكيم الهند وربانيه ومجدد القرن الثاني عشر في الهند الإمام الدهلوي (١١١٤ - ١١٧٦هـ):

سعة دائرة التجديد الذي قام به الإمام الدهلوي وتنوعه:
 «إن الأعمال والمآثر الجليلة التي وفق الله تعالى الإمام الدهلوي - في القرن الثاني عشر - لتحقيقها وإنجازها من التجديد إصلاح الأمة، وإحياء الفهم الصحيح للدين، ونشر العلوم النبوية وإعادة الحياة والنشاط والحيوية في فكر عهده والأمة الإسلامية وعملها وجهودها تتسع في دائرتها وتنوع شعبها بحيث لا يوجد له نظير لا في المعاصرين فحسب بل في عامة العلماء والمؤلفين في العهود السابقة أيضاً، ويمكن أن يكون سبب ذلك - عدا التوفيق والتقدير الإلهيين - يرجع إلى مقتضيات ذلك العهد الذي عاشه، وإلى ذلك الاحتواء والشمول وعلو الهمة، والمنهج الخاص للتعليم والتربية الذي خصه الله وقدره له وقد كان نتيجة كل ذلك أن الإمام الدهلوي قام بمآثره التجديدية والإصلاحية في مجالات متنوعة من العلم والعمل حتى أن المترجم له والكاتب في «تاريخ رجال الفكر والدعوة في الإسلام» ليواجه الصعوبة في استيعابها ودراستها التحليلية والتفصيلية، والذي يريد استيعاب هذه الجوانب والمجالات كلها فإن لسانه ينشد ويشكو بهذا البيت الفارسي المعروف الذي

معناه: «إن ذيل النظر ضيق وورود حسنك كثيرة، وإن مقتطف ربيعك يشكو من ذيله الضيق».

وإذا أردنا أن نفرقها في مواضيع مستقلة، فهي تأتي بهذه العناوين البارزة:

- ١- إصلاح العقائد والدعوة إلى القرآن.
 - ٢- القيام بنشر الحديث الشريف وترويجه، والجهود الموفقة للتطبيق بين الفقه والحديث والدعوة إليه.
 - ٣- عرض الشريعة الإسلامية في صورة متناسقة مدعمة بالأدلة والبراهين والكشف عن أسرار الأحكام الشرعية ومقاصدها وحكمها.
 - ٤- بيان مكانة الخلافة ووظيفتها في الإسلام وشرح خصائص الخلافة الراشدة ومميزاتها وإثباتها بالأدلة، والرد على الروافض.
 - ٥- عمله التجديدي القيادي في عهد الاضطراب السياسي، واحتضار الدولة المغولية.
 - ٦- الحسبة على مختلف طبقات الأمة ودعوتها إلى الإصلاح والتغيير.
 - ٧- القيام بتربية العلماء الراسخين ورجال العزيمة والكفاح وتخريجهم حتى يقوموا - بعده - بهذا العمل التجديدي من الإصلاح ونشر الدين الصحيح وينقلوه إلى الأجيال القادمة^(١).
- بهذا الشمول العجيب، والتنوع النادر، والفكر الإسلامي الأصيل، والعلم الديني الراسخ، وفهم روح العصر والتنبه للأخطار والتحديات التي كان يتمخض بها المستقبل، أصبح الدهلوي نموذجاً كاملاً للمصلح الديني والمجدد الإسلامي لاعتماده على الكتاب والسنة.

(١) الإمام الدهلوي لأبي الحسن الندوي (ص ١٠٥ - ١٠٦) - دار القلم - الكويت.

* دور الإمام الدهلوي في إصلاح العقائد في الهند على مذهب السلف الصالح أهل السنة والجماعة:

يظهر من دراسة حياة الشاة أحمد بن عبدالرحيم المعروف بالشاه الدهلوي أن أفكار شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه وأنصاره أثرت في تكوين شخصيته بواسطة مشايخه في الحجاز: الشيخ أبي طاهر محمد بن حسن الكردي وكان سلفي العقيدة، والشيخ محمد حياة السندي، شيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب، ورجع الدهلوي إلى الهند بعاطفة الاعتصام بالكتاب والسنة.

□ وقال في شيخ الإسلام: «والذي أعتقده أنا، وأحب أن يعتقده جميع المسلمين في علماء الإسلام حملة الكتاب والسنة والفقه، والذابين عن عقيدة أهل السنة والحديث أنهم عدول بتعديل النبي ﷺ حيث قال: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله» - وإن كان بعضهم قد تكلم فيهم بما لا يرتضيه هذا المعتقد، إذا كان قولهم ذلك غير مردود عليهم بنص الكتاب والسنة والإجماع، وكان قولهم ذلك محتملاً وكان مجال ومساع للخوض فيه، سواء كان قولهم ذلك في أصول الدين أو في المباحث الفقهية، أو في الحقائق الوجدانية.

وعلى هذا الأصل اعتقدنا في شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - فإننا قد تحققنا من حاله أنه عالم بكتاب الله، ومعانيه اللغوية والشرعية وحافظ بسنة رسول الله ﷺ وآثار السلف، عارف بمعانيه اللغوية والشرعية، أستاذ في النحو واللغة، محرر لمذهب الخنابلة فروعه وأصوله، فائق في الذكاء، ذو لسان وبلاغة في الذب عن عقيدة أهل السنة، لم يؤثر عنه فسق ولا بدعة، اللهم إلا هذه الأمور التي ضيق عليه لأجلها. وليس شيء منها إلا ومعه دليله من الكتاب والسنة وآثار السلف.

فمثل هذا الشيخ عزيز الوجود في العالم، ومن يطيق أن يلحق شأوه في تحريره وتقريره؟ والذين ضيقوا عليه لم يبلغوا معشار ما آتاه الله تعالى وإن كان تضييقه ذلك ناشئاً من الاجتهاد، ومشاجرة العلماء في مثل ذلك ما هي إلا مشاجرة الصحابة - رضي الله تعالى عنهم - فيما بينهم. والواجب في ذلك كف اللسان إلا بخير^(١).

ثم أجاب عن مسأله التي ضيقوا عليه لأجلها.

□ يقول الشيخ عبدالحميد عبدالجبار الرحماني الرئيس العام لمركز «أبو الكلام آزاد» للتوعية الإسلامية:

تبين مما تقدم أن العهد التعلقي اختص بتنفيذ تعليمات شيخ الإسلام وإصلاحاته علمياً تحت إشراف الملكين (محمد تغلق وفيروز تغلق) وسلطتهما.

وامتاز عصر الشاه ولي الله الدهلوي بتأثير معارف ابن تيمية في تغيير الفكر والمنهج والتمحيص العقلي، اعترف بذلك الدهلوي وتلميذه معين الدين السندي^(٢).

(١) «جلاء العينين» للألوسي (٤٥ - ٤٦) نقلاً عن «التفهيمات الإلهية» الدهلوي.

(٢) وأما أخطاء الشاه ولي الله الدهلوي في باب التصوف ووحدة الوجود ووحدة الشهود فهي رواسب بقيت آثارها في «عبارات» و«صراط مستقيم» من كتب الشاه إسماعيل الدهلوي، ولم يتخلص الفكر السلفي منها في الهند إلا بعد جهود السيد صديق بن حسن البوفالي ورفقائه، وجهاد السيد محمد نذير حسين المحدث الدهلوي وتلامذته الذين ملأوا الدنيا بعلم الكتاب والسنة ومعارف السلف الصالح شرقاً وغرباً.

ونقول في الشاه ولي الله الدهلوي كما نقل الأستاذ مسعود الندوي عن قائل فيه قوله: «نحن نعرف ولي الله المحدث الفقيه صاحب «حجة الله البالغة» وإزالة الخفاء» ونجّله أما (ولي الله) المتصوف الفلسفي فلا صلة لنا به. انتهى كلام الرحماني في مقدمة كتاب «دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها في الحركات الإسلامية» للشيخ صلاح الدين مقبول أحمد ص (٣٣ - ٣٤).

□ يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي عن العقائد والتقاليد الشركية التي كانت سائدة:

«كانت العقائد والتقاليد الشركية قد نالت رواجاً بين عامة المسلمين باختلاطهم مع غير المسلمين والعجم ونفوذ الحكومة الباطنية والإسماعيلية وتأثيرهما وانتشار تعليمات الجهلة والضلال من الصوفية وأعمالهم، فقد وجد عدد وجيه من المسلمين في ذلك الحين يعتقدون في أئمة دينهم ومشائخهم والأولياء والصالحين منهم من الاعتقادات الفاسدة ويحملون من الأفكار المشركة ما كان يعتقد اليهود والنصارى في عزيز والمسيح - عليهما السلام - وأحبارهم ورهبانهم، وكل ما كان يدور حول قبور الأولياء والمشائخ إنما كان تقليدًا ناجحًا للأعمال والتقاليد التي كانت تنجز في معابد غير المسلمين وقبور المقدسين عندهم، فالاستغاثة منهم والاستعانة بهم، ومد يد الطلب والضراعة إليهم، كل ذلك كان عامًا شائعًا بينهم كما عمت عادة بناء المساجد الفخمة على قبورهم وجعلها مساجد وعقد المهرجانات عليها عامًا فعامًا، وقطع المسافات الطويلة للوصول إليها، وقد كانت عبادة القبور - بجراءة ووقاحة - وعدم الخشية من الله تعالى والخوف من أصحاب القبور والخشية منهم والاستهزاء بذات العلي القدير والاستهانة بشعائره، والجراءة وقلة الأدب وتقديس الأولياء إلى حد التآليه، والحج إلى المشاهد والقبور وترجيحه - بعض الأحيان - على الحج إلى بيت الله العتيق، وخراب المساجد وضياعها، وروعة المشاهد والأماكن الخاصة للزيارة والعناية بها كان كل ذلك من قسّمات الحياة الجاهلية وعلائمها البارزة التي لم تكن تحتاج رؤيتها إلى قطع مسافات طويلة ولا إلى تفكير وتأمل كبير»^(١).

لقد كان هذا الوضع في بلاد كمصر والشام والعراق التي فتحها

(١) الإمام ابن تيمية لأبي الحسن الندوي ص (١٧١ - ١٨٠).

الصحابة رضي الله عنهم بأيديهم المباركة، ثم هي أقرب البلاد وأكثرها اتصالاً بمركز الإسلام ومهبط الوحي وموطن الرسول صلى الله عليه وسلم وكانت لغتها العربية التي نزل فيها القرآن، ولم تتوقف فيها - ليوم واحد - سلسلة دروس الكتاب والسنة، وألفت فيها كتب جليلة في علوم الحديث الشريف وشروحها.

ولا يبعد إذن أن نقدر الوضع بإزاء ذلك في الهند (لا سيما هذا القرن الثاني عشر) التي وصل إليها الإسلام بعد أن طاف بتركستان وإيران وأفغانستان وفقد كثيراً من طاقته وحيويته ونضارته بأيدي أولئك الذين لم يتشرفوا بصحبة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يتمتعوا بالاستفادة - مباشرة - من مصدر النبوة الفياض، والذين كان كثير منهم لم يتحرروا - كلياً - من تأثيرات شعبهم وسلالاتهم، ثم إن الهند كانت تسيطر عليها - من آلاف السنين - الديانة والفلسفة والحضارة التي عجت طينتها بالشرك والوثنية وجريا فيها مجرى الدم، والتي كانت أكبر ممثل - في هذه القرون الأخيرة - للوثنية والمحافظة الآمينة على الجاهلية القديمة، وقد انتقل عدد كبير من سكان هذه البلاد المسلمين من البرهمية والأوساط الشركية الأخرى إلى حظيرة الإسلام، ثم لا يعزب عن البال أن هذه البلاد لم تكن لها من الصلة المباشرة (عبر المدى الطويل) بالقرآن والسنة، ما كانت - لتأثير إيران - بالعلوم الحكمية العقلية والفلسفة اليونانية، وإذا كانت لها علاقة علمية ودراسية بالعلوم الدينية، فبالفقه وأصول الفقه وعلم الكلام، العلوم التي يرجع موضوعها ومجال البحث والتحقيق فيها إلى القضايا والجزئيات الفقهية القانونية، وأصول استنباطها، والبحوث الفلسفية في العقائد، والدعوة الأساسية إلى التوحيد الخالص.

ويمكن أن يقدر ما خلفته ديانات الهند وفلسفاتها وتقاليدها وعاداتها من تأثير في القرن العاشر الهجري نفسه على المجتمع المسلم من إحدى رسائل الإمام السرهندي التي كتبها إلى إحدى الصالحات من مسترشداته، ويقدر منها

ما بلغه المجتمع المسلم من تعظيم شعائر الشرك، والاستعانة بغير الله، وطلب الحاجات من غير الله، وتعظيم أعياد الكفار والمشركين، وتقليد رسومهم وعاداتهم وطقوسهم والنذر والذبح للأولياء والصالحين، والصيام بأسماء المشائخ والصالحات، والخوف من ستيل (التي كانت تعتبر إلهة الجدرى) وإجلالها، وأمثال هذه الأشياء التي تدل على العقلية الهندوسية الوثنية والخضوع للأوهام والخرافات، التي غزت عقر دار المسلمين، ولا يتعسر تقدير ما وقع بعد مضي قرن آخر من الزمان على هذا العهد وفقدان الصلة القوية العامة بالكتاب والسنة من زيغ وانحراف في العقائد وتأثير للعقائد والأعمال غير الإسلامية، بل المعارضة المنافية للإسلام، على كثير من الأسر والبيوتات.

ويمكن أن يقدر أيضاً ما أنتج تأثير غير المسلمين على المجتمع المسلم، والجهل بالكتاب والسنة، والبعد عنهما، والفراغ الطويل في الجهود المؤثرة المركزة (بغض النظر عن الدهماء والجماهير سخطوا أم رضوا، وبإغماض العين عن النتائج والأخطار) - في الهند من وضع سيئ، وما قام من نظام للعقائد، إزاء الدين الحنيف (الذي لم يكن فيه أي مجال لظل من ظلال الشرك والوثنية) وما نبتت في ساحة حياة المجتمع المسلم من نباتات الجاهلية وحشائشها الشيطانية، يمكن أن يقدر كل ذلك من بعض كتابات الإمام الدهلوي نفسه، يقول في «التفهيمات الإلهية»:

«قال رسول الله ﷺ: «لتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم، قلنا يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟» [أخرجه البخاري ومسلم] صدق رسول الله ﷺ فقد رأينا رجالاً من المسلمين الذين ضعف إيمانهم يتخذون الصلحاء أرباباً من دون الله، ويجعلون قبورهم مساجد، كما كان اليهود والنصارى يفعلون،

ذلك وقد رأينا رجالاً منهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ويعتمدون في ترك العمل وإرضاء الشهوات على القول المعزوف إلى النبي ﷺ «الصالحون لله، والظالمون لي». كما قال الذين من قبلهم: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾، وإن سألت الحق فقد فشى التحريف في كل طائفة.

فالصوفية أظهرت أقاويل لا يدرى لها توفيق بـ «الكتاب والسنة»، لا سيما في مسألة التوحيد (الوجودي) فظهر من ذلك أنهم لا يحتفلون بالشرع وليست له عندهم قيمة^(١).

□ ويقول في كتابه الشهير «الفوز الكبير»:

«وإذا كنت تتوقف في التسليم بصحة ما يقال عن عقائد المشركين وأعمالهم فانظر إلى المحرفين المنحرفين في هذا العصر لا سيما من يقطنون منهم بأطراف دار الإسلام، ما هي تصوراتهم عن «الولاية» ورغم أنهم يعترفون بولاية الأولياء المتقدمين يرون وجود الأولياء في عصرنا من المستحيلات، ويؤمنون القبور والعتبات، وقد ابتلوا بأنواع من الشرك والبعد والخرافات وتمكن منهم التحريف والتشبيه وتغلغل في نفوسهم حتى لم تبقى - بحكم ما جاء في الحديث الصحيح: «لتبعن سنن من كان قبلكم إلخ» - بلية من البلايا، ولا فتنة في الفتن إلا وطائفة من طوائف المسلمين - تخوض فيها وتعلق بها، عافانا الله سبحانه عن ذلك^(٢).

* الطريق المؤثر لعلاج هذه الأدواء وإصلاح الأوضاع نشر القرآن الكريم

والدعوة إلى فهمه:

لقد رأى الإمام الدهلوي أن دراسة القرآن الكريم وفهمه وتدبره هو

(١) «التفهيمات الإلهية» (ص ١٣٤ - ١٣٥).

(٢) «الفوز الكبير» للدهلوي (ص ٨ - ٩) - المكتبة المحمدية.

أقوى الطرق وأكثرها تأثيراً لعلاج هذا الداء، بل الفتنة العمياء، ولم يكن تفتنه لهذه الحقيقة مبنياً على أساس الذكاء وطول الدراسة والقياس فحسب، بل كانت حقيقة بديهية، يشهد عليها القرآن نفسه، ولا يشهد عليها تاريخ عهد البعثة والنبوة فحسب بل تاريخ الدعوة والإصلاح والتجديد في الإسلام كله شهيد عليه، ولا يتصور لإعلان حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك وسيلة أقوى وأصرح وأوضح وأكثر تأثيراً في النفوس وجذباً للقلوب منه، وقد صرح ترجمان القرآن الشيخ عبدالقادر (ابن الإمام الدهلوي) في مقدمة «موضح القرآن» وترجمته للقرآن الكريم وتحشيته عليه (بالأردية) بهذه الحقيقة في أسلوب ساذج نفاذ بما لا مزيد عليه، يقول:

«ليقل القائلون ما شاءوا ولكن ليس أحد يستطيع أن يقول كما قال الله، ولا يوجد في كلام أحد من التأثير والنفوذ ما يوجد في كلام الله».

ولعل شعور الإمام الدهلوي بهذا الوضع الديني في الهند، وبعدها عن تعاليم القرآن الكريم والحكيم وتعاليم الإسلام - بصفة عامة - ومنافاتها لها، قد قوي واشتد أثناء إقامته بالحجاز، وانبعث في قلبه الدافع القوي، في ذلك الجو الروحي النوراني القرآني - الذي علا منه هتاف التوحيد قبل كل مكان - إلى أن يقوم بنشر القرآن الكريم وتعميمه بين الناس في الهند، بوضوح وقوة يمكن أن يعبر عنها بالإلهام والإشارة الغيبية التي ترد - في كل عصر - على النفوس الزكية لتحقيق مهمة دينية ضرورية، ويكاد يستحيل دفعها والتغلب عليها، ولذلك نرى أن الإمام الدهلوي بدأ بعمل ترجمة القرآن الكريم باللغة الفارسية التي تمت وتحققت باسم: «فتح الرحمن» بعد عودته من الحجاز.

وقد كان من «الحقائق» المسلم بها ليس في الهند فحسب بل في جميع البلدان العجمية - تقريباً - بما فيها تركستان، وإيران، وأفغانستان، والبلدان المجاورة للهند - وكانت ميولها ونزعاتها، وأعمالها وأذواقها وحقائقها المعترف

بها عندها تظلل على الأوساط العلمية والدينية في الهند وتؤثر عليها - أن القرآن الكريم إنما هو كتاب خاصة الخاصة ليطالعوه ويدرسوه ويفهموه ويتدبروه، وأن فهمه يتوقف على معرفة أكثر من اثني عشر علمًا، وأن نشره في العامة، وتوعيتهم - مباشرة - بمعانيه ومطالبه، والدعوة العامة إلى استهدائه والاستيضاء به والاستفادة منه مباشرة خطر شديد، وضلال كبير، وفتح لباب فتنة مسيطرة، وإنها دعوة إلى الاضطراب الفكري في العامة، والقول بالرأي، والاستغناء عن العلماء، بل فوق ذلك دعوة إلى الخروج عليهم والتمرد والطغيان.

□ يقول الإمام الدهلوي:

«إن هذا العصر الذي نعيشه، وهذه البلاد التي نسكنها تقتضي فيها مصلحة المسلمين ونصيحتهم أن ينقل معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية السلسة (من دون تنميق وتخيير وتظاهر بالفضل وذكر للقصص المتعلقة ووجوه التأويل) حتى يفهمها العامة والخاصة على قدم سواء، ويدرك الصغار والكبار جميعًا معاني القرآن الكريم ومطالبه، وقد ألقى الدافع إلى هذا العمل في روعي، واضطرت إليه اضطرابًا.

وقد ألقى نظرة فاحصة على الترجمات السابقة حتى إذا كان بعضها على المستوى اللائق اكتفي بنشرها وترويجها، ولا بد أن تكون هذه الترجمة منسجمة مع ذوق أهل هذا العصر إلى حد المستطاع، ولكن هذه الترجمات إما طويلة عملة أو قصيرة مخللة، وقد تحقق لي أثناء ذلك ترجمة الزهراوين (سورتي البقرة والنساء) ثم صادفني السفر إلى الحرمين الشريفين، وانقطع ذلك العمل ثم بعد عدة أعوام بدأ بعض الأحبة يقرأ عليّ ترجمة القرآن، فأصبح هذا الدرس باعثًا على العزيمة الأولى، وتقرر أن تقيد الترجمة قدر الدرس اليومي، فلما تمت ترجمة الثلث من القرآن الكريم وقع لهذا العزيز

سفر وتوقف عمل الترجمة، ثم جاءت مناسبة أخرى بعد مدة من الزمن، وعادت الإرادة القديمة من جديد، وتمت الترجمة إلى الثلثين.

وعهد إلى بعض الأصدقاء بتبيض المسودة، وأن يكتبوا معها متن القرآن الكريم أيضاً حتى تتهياً نسخة مستقلة (للقرآن الكريم مع الترجمة) فبدأ هذا الصديق السعيد تبيض المسودة من عيد الأضحى عام ١١٥٠هـ، فتحرك العزم وعاد الدافع وكملت الترجمة إلى آخر القرآن الكريم، ووقع الفراغ من التسويد في أوائل شعبان وبيضت المسودة عام ١١٥١هـ، ونشرت عام ١١٥٦هـ بعناية الأخ العزيز الشيخ محمد أمين - أكرمه الله تعالى بشهوده - وبدئ بتدريسها، وتهيأت لها عدد من النسخ واسترعت انتباه المعاصرين، والحمد لله - تعالى - على أن ذلك النقش الذي نقش في قلبي، قد ظهر - أخيراً - من وراء ستار التقدير^(١).

وقد كتب الإمام الدهلوي عدا هذه الترجمة والتفسير المسمى بـ «فتح الرحمن» مقدمة في أصول الترجمة كذلك، وهي - رغم وجازتها وقصرها - مقدمة فاضلة تحتوي على فوائد جمة، يقول في بدايتها:

«يقول الفقير إلى رحمة الله الكريم، ولي الله بن عبدالرحيم، إنها رسالة في قواعد الترجمة وأصولها مسماة بـ «المقدمة في قوانين الترجمة»، وقد جرى بضبطها القلم أثناء كتابة ترجمة القرآن الكريم».

ويخيل إلينا أن الصخرة الصلدة التي كانت تحول في سبيل ترجمة القرآن الكريم ونشره بين الناس أزيحت بهذه الخطوة الجريئة التي قام بها شخصية جليلة كالإمام الدهلوي (التي كانت طبقة أصحاب العلم والفكر الصحيح في عهده مجمعة كلها - تقريباً - على تبخره في العلم وجمعه

(١) مقدمة «فتح الرحمن» للدهلوي.

للفضائل والمحاسن، ومنزلته الروحية العالية وإخلاصه وتجرده) وفتح الطريق، ولم يزل يحدث ويتسلسل في التاريخ الإسلامي أن شخصية كبيرة ذات شأن إذا بدأت بعمل كانت تحوم حوله الريب والظنون، تنقشع عنه بسببه سحب الريب والظنون وسوء الفهم وينفتح الطريق العام».

* ترجمة القرآن إلى الأردية بعد الإمام الدهلوي:

وقد أمست الحاجة - سريعاً - بعد ترجمة الإمام الدهلوي بالفارسية إلى ترجمة القرآن الكريم باللغة الأردية، إذ أنها كانت بدأت في الجزء الأخير من القرن الثاني عشر الهجري نفسه تحل محل اللغة الفارسية، وبدئ فيها بعمل الكتابة والتأليف، وقد شعر بهذه الحاجة الماسة وتغير الوضع أول ما شعر الشيخ عبدالقادر الدهلوي (م ١٢٣٠هـ) ابن الإمام الدهلوي نفسه، وقام بترجمة القرآن الكريم عام ٥ - ١٢٠٤هـ إلى اللغة الأردية الأدبية التي يمكن أن يقال عنها إنه ليس في علمنا محاولة نقل معاني القرآن الكريم إلى غير العربية بلغت من النجاح والسهولة والجمال وتناولت روح الألفاظ القرآنية إلى الحد الكبير، ما بلغته هذه الترجمة الفوز الكبير:

وقد كان للشيخ الدهلوي مائة عظيمة من مآثره وهو كتابه الفذ الفريد العديم النظير «الفوز الكبير في أصول التفسير».. كان مائة تجديدية في الدعوة إلى القرآن، وإنشاء ملكة الفهم والتدبر للقرآن الكريم في أوساط الخاصة وأصحاب العلم والمثقفين، وإيقاظ عاطفة الإصلاح للأمة الإسلامية. ووقف الدهلوي - رحمه الله - سداً منيعاً ضد الشركيات التي كانت تعبت بالمجتمع الهندي.

□ قال الشيخ أبو الحسن الندوي:

«يقول الإمام الدهلوي في كتابه العديم النظير «الفوز الكبير في أصول

التفسير»:

«والشرك هو إثبات الصفات الخاصة بالله - تعالى - لغيره مثل إثبات التصرف المطلق في الكون، بالإرادة المطلقة، التي يعبر عنها بـ «كن فيكون» أو إثبات العلم الذاتي الذي يحصل بالاكتساب عن طريق الحواس والدليل العقلي والنام والإلهام، وأمثال هذه من الوسائل المادية أو الروحية أو إثبات إيجاد شفاء المريض أو إثبات اللعنة على شخص أو السخط عليه بحيث ينقلب نتيجة هذا اللعن والسخط معدماً فقيراً، أو مريضاً أو شقيماً أو الرحمة لشخص والرضا عنه، بحيث ينقلب هو لسبب هذه الرحمة والرضا غنياً صحيحاً معافى سعيداً.

وهؤلاء المشركون لا يعرفون مع الله - تعالى - شريكاً في خلق الجواهر (أي أصول المادة) وتدبير الأمور العظام، ويعترفون بأنه لا قدرة لأحد إذا أبرم الله - تعالى - شيئاً وقضى، أن يمانعه ويقف دونه، إنما كان إشراكهم في أمور خاصة ببعض العباد، إذ أنهم يظنون أن سلطاناً عظيماً من السلاطين العظام كما يرسل عبيده وأصحاب الزلفى لديه إلى بعض نواحي مملكته للقيام ببعض الأمور الجزئية وأنه لا يقوم بشئون الرعية وأمورهم الجزئية بنفسه، بل يكل ذلك إلى الولاة والحكام، ويقبل منهم شفاعتهم، وتزكيتهم للموظفين الذين يعملون تحت إشرافهم، والمتصلين بهم والمتزلفين لديهم، كذلك قد خلع ملك الملوك على الإطلاق - تعالى شأنه - على بعض عباده المقربين، خلعة الألوهية وجعل سخطهم أو رضاهم مؤثراً في عباده الآخرين.

فكانوا - لأجل ذلك - يرون من الضرورة التزلف إلى أولئك العباد المقربين حتى يكون هذا وسيلة لصلاحية القبول في حضرة الملك الحقيقي، وتنال شفاعتهم في حقهم - عند الجزاء على الأعمال والحساب - الخطوة والقبول عند الله - سبحانه - .

ونظراً لهذه الملاحظة والتصوير الذي رسخ في نفوسهم، حدثتهم

أنفسهم بالسجود أمامهم والذبح لهم والحلف بأسمائهم، والاستعانة بقدرتهم المطلقة، ونحت صورهم وتمثيلهم من حجر وصفر ونحاس وغير ذلك، وجعلها قبلة للتوجه إلى أرواحهم، وتدرج الجهلة من هذا الطريق إلى أن بدأوا يعبدون هذه الصور والتماثيل، ويعتقدون أنها آلهة بذاتها، ووقع في المعتقدات خلط والتباس وفساد عظيم»^(١).

□ ويقول أيضاً في «حجة الله البالغة»:

«حقيقة الشرك أن يعتقد إنسان في بعض المعظمين من الناس أن الآثار العجيبة الصادرة منه إنما صدرت لكونه متصفاً بصفة من صفات الكمال. مما لم يعهد في جنس الإنسان بل يختص بالواجب - جل مجده - ولا يوجد في غيره إلا أن يخلع هو خلعة الألوهية على غيره أو يفنى غيره في ذاته، ويبقى بذاته، أو نحو ذلك ما يظنه هذا المعتقد من أنواع الخرافات كما ورد في الحديث: «إن المشركين كانوا يلبنون بهذه الصيغة: لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك» فيتذلل عنده أقصى التذلل، ويعامل معه معاملة العباد مع الله - تعالى -»^(٢).

□ ويقول كذلك - وهو يبين حقيقة إشراك المشركين، ويصرح بأنه كان هناك أمور مشتركة بين المشركين وبين المسلمين، فقد كان المشركون العرب لا ينكرون وجود الله - تعالى - ومكانته المتفردة وقدرته المطلقة، وكانوا يرون أن المقربين لديه والمحبوبين عنده يشاركونه في بعض الصفات والحقوق - وذلك أيضاً بإذنه ورضاه - ولأجل ذلك كانوا يعاملونهم معاملة العبودية والخضوع - يقول تحت «باب التوحيد».

«والمشركون وافقوا المسلمين في تدبير الأمور العظام وفيما أبرم وجزم،

(١) «الفوز الكبير» (ص ٧ - ٨).

(٢) «حجة الله البالغة» لولي الله الدهلوي (١/٦١).

ولم يترك لغيره خيرة، ولم يوافقوهم في سائر الأمور، ذهبوا إلى أن الضالحين من قبلهم عبدوا الله - تعالى - وتقربوا إليه، فأعطاهم الله الألوهية فاستحقوا العبادة من سائر خلق الله كما أن ملك الملوك يخدمه عبده فيحسن خدمته فيعطيه خلعة الملك، ويفوض إليه تدبير بلد من بلاده، فيستحق السمع والطاعة من أهل ذلك البلد، وقالوا: لا تقبل عبادة الله - تعالى - إلا مضمومة بعبادتهم، بل الحق في غاية التعالي، فلا تفيد عبادته تقريباً منه، بل لا بد من عبادة هؤلاء ليقربوا إلى الله زلفى، وقالوا هؤلاء يسمعون ويبصرون ويشفعون لعبادهم، ويدبرون أمورهم وينصرونهم فنحتوا على أسمائهم أحجاراً، وجعلوها قبلة عند توجيههم إلى هؤلاء، فخلف من بعدهم خلف، فلم يفتنوا للفرق بين الأصنام وبين من هي على صورته فظنوها معبودات بأعيانها^(١).

□ ويقول في موضع آخر:

(لقد كان المشركون يعتقدون) «بأنه لا شريك لله - تعالى - في خلق السموات والأرض، وما فيهما من الجواهر، ولا شريك له في تدبير الأمور العظام وأنه لا راد لحكمه ولا مانع لقضائه، إذا أبرم وجزم، وهو قوله - تعالى -: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾، وقوله تعالى: ﴿بل إياه تدعون﴾، وقوله - تعالى -: ﴿ضل من تدعون إلا إياه﴾، لكن كان من زندقته قولهم: «أن هنالك أشخاصاً من الملائكة والأرواح تدبر أهل الأرض فيما دون الأمور العظام من إصلاح حال العابد فيما يرجع إلى خويصة نفسه وأولاده وأمواله، وشبهوهم بحال الملوك بالنسبة إلى ملك الملوك، وبحال الشفعاء الندماء بالنسبة إلى السلطان المتصرف بالجبروت، ومنشأ ذلك ما نطقت به الشرائع من تفويض الأمور إلى الملائكة، واستجابة

(١) «حجة الله البالغة» (٥٩/١).

دعاء المقربين من الناس فظنوا ذلك تصرفاً منهم كتصرف الملوك قياساً للغائب على الشاهد، وهو الفساد^(١).

□ وهكذا توصل الإمام الدهلوي إلى جذور الأعمال والعقائد الشركية التي كان يخوض فيها العامة والخاصة الذين هم أشباه العامة، وكشف عن المغالطة التي جرّت كثيراً من الجهلة وأدعياء العلم إلى الوقوع في شرك هذه الأعمال والتقاليد وشعائر الشرك، والنذر والذبح لغير الله، والصيام بأسماء الأولياء والصالحين، ودعائهم والسؤال منهم والالتجاء إليهم، والخوف والرجاء منهم، والاستمداد والاستعانة بهم، وتعظيم قبورهم، وكل ما يمت إليهم بصلة كتعظيم بيت الله - تعالى - والحرم المحرم والالتزام بأدابه واعتقاد تصرفهم - ولو جزئياً - في الكون، وتأثيرهم في شقاء الإنسان وسعادته وصحته ومرضه، وسعته وإقتاره، وكانوا قد حرموا من العمل لقوله - تعالى -: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ وكرامة الإنابة والإحبات والتوكل على الله - تعالى - والانقطاع إليه، وإذا سمع الإنسان بعض أخبارهم وشاهد بعض أعمالهم تذكر الآية الكريمة: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

ولو لم تكن للإمام الدهلوي وأخلافه مآثرة غير هذا التجديد لعقيدة التوحيد وتنقيحها وتوضيحها ونشرها وترويجها، وإزالة ما علق بها من سوء فهم وتصورات خاطئة، لكفى ذلك في عده من المجددين في هذه الأمة، ولكن له مع ذلك أعمال ومآثر، سيأتي تفصيلها في الصفحات التالية^(٢).

(١) «حجة الله البالغة» (١/١٢٥).

(٢) «الإمام الدهلوي» (ص ١٢٥ - ١٢٩).

* قيام الدهلوي بنشر الحديث والسنة المشرفة، ونصره لمذهب أهل الحديث وتجريد العمل بالكتاب والسنة دون التقييد بمذهب معين:

لقد قام الإمام الدهلوي في شبه القارة الهندية وفي عهدها الأخير - حقيقة - (الذي يمتد من أواسط القرن الثاني عشر الهجري إلى هذا الحين) بمأثرة عظيمة، وهي القيام بنشر الحديث النبوي الشريف وترويضه وإحياء دروس الحديث والعناية بهذا الفن الجليل، ومؤلفاته في هذا الموضوع تمتاز بالدقة والاجتهاد والتحقيق، وتعتبر فضلاً مضيئاً مهماً في صحيفة تجديده وكتاب حياته والتي غلبت على فضائله ومجالاته العلمية وخدماته الدينية الأخرى حتى غدا «المحدث الدهلوي» جزءاً من اسمه، وعنواناً لتعريفه ووصفه، وجرى على السنة الناس وأقلامهم «الإمام ولي الله المحدث الدهلوي» وأصبح ذلك علمه المعرف الكامل.

يقول العلامة السيد رشيد رضا في فضل أهل الهند في نشر الحديث وعلومه:

«ولولا عناية إخواننا علماء الهند بعلوم الحديث في هذا العصر، لَقُضِيَ عليها بالزوال من أمصار الشرف، فقد ضعفت في مصر والشام والعراق والحجاز منذ القرن العاشر للهجرة، حتى بلغت منتهى الضعف في أوائل القرن الرابع عشر»^(١).

لقد نذر الإمام الدهلوي حياته وصلحياته لنشر الحديث والدعوة إليه، يقول في الصفحة الأولى من مقدمته «لحجة الله البالغة»:

«إن عمدة العلوم اليقينية ورأسها، ومبنى الفنون الدينية وأساسها هو علم الحديث الذي يذكر فيه ما صدر من أفضل المرسلين ﷺ وأصحابه أجمعين، من قول، أو فعل، أو تقرير، فهم مصابيح الدجى ومعالم الهدى،

(١) مقدمة «مفتاح كنوز السنة».

وبمنزلة البدر المنير، من انتقاد لها ووعى، فقد رشد واهتدى وأوتي الخير الكثير، ومن أعرض وتولى فقد غوى وهوى، وما زاد نفسه إلا التخسير، فإنه ﷺ نهى وأمر وأنذر وبشر وضرب الأمثال وذكر، وإنها لمثل القرآن أو أكثر»^(١).

□ ويقول في موضع من بعض كتاباته:

«إن أول شيء يوجب العقل على نفسه، هو تتبع أحوال النبي ﷺ وأقواله، ماذا قال فيما يتعلق بالأحكام الإلهية وكيف عمل بها، ثم يقتدي بهذه الأقوال والأحوال بالقلب والقالب، فإن حديثنا عن شخص قد سلم بأن الله - تعالى - قد كلف عباده بأحكامه، وقد عزم هو على أداء مسؤوليته الناشئة من هذا التكليف الشرعي»^(٢).

* نظرة على حال الهند في القرن العاشر الهجري وما بعده تعرفك قدر الدهلوي:

□ قال الشيخ أبو الحسن الندوي في «الجزء الثالث من «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»، وهو يتحدث عن كتاب «جواهر خمسة» لأحد المشائخ المعروفين في القرن العاشر الهجري، الشيخ محمد غوث الكوالياري، ما يلي:

«لقد كانت الهند لا تعرف شيئاً عن الصحاح الستة ومؤلفيها، وأئمة هذا الفن، الذين نقدوا علم الحديث ونخلوا وميزوا بين صحيحها وسقيمها وقاوموا البدع والمحدثات وأثبتوا أن حياة المسلمين يجب أن تقوم على أساس السنة المطهرة، وفي ضوء الأحاديث الصحيحة، ونسنتى من ذلك ولاية كجرات التي انتشر فيها علم الحديث لتزول العلماء العرب بها، وكثرة

(١) مقدمة «حجة الله البالغة» (ص ٢).

(٢) «كلمات طيبات» للدهلوي (ص ١٧٣).

الرحلات فيها إلى الحرمين الشريفين، ونبغ فيها العلامة على المتقى البرهان بوري وتلميذه النجيب المعروف العلامة محمد طاهر الفتى (في القرن العاشر الهجري).

ويمكن الاطلاع على هذا التأثير الذي خلفته الفلسفات، والتجارب المحلية في الهند على التصوف من خلال كتاب «جواهر خمسة» للشيخ محمد غوث الكوالياري الذي ذاع صيته في عصره، وحصل له القبول العظيم عند الناس، والكتاب يشتمل على أقوال الصوفية، وتجارب الشيخ الكوالياري الشخصية، ويخيل إلينا أنهم لم يروا حاجة إلى ثبوت هذه الأمور بالأحاديث الصحيحة، واقتباسها من كتب السيرة النبوية المعتبرة، فتجد في هذا الكتاب المذكور - آنفاً - «صلاة الأحزاب» و«صلاة العاشقين» و«صلاة تنوير القبر» والصلوات المخصوصة بالأشهر المختلفة والأدعية الخاصة بها التي لا أصل لها في السنة، ولا أثر لها في الحديث^(١).

ولم تكن هذه خصيصة «جواهر خمسة» فحسب، بل تتوفر أمثلة ذلك في مجاميع أقوال أمثال هؤلاء الصوفية غير المعتبرة، فقد كانت سجدة التحية للمشائخ شائعة، واتخذت القبور مساجد علناً وجهاراً، فكانت توقد عليها السراج، وتفرش عليها الأردنية، وتعظم أطرافها وحواليها كتعظيم الحرم، ويحتفل بها باسم «العرس» (الاحتفال الديني) وقراءة الفاتحة وتكثر فيها النساء، وكانت «الصلاة الغوثية» و«الصلاة المعكوسة» والنذر لغير الله - تعالى - باسم الأولياء الصالحاء والذبح لا ابتغاء مرضاتهم، والصوم باسم غير الله، وأمثال هذه من البدع الكثيرة (التي كانت تصل حدودها إلى الشرك) كانت شائعة في الناس يقبل عليها الخاصة منهم والعامه، وكانت تعقد احتفالات إحياء أيام الولادة والوفاة للأولياء والصالحين، ويحتفل بمهرجانات وأعياد.

(١) «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» (٢/١٨٨).

ولو لم تكن كتب الحديث في متناول أيدي العلماء المسلمين، ولم تيسر لهم هذه الوسيلة المعتبرة السهلة للتفريق والتمييز بين البدع والسنن، لما كانت هذه السلسلة من عهد شيخ الإسلام ابن تيمية (م ٧٢٨هـ) إلى عهد الإمام الدهلوي (م ١١٧٦هـ) للعلماء المصلحين والدعاة إلى الدين الخالص، ولم يظهر المصلحون والمجددون حملة راية التجديد والإصلاح وتصحيح العقائد، وإزالة التقاليد الجاهلية.

* العلامة علي بن سلطان بن محمد الهروي (م ١٠١٤هـ) المعروف بملاً علي القاري وردّه على بدع عصره وانصافه لشيخ الإسلام ابن تيمية:

□ يقول الشيخ الندوي:

«اقرأ تراجم علماء أفغانستان (كابل وهرات وغزني) في القرنين العاشر والحادي عشر، والتق نظرة على كتبهم ومؤلفاتهم، فلما تجد عليها مسحة الدفاع عن السنة والرد على البدعة والتحقيق والتنقيح في المسائل، وإذا بشخصية العلامة علي بن سلطان بن محمد الهروي (م ١٠١٤هـ) المعروف بملاً علي القاري، تظهر على الساحة، الذي سافر إلى الحجاز وقرأ على كبار أساتذتها ومحدثيها الأجلة كتب الحديث ونبغ فيها، وتتجلى هذه المسحة الظاهرة في شروحه لكتب الفقه والحديث وترجيحه للمسائل وردّه - بصراحة ووضوح - على بدع عصره ومحدثاته، وقد أدت به دراسته وبحثه وقوله بالحق وإنصافه إلى أنه دافع عن شيخ الإسلام ابن تيمية وشهد بأنه كان من أكابر أهل السنة والجماعة وأولياء الأمة»^(١) «^(٢).

(١) «الدهلوي» (ص ١٣٩).

(٢) «المرقاة شرح المشكاة لملاً علي القاري» (٢٧/٤).

* مآثرة الشيخ عبدالحق الدهلوي :

«ثم جاء الله سبحانه وتعالى بالشيخ عبدالحق بن سيف الدين البخاري الدهلوي المتوفى سنة ١٠٥٢هـ، وهو أول من أفاضه على سكان الهند، وتصدى للدرس والإفادة بدار الملك دهلي، وقصر همته على ذلك وصنفه وخرّج ونشر هذا العلم على ساق الجد، فنفخ الله به وبعلمه كثيراً من عباده المؤمنين، حتى قيل إنه أول من جاء بالحديث بالهند، وذلك غلط كما علمت .

ثم تصدى له ولده الشيخ نور الحق المتوفى سنة ١٠٧٣هـ وكذلك بعض تلامذته وأولاده كشيخ الإسلام شارح البخاري، وولده سلام الله صاحب «المحلي» و«الكمالين».

□ وقد أصاب البروفيسور خليق أحمد نظامي في قوله :

«وعلى كل فإن العهد الذي بدأ فيه الشيخ عبدالحق المحدث الدهلوي دروسه في الحديث الشريف، كان قد طوى - إذ ذاك - بساط هذا العلم الشريف في شمالي الهند، وأنه قد أشعل في هذا الوسط المظلم الضيق شمعة جذبت إليها الناس من أنحاء نائية بعيدة، فالتفوا حولها وتهافتوا عليها تهافت الفراش على التور وبدأ نشاط جديد، لدروس الحديث الشريف في شمالي الهند، وانتقل بذلك مركز العلوم الدينية لا سيما الحديث الشريف من كجرات إلى دلهي^(١) .

وعلى كل فإن الأوساط العلمية والدينية في الهند كانت في حاجة وانتظار لتلك الشخصية التي تكون صلتها بالحديث صلة الحب والغرام، والتي جعلت نشر الحديث الشريف وتعميمه أول أهدافها ومقاصدها في الحياة، لقد وجدت الهند هذه الشخصية في أواسط القرن الثاني عشر الهجري في

(١) «حياة الشيخ عبدالحق المحدث الدهلوي» لخليق أحمد نظامي (ص ٤٣).

شخص الإمام ولي الله الدهلوي الذي طبق بمعنى اللفظ هذا الشعر الفارسي الذي معناه:

«لقد نسينا كل ما قرأنا وتركناه إلا حديث الحبيب الذي لا نملُّ من تردادهِ وتكراره».

لقد كان الدافع الثاني للإمام الدهلوي إلى إحياء الحديث ونشره وترويجه في الهند، هو ذلك الوضع السائد في الهند الذي تقدم الحديث، لقد كان يغشى الأوساط الدينية حينذاك ضباب كثيف من البدع وتقاليد الجاهلية، وطقوس غير المسلمين وتقليدهم فيها والشعائر غير الإسلامية، التي كان من العسير من خلالها رؤية طلعة الإسلام البهية، وكانت تسود في الأوساط العلمية والدراسية تلك العلوم المستوردة من اليونان التي كانوا يسمونها «فنون الحكمة» والعلوم الآلية، وفنون البلاغة وعلم الكلام ولم يكن للعلوم الشرعية لاسيما علم الحديث الشريف نصيب لائق في هذه الأوساط العلمية والدراسية، وإذا صرف شيء من العناية إلى العلوم الشرعية فلم يكن الأمر يتعدى حدود الفقه وأصول الفقه ودقائقها وشق الشعرة فيهما، يقول الإمام الدهلوي - وهو يشاهد هذا الوضع - في أسف شديد وحزن بالغ:

«وأقول لطلبة العلم: أيها السفهاء المسمون أنفسكم بالعلماء اشتغلتم بعلوم اليونانيين وبالصرف والنحو والمعاني، وظننتم أن هذا هو العلم، إنما العلم آية محكمة من كتاب الله، أن تتعلموها بتفسير غريبها وسبب نزولها وتأويل معضلها، أو سنة قائمة من رسول الله ﷺ أن تحفظوا كيف صلى النبي ﷺ وكيف توضأ، وكيف كان يذهب لحاجته وكيف يصوم، وكيف يحج وكيف يجاهد، وكيف كان كلامه وحفظه للسانه، وكيف كانت أخلاقه، فاتبعوا هديه واعملوا بسنته على أنه هدي وسنة، ولا على أنه فرض ومكتوب عليكم، أو فريضة عادلة، أن تتعلموا ما هي أركان الوضوء وما هي

أركان الصلاة، وما نصاب الزكاة، وما قدر الواجب، وما سهام فرائض الميت، أما السير وما يرغب في الآخرة من حكايات الصحابة والتابعين فهو فضل، وأما ما اشتغلتم به وما يهتم به فليس من علوم الآخرة إنما هي من علوم الدنيا، خضتم كل الخوض في استحسانات الفقهاء من قبلكم وتفريعاتهم، أما تعرفون أن الحكم ما حكمه لله ورسوله، ورب إنسان منكم يبلغه حديث من أحاديث نبيكم فلا يعمل به، ويقول إنما عملي على مذهب فلان لا على الحديث، ثم تخيل بأن فهم الحديث والقضاء به من شأن الكمل المهرة، وأن الأئمة لم يكونوا ممن يخفى عليهم هذا الحديث، فما تركوه إلا لوجه ظهر لهم في الدين من نسخ أو مرجوحية.

اعلموا أنه ليس هذا من الدين في شيء إن آمتتم بنبيكم فاتبعوه، خالف مذهبنا أو وافقه، كان مرضى الحق أن تشتغلوا بكتاب الله وسنة رسوله ابتداءً، فإن سهل عليكم العمل بهما، فيها ونعمت، وإن قصرت أفهامكم فاستعينوا برأي من مضى من العلماء، ما تروه أحق وأصرح وأوفق بالسنة، وأن لا تشتغلوا بالعلوم الآلية إلا بأنها آلة لا بأنها أمور مستقلة، أما أوجب الله عليكم أن تشيعوا العلم حتى يظهر شعائر الإسلام في بلاد المسلمين، فلم تظهروا الشعائر وأمرتم الناس أن يشتغلوا بالزوائد، واستكثرتهم في أعينهم طلب الحق والدين، أما ترون البلاد العظام تخلو عن العلماء وإن كانوا فهم دون ظهور الشعائر^(١).

وإن حال الإمام الدهلوي عند اللهج بذكر الحديث من سرور ولذة غامرة، وحب وإجلال لائمة الحديث، يمكن أن ترى بعض نماذجه في رسالته التي كتبها إلى أحد مسترشديه في مناقب الإمام البخاري - رحمه الله -^(٢).

(١) «التفهيمات الإلهية» للدهلوي (١/٢١٤ - ٢١٥).

(٢) «كلمات طيبات» للدهلوي (ص ١٦٨ - ١٧١).

* نشاط الدهلوي في خدمة الحديث الشريف ونشره:

لما ذهب الإمام الدهلوي يودّع أستاذه الشيخ أبا طاهر المدني، أنشده

شيخه هذا البيت من الشعر:

نسيت كل طريق كنت أعرفه إلا طريقاً يؤدّيني لربعمكم

□ فقال الإمام الدهلوي كذلك: «نسيت كل ما قرأت سوى علم

الحديث الشريف».

وتشهد حياة الإمام الدهلوي كلها على أنه كان منصرفاً انصرافاً كلياً

إلى خدمة الحديث الشريف، شرحه وتفهمه، وتدرّسه وتعليمه، ونشره

وتعميمه، ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾.

وقد شمر عن ساق الجذ بعد عودته من الحجاز إلى الهند لخدمة الحديث

الشريف ونشره، ولم تلبث «مدرسته الرحيمية» أن أصبحت أكبر مؤسسة

تعليمية في طول الهند وعرضها وتهافت عليها طلاب علم الحديث من أنحاء

الهند وأصقاعها تهافت الفرائش على النور، وقد كان في هذه الإصقاع مثل

«السند»^(١) و«كشمير»^(٢) من المناطق البعيدة، أما دلهي ونواحيها وشمالى الهند

فلا تسأل عنه، وقد كان من المستفيدين من هذه الدروس سوى مسند الهندي

الشيخ عبدالعزيز الدهلوي (الذي كان ابنه الأكبر الفاضل والقائم بتكميل

(١) لقد ورد الشيخ محمد معين من السند إلى دلهي، ودرس الحديث على الإمام الدهلوي

واستفاد منه، وكتابه «دراسات اللبيب في الأسوة الحسنة بالحيب» معروف، يتجلى فيه

ذوق الإمام الدهلوي ومنهج بحثه وتحقيقه، توفي عام ١١٦١هـ (انظر «نزّهة الخواطر»

(ج٦).

(٢) كان الشيخ خواجه محمد أمين الكشميري من خواص تلامذة الإمام الدهلوي والحملة

الدعاة لمشربه وبحوثه وتحقيقاته، وهو معروف بمحمد أمين الولي اللهي، وقد كان الشيخ

عبدالعزیز أحد تلامذته وقد ألف الإمام الدهلوي بعض رسائله، انظر «نزّهة الخواطر»

(ج٦).

أعماله وجهوده وتوسيع نطاقها) مفخرة الهند العلامة السيد مرتضى البلكرامي المعروف بالزبيدي (١١٤٥ - ١٢٠٥هـ) صاحب «تاج العروس شرح القاموس» و«إنحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين» الذي دوى صيته تبحره في العلم وتحديثه في العالم العربي، وكان مجلسه بالقاهرة يضاهاه مجالس الملوك والسلاطين، وكان من خريجي هذه المدرسة يبهقي عصره القاضي الشيخ ثناء الله الباني بتي (م ١٢٢٥هـ) خليفة الشيخ الجليل ميرزا مظهر جان جانان، ومؤلف «التفسير المظهري» و«ما لا بد منه»^(١).

وهكذا أصبح علم الحديث في الهند - بعد قرون، ولعله لأول مرة - قد نفقت سوقه وقامت دولته، وأقبل عليه الناس إقبالاً عظيماً حتى ظلت الهند تباهي اليمن الميمون، وبدأت نفحاتها الرخية المنعشة تصل إلى أرض الحجاز نفسها^(٢).

□ وقد أنشد النواب العلامة السيد صديق حسن خان في ذكر الإمام الدهلوي وخدمته للحديث الشريف، ونشاطاته في القيام بنشره، بيتين من الشعر البليغ يصورانه تصويراً حقيقياً:

من زار بابك لم تبرح جوارحه تروي أحاديث ما أوليت من متن
فالعين عن قره، والكف عن صلة والقلب عن جابر والسمع عن حسن

ومن الطريف أن المنز التي ذكرتها هذه الجوارح وأشادت بها، والأسماء التي أشارت إليها في هذا الصدد، كلها أسماء رواة الحديث والشيوخ المحدثين، مثل قره بن خالد السدوسي، وصلة بن أشيم العدوي، وسيدنا

(١) «نزهة الخواطر» (ج٧).

(٢) وقد أقام الشيخ إسحاق الدهلوي والشيخ عبدلغني المجددي من خريجي هذه المدرسة وتلامذة الإمام الدهلوي حلقات دروس الحديث الشريف في الحرمين الشريفين، وانتفع بهم خلائق من العرب والعجم، انظر للتفصيل «نزهة الخواطر» (ج٧).

جابر بن عبدالله رضي الله عنه والحسن البصري - رحمهم الله جميعاً - .

* ومن مؤلفاته في علوم الحديث :

المصنفى «شرح موطأ الإمام مالك بالفارسية»، و«المسوى» (شرح الموطأ المختصر بالعربية)، و«شرح تراجم الأبواب لصحيح البخاري» و«الإرشاد إلى مهمات الإسناد» و«تراجم البخاري» و«الفضل المبين في المسلسل من حديث النبي الأمين» و«النوادر من حديث سيد الأوائل والأواخر» و«الأربعين» و«المسلسلات» .

وله في الاجتهاد والتقليد: «الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف» و«عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد» .

* مآثرة من مآثر الإمام الدهلوي :

لقد قام الإمام الدهلوي بالتوفيق بين الفقه والحديث، ثم محاولة الجمع والتأليف بين المذاهب الأربعة وهذه مآثرة من مآثر الإمام الدهلوي التجديدية وحلقة ذهبية رائعة في سلسلة خدمته للحديث الشريف وانتصاره للسنة السنية .

لقد كان الفقه والحديث في كثير من الأوساط العلمية والدراسية والتأليفية في العالم الإسلامي ينتقلان منذ عصر طويل في سلسلتين مواجهةيتين، وكان كل واحد منهما في محله (من حين ظهوره واشتداد ساعده) يقطع طريقه في غنى وانصراف عن الآخر، وكانا بعد هذا الفراق في كثير من الأحيان لا يجتمعان عند أي نقطة من النقاط، ولم يكن يبحث في الحديث في كثير من المذاهب الفقهية إلا إذا كانت مسألة فقهية تحتاج إلى تأييد من حديث، أو كانت لها حاجة إلى دفع اعتراض من اعتراضات علماء المذهب الفقهي الثاني، وتصريحهم بأن هذه المسألة مخالفة للحديث أو إذا

كانت القصد ترجيح مذهب على مذهب، وكانوا في دروس الصحاح الست إما أن يتأولوا تلك الأحاديث التي تخالف مذهبهم، أو يقدموا الأحاديث الأخرى من الكتب الأخرى التي تؤيد مذهبهم، وإذا كان هناك استدلال في واحد من كتب المذاهب الفقهية المعتبرة المهتمة بالأحاديث فإن العلماء الذين قاموا - ممن لهم اطلاع واسع على علوم الحديث، ويملكون ذوق المحدثين - بمحاولة تخريج هذه الأحاديث والكلام عليها كالمحدثين النقاد^(١)، فهذه المحاولة الطيبة كذلك كانت إحدى الطرق والوسائل لتأييد ذلك المذهب الفقهي والانتصار له، وإثبات أنه موافق للأحاديث، وخدمة علمية وتحقيقية لذلك المذهب، وهي تستحق الشكر والتقدير، ولكنها لم تكن محاولة لإعادة النظر في المسائل نفسها والتوفيق بين الفقه والحديث.

وقد تكونت للمذاهب الفقهية قوالب من حديد، كان من الممكن كسرهما^(٢)، ومن المستحيل مدها وبسطها، وكان أتباع كل مذهب قد اعتقدوا في أنفسهم أن صحة مذهبهم مائة في المائة، وهي الحقيقة الأصلية، وأما إمكان الخطأ البشري فمحتمل وقد عبر بعضهم عن هذه النظرية بهذه الألفاظ البليغة: «مذهبا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب»، وقد كان من نتيجة هذه الواجهة للنظر أن المذاهب الأربعة (الحنفي والمالكي، والشافعي، والحنبلي) التي أجمعت على قبولها الأمة، وسلم -

(١) كتاب العلامة الزيلعي «نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية».

(٢) أي أنه توجد أمثلة الانتقال من مذهب إلى مذهب من الحنفية إلى الشافعية أو العكس، أو اختيار مذهب العمل بالحديث في كل عصر، أما العدول عن بعض المسائل جزئياً مع البقاء في نطاق المذهب وحدوده واختيار مسألة أخرى من مذهب آخر، أو العمل بالحديث، فأمثلته قليلة جداً، وذلك لأن كثيراً من العلماء يرون «تجزئ التقليد» غير جائز، أي إذا عمل إنسان بمسألة من مذهب فقهي ثم عمل أخرى من مذهب فقهي آخر فإنه يخرج عن تقليد الأول، وذلك عندهم غير صحيح.

أصولياً - بين أهل الحق وأهل العلم من أول عهودها فيما يتعلق بها بأن الحق دائر فيها وأن أئمتها ومؤسسيها إنما هم أئمة الهدى وقادة الأمة وأن هذه المذاهب حق، يتسع بينها الخليج ويعمق، وينجر الخلاف بين أتباعها إلى التباغض، والبحث والنقاش بعض الأحيان إلى المخاصمة والمقاتلة، وكان أدهى من ذلك وأمر معاملتهم مع أولئك العلماء الذين يبدأون العمل بالحديث - كلياً أو جزئياً - في العبادات ومن أمثلة هؤلاء أحد علماء القرن الثاني عشر، العالم السلفي المحدث الشيخ محمد فاخر الإله آبادي (١١٢٠ - ١١٦٤هـ) الذي تعرض (حسب رواية بعض المؤلفين) لسخط العامة وغضبهم لسلفيته واتباعه للحديث^(١).

□ يقول الإمام الدهلوي في دعواته إلى تجريد العمل بالكتاب والسنة دون تقييد بمذهب معين:

«وترى العامة - لا سيما اليوم - في كل قطر يتقيدون بمذهب من مذاهب المتقدمين، ويرون خروج الإنسان من مذهب من قلدوه - ولو في مسألة - كالخروج من الملة. كأنه نبي بعث إليه، وافترض طاعته عليه. وكان أوائل الأمة قبل المائة الرابعة غير متقيدين بمذهب واحد»^(٢).

وقال أيضاً:

«بعد دراسة فاحصة لكتب المذاهب الأربعة وكتب أصول الفقه والأحاديث التي يتمسكون بها استقرّ في القلب بتوفيق من الله وهدايته طريقة الفقهاء المحدثين»^(٣).

رأى الشاه ولي الله الدهلوي أن الحق بين التفقه والظاهرية فقال:

- (١) نظر «نزّه الخواطر» ترجمة الشيخ فاخر الإله آبادي (ج٦).
- (٢) «التفهيمات الإلهية» للدهلوي (٥١/١) طبعة الهند.
- (٣) «جهود مخلص» (ص٥٢) عن كتابه «الجزء اللطيف» في الفارسية.

«... إني أقول لهؤلاء المسمين بالفقهاء الجامدين على التقليد: يبلغهم الحديث من أحاديث النبي ﷺ بإسناد صحيح، قد ذهب إليه جمع عظيم من الفقهاء المتقدمين، ولا يمنعهم إلا التقليد لمن لم يذهب إليه. ولهؤلاء الظاهرية المنكرين للفقهاء الذين هم طراز حملة العلم وأئمة أهل الدين أنهم جميعاً على سفاهة وسخافة وإلى ضلالة. وأن الحق أمر بين بين»^(١).

«وهذا هو عين مذاهب أهل الحديث»^(٢).

□ يقول الإمام الدهلوي في ترجيح مسلك المحدثين الفقهاء، واختياره مسلكه وطريقه في الحياة:

«وبعد ما طالعت كتب المذاهب الأربعة وأصولها، ونظرت في الأحاديث التي يتمسكون بها اعتزمت على طريق الفقهاء المحدثين بإشارة نور الغيب وإيحائه»^(٣).

□ يقول الإمام الدهلوي في كتابه «حجة الله البالغة»:

«إن التخريج على كلام الفقهاء وتبع لفظ الحديث لكل منهما أصل أصيل في الدين، ولم يزل المحققون من العلماء في كل عصر يأخذون بهما، فمنهم من يقل من ذا ويكثر من ذلك، ومنهم من يكثر من ذا ويقل من ذلك، فلا ينبغي أن يهمل أمر واحد منهما بالمرّة كما يفعله عامة الفريقين، وإنما الحق البحث أن يطابق أحدهما بالآخر وأن يجبر خلل كل بالآخر، وذلك قول الحسن البصري»^(٤).

(١) «التفهيمات» (١/٢٠٩).

(٢) «حركة الانطلاق الفكري وجهود الشاه ولي الله في التجديد لمحمد إسماعيل السلفي» (ص ٢٧٤).

(٣) «الجزء اللطيف في ترجمة العبد الضعيف» للدهلوي (ص ٤).

(٤) «حجة البالغة» (١/١٥٦).

□ ويقول في «وصاياها»:

«ينبغي في المسائل الفرعية اتباع أولئك العلماء المحدثين الذين يجمعون بين الفقه والحديث، ولا بد من عرض المسائل الفقهية على كلام الله - تعالى - وحديث رسول الله ﷺ».

ويزيد قائلاً: «ولا غنى للأمة في أي عصر من العصور، عن عرض المسائل الاجتهادية على الكتاب والسنة»^(١).

* الإمام الدهلوي والتوسط والاعتدال بين التقليد والاجتهاد:

إن من فضائل الإمام الدهلوي الموهوبة ومميزاته التجديدية التي خصه الله - تعالى - بها، هو ذلك المسلك المتزن المتوسط، وتلك النقطة المتوسطة التي اختارها بين الاجتهاد والتقليد، والتي هي دليل ساطع رائع على طبيعته السليمة المتزنة وذوقه الصحيح وواقعيته، فقد كان هناك فريق يكلف كل مسلم - سواء كان عامياً أو عالماً - بالعمل وفق الكتاب والسنة واستفادة الأحكام والمسائل الشرعية منهما مباشرة، ويحرم التقليد تحريماً مطلقاً، وهم إن كان كلامهم لا يصرح بهذا الموقف فإن منهجهم في العمل وكتاباتهم تؤدي - طبعاً - إلى هذه النتيجة، وقد كان في المتقدمين من هذا الفريق والمتحمسين لهذا الموقف العلامة ابن حزم، ولكن هذا الموقف غير عملي وغير واقعي، وإن تكليف كل مسلم بذلك تكليف بما لا يطاق.

وكان - في جانب آخر - فريق آخر يوجب على جميع المسلمين التقليد ويصف من يخلع ربقته من التقليد بهذه الأحكام الفقهية الشديدة كـ «الفاسق» و«الضال»، كما يصف الفريق الأول بذلك جماعة المقلدين والمتبعين لمذهب فقهي خاص، وكان هذا الفريق يتناسى أن التقليد إنما هو طريقة تنظيمية إدارية

(١) «الوصايا» (بالفارسية) (ص ٢ - ٣).

لصيانة العامة من الناس من اتباع النفس والهوى، والقول بالرأي، وحماية المجتمع المسلم من الفوضى والاضطراب ووسيلة لإيجاد الوحدة والنظام في الحياة الدينية العملية، وتيسير العمل بالأحكام الشرعية، ولكنهم جعلوا هذا العمل التنظيمي في منزلة العمل التشريعي، وألحوا عليه بشدة وتأكيد غليظ، نقله من كونه مذهباً فقهياً ومسألة اجتهادية فحسب إلى كونه نصاً ظاهراً، وعملاً قطعياً وأمرًا دينياً مستقلاً.

إن المنهج الذي اختاره الإمام الدهلوي وما عبر به عن ذلك، هو أقرب إلى روح الشريعة، وأكثر انسجاماً مع منهج القرن الأول وأوفق بالفطرة البشرية، وأمس بالحياة العملية.

* الدهلوي والحاجة إلى الاجتهاد في كل عصر:

يرى الإمام الدهلوي - مع الاعتراف بخصائص المذاهب الأربعة وميزاتها وخدمات الفقهاء المحدثين الجليلة وعلو منزلته والاعتراف بأن هذه الثروة الفقهية والحديثية ثروة عظيمة قيمة، يستفاد منها ويتنفع بها، وأن الاستغناء والإعراض عنها من أسباب الخسران والحرمان - أن الاجتهاد - مع شروطه وتحفظاته الضرورية - حاجة كل عصر، ومقتضى طبيعي للتطورات الحادثة في الحياة الإنسانية والمجتمع والمدنية وصلاحيّة النشوء والارتقاء، والحاجات البشرية، وتسلسل الحوادث والوقائع إثبات لسعة الشريعة الإسلامية، وأنها من الله الحكيم، وأنها تملك صلاحية قضاء جميع المتطلبات المشروعة للمجتمع البشري وهداية الناس وإرشادهم الأمر الذي لا بد من إثباته والتظاهر به في كل عصر وهو واجب من واجبات حملة الشريعة الأمانة، يقول الإمام الدهلوي في مقدمة «المصفى»:

«إن الاجتهاد فرض كفاية في كل عصر، وليس المراد بالاجتهاد هنا الاجتهاد المستقل كاجتهاد الإمام الشافعي - مثلاً - الذي لم يكن في الجرح

والتعديل والعربية وغيرها في حاجة إلى غيره، كما لم يكن تابعاً لأحد في درايته الاجتهادية (بجميع أنواعها وأقسامها) بل المراد الاجتهاد المنتسب، وهو عبارة عن معرفة الأحكام الشرعية بأدلتها التفصيلية، وتفريع المسائل وترتيبها على طريقة المجتهدين ولو كان ذلك بإرشاد من إمام من الأئمة.

والذي نقوله: أن الاجتهاد في عصرنا هذا واجب (وهي مسألة إجماعية بين العلماء المحققين) فوجهه أن المسائل كثيرة الوقوع ولا يمكن حصرها واستيعابها ولا بد من معرفة حكم الله - تعالى - فيها، والذي دخل في حيز التحرير والتدوين لا يكفي، والخلافات فيه كثيرة ولا يمكن حلها إلا بالرجوع إلى الدلائل، والروايات المنقولة للمسائل عن الأئمة في أكثرها انقطاع بحيث لا يثق بها القلب بطمأنينة، ولذلك فلا مناص من عرضها على قواعد الاجتهاد وأصوله والبحث فيها^(١).

* الإمام الدهلوي وعرضه للشريعة الإسلامية عرضاً مبرهنًا متسقًا والكشف عن مقاصد الحديث وأسراره في كتابه القيم:

إن كتاب «حجة الله البالغة» للإمام الدهلوي يعد من جلائل أعماله العظيمة ومآثره العلمية الكبرى، التي عرضت فيها الشريعة الإسلامية والدين الحنيف في صورة جامعة متناسقة مدعمة بالحجج والدلائل الناصعة القوية، وقدمت فيها أبواب الإيمان والعبادات والمعاملات والأخلاق والاجتماع والمدنية والسياسة والإحسان بترتيب وترابط ونظام، وفي تناسق واتزان، بحيث يخيل إليك كأنها لآلئ العقد المنظوم أو حلقات سلسلة مترابطة، مع توضيح الفروق بين الأصول والفروع والمقاصد والغايات والوسائل والآلات وبين الحقائق الدائمة المستقلة والأمور العارضة المؤقتة بحيث لا يغيب ذلك - لحظة - عن

(١) مقدمة «المصنف» بالفارسية (ص ١٢) - طبع المطبع الفارق - بدلهي.

الأنظار، وكثيراً ما يختلط الأمر بينهما في كثير من البحوث والمؤلفات بل هي علة قديمة شائعة في تلك الكتب والمؤلفات - بصفة خاصة - التي ألفت نتيجة رد فعل لتعسف أو مغالاة أو في فورة عاطفة وحماس، ويرجع السبب في هذا الترابط والتناسق - عدا ما وهب الإمام الدهلوي من اتزان وتوسط وسلامة فطرة - إلى دراسته العميقة الواسعة لعلم الحديث الشريف، وتلك الطبيعة الخاصة التي تتكون عن طريق الاشتغال والاهتمام بالسيرة النبوية والحديث النبوي أو عن طريق صحبة العلماء الربانيين وتربيتهم الذين تربوا في المدرسة النبوية وقطرت عليها رشحات من السيرة العطرة - على صاحبها الصلاة والسلام»^(١).

□ لله در تلميذ المدرسة القرآنية، وخريج معهد الحديث والسنة وترجمانها المبين حين يذكر دوافع تأليف هذا الكتاب:

«إن أدق الفنون الحديثية بأسرها عندي وأعمقها محتداً وأرفعها مناراً وأولى العلوم الشرعية عن آخرها فيما أرى، وأعلاها منزلة وأعظمها مقداراً، هو علم أسرار الدين الباحث عن حكم الأحكام وملياتها وأسرار خواص الأعمال ونكاتها... إذ به يصير الإنسان على بصيرة فيما جاء به الشرع»^(٢).

□ لقد عالج الإمام الدهلوي في «حجة الله البالغة» حكم الأحكام الدينية، ويتعرض لمصالحها وأسبابها وعللها وهو موضوع جد دقيق وخطير، «ولم يكن يستطيع أن يقوم بهذه المهمة الدقيقة الخطيرة إلا من يمسك بيده أصول الدين الحنيف والشريعة الإسلامية، ويكون عالماً بغاية نزول الشرائع الإلهية وبعثة الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلوات والتسليم - وقد تغلغلت في أحشائه روح الإيمان والاحتساب وجرت في عروقه ودمائه، وتكونت عقلية

(١) «الإمام الدهلوي» للندوي (ص ١٦٧).

(٢) «حجة الله البالغة» (ص ٣).

وتربيته العلمية في بيئة الكتاب والسنة والإيمان والاحتساب وفي ظلّاتها الفيحاء، ولقد كان الإمام الدهلوي - كما علمنا مما مضى في ترجمة حياته - أجدر شخصية وأقدرها على الكتابة في هذا الموضوع الدقيق الخطير^(١).

□ لقد كتب علماء قبل الدهلوي في هذا الصدد كالإمام الغزالي والخطابي وشيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام الذين تحتوي كتاباتهم ومؤلفاتهم في مختلف المواضيع على هذه المحتويات والارشادات، ولكن لم يدون قبل «حجة الله البالغة» للدهلوي كتاب في هذا الفن الدقيق، وهو بهذا يقدم خدمة جليلة للدين وحاجة ماسة من حاجات العصر.

□ يقول المحقق الفاضل الشيخ عبدالحق الحقاني في مقدمة ترجمته لـ «حجة الله البالغة» المسماة بـ «نعمة الله السابعة»:

إن الفن الذي ألف فيه هذا الكتاب، لم يؤلف فيه قبله شيء ولم يدون في مكان، فموضوع هذا الفن هو النظام التشريعي المحمدي من حيث المصلحة المفيدة وغايته أن يعلم الإنسان أن أحكام الله - تعالى - ورسوله ﷺ لا عسر فيها ولا ضيق، ولا تخالف الفطرة السليمة حتى يطمئن بها الإنسان، وينجذب إليها قلبه ثقة منه بأنها أحكام توافق الفطرة وتبني عليها، ولا يقع بتشكيك المشككين في الشبهات.

وحده: أنه العلم الذي تعرف به حكم الأصول الدينية والأحكام الشرعية ومبادئه جميع العلوم (المتعلقة بالحياة البشرية).

(١) «الإمام الدهلوي» للندوي ص (١٧٠).

* دفاع الإمام الدهلوي عن الخلافة، وعظيم منة الخلفاء الراشدين على

الأمّة في كتابه القيم «إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء» - وتميّز الكتاب وتفردّه :

إن الكتاب الذي يلي كتاب «حجة الله البالغة» في القيمة والأهمية، والذي هو مآثرة الإمام الدهلوي الفريدة هو كتاب «إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء» وإنه لكثير من خصائصه ومزاياه كتاب فريد في موضوعه، ويزخر هذا الكتاب كله بالنكات العلمية المثيرة والإشارات النادرة اللطيفة، وتتوفر فيه نماذج كثيرة تدل على تدبر الإمام الدهلوي الطويل وتفكيره العميق في كتاب الله - تعالى - وتجاوبه الموهوب معه وفهمه الغائص الدقيق، وسرعة البديهة والتفطن لمكونات الآيات وإشاراتها الدقيقة، وعمق الاستنباط ودقته ووفرة الذكاء وتوقد الذهن بحيث يتوصل به كل منصف سليم الفكر إلى أن هذا العلم ليس كسبياً وكتابياً صرفاً، وأن مؤلف هذا الكتاب ليس صنيع المناهج الدراسية المتداولة، وكتب التفسير وأصول الفقه وعلم الكلام الشائعة في عصره، يقتطف منها، ويجمع فتات فائدتها فحسب، بل إن علمه نابع من الموهبة الربانية والفيوض الإلهية الخاصة.

* الصلة بين «حجة الله البالغة» و«إزالة الخفاء» :

لقد كانت الحاجة بعد تأليف كتاب «حجة الله البالغة» الذي عرض فيه نظام الإسلام الجامع الشامل المتناسق بطريق يثبت علاقته بالحياة والمجتمع والمدنية، ويوضح أنه بدون تنفيذ الأحكام الإسلامية المتعلقة بالعقائد والعبادات والحياة الاجتماعية، لا يبقى أي أمل في قيام مجتمع صالح رشيد ومدنية صالحة وحياة اجتماعية متزنة عادلة، كانت الحاجة لبيان هذه المقاصد والأهداف وتكميلها والقيام بهذه المرحلة بطريقة علمية تحقيقية (تروي غليل الأذهان والطبائع العقلانية لعهد الثورة العقلية التي كان قد أظلم زمانها) إلى

الكتابة في خصائص النظام الاجتماعي في الإسلام وطبيعته، وأهدافه وغاياته ونطاق عمله، وعن «الخلافة» (الهيئة الإدارية العملية الدائمة، الصريحة المنصوصة لهذا النظام) بهذا البسط والتفصيل، والأدلة من العقل والنقل، وشواهد التاريخ، وفوق كل ذلك في ضوء الكتاب المبين والسنة الواضحة، وتفضيح الضلالات والظنون الخاطئة التي ظهرت في هذا الصدد منذ زمن قديم، والتي نشأت بناءً عليها فرقة جديدة^(١)، كانت قد أحدثت لسيطرة العناصر الإيرانية في عهد الإمام الدهلوي نفسه - بصفة خاصة - من الاضطراب الفكري والبلبلية العقلية ما تخطى حدود المعتقدات والأعمال إلى نظام الحكومة وسلطة المسلمين العليا في الهند، وجعلت مستقبل المسلمين في الهند في خطر تحوم حوله الشكوك والشبهات.

إن شأن هذه الفرقة (في نظر أولئك الذين يعرفون تاريخ مذهبها ومعتقداتها الأساسية وفهمها وتصورها للدين، والذين درسوا كتبها المعتبرة ومصادرها المعتمدة لدى أهلها دراسة مباشرة) ليس شأن خلاف في الاجتهاد والقياس، أو فرقة جانبية لا تخرج عن نطاق الشريعة الإسلامية، بل إنها تحمل إزاء التصور الصحيح للدين الذين يبنون أساسه على الكتاب والسنة وعظمة مكانة النبوة وعقيدة ختم النبوة، تفكيراً مستقلاً وتصوراً دينياً مقابلاً، ويمكن أن يقدر ذلك - إلى حد ما - من عقيدة «الإمامة» لدى الفرقة الاثني عشرية، التي تعتقد أن الإمامية نظيرة النبوة، بل تفضلها وتفوقها في جوانب كثيرة^(٢).

(١) المراد بها الفرقة الإمامية الإثنا عشرية الشيعية.

(٢) وقع لدينا أخيراً كتاب «الحكومة الإسلامية» لقائد الثورة الإيرانية روح الله الخميني الذي يعرف بأية الله العظمى الإمام الخميني، فقد جاء فيه ي (ص ٥٢) بعنوان «الولاية التكوينية» بعد التصريح بأن الائمة يملكون الخلافة التكوينية، وتخضع لحكمهم وسلطتهم جميع ذرات هذا الكون، ما يلي:

□ يقول الإمام الدهلوي وهو يبين الغرض الأساسي من هذا الكتاب وغايته الأولى:

«يقول الفقير ولي الله - عفا الله عنه - إن بدعة التشيع راجت في هذا العهد وانتشرت، وتأثرت طبائع العامة بشبهاتهم التي أوردوها تأثراً عميقاً، ونشأت في قلوب معظم أهل هذه المنطقة شكوك وشبهات كثيرة في موضوع ثبوت خلافة الخلفاء الراشدين»^(١).

لم يكن نظر الإمام الدهلوي إلى السطح الظاهر من هذه الفتنة التشكيكية المديرة، بل كان ينظر - ببصيرته الثاقبة - إلى أعماق تلك المؤامرة الخطيرة التي كانت ترسب في داخلها والتي كانت لتظهر نتائجها البعيدة الخطيرة (مثل خيبة الإسلام وإخفاقه في عهده الأول الزاهر، وأن صحبة النبي ﷺ لم تثمر ولم تفعل فعلها في تكوين مجتمع صالح فاضل يوثق به، ومن نتائج هذا النوع من التفكير والاعتقاد الطبيعية وجود عدم الثقة بصيانة القرآن الكريم، وبقائه على أصالته وصحته، عن طريق الصحابة الذين شهدوا نزوله وتلقوه عن النبي المعصوم ﷺ مباشرة، وذلك في خير القرون، وكذلك الاضطراب في صحة الأحاديث ونقل السنة النبوية، وجميع الأمور التي اتفق عليها المسلمون) ولذلك يقول الإمام الدهلوي:

«كل من يحاول هدم هذا الأصل (ثبوت الخلافة الراشدة وصحتها) وينكر هذا الأصل الأصيل من الدين إنما يحاول هدم جميع الشعب الدينية»^(٢).

= «وأن من ضروريات مذهبنا أن لائمتنا مقاماً لا يقربه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث، فإن الرسول الأعظم ﷺ والأئمة كانوا قبل هذا العالم أنواراً، فجعلهم الله بعرضه محدقين، وجعل لهم من المنزلة والزلقى ما لا يعلمه إلا الله. (الحكومة الإسلامية) طبع كتيبخانه بزرگ إسلامي - إيران.

ويزيد قائلاً:

«إن الخلفاء الراشدين هم الواسطة بين رسول الله وبين أمته في أخذ القرآن الكريم وتلقيه»^(١).

ثم يدرج الإمام الدهلوي في هذه الدائرة تلك الشعب والعلوم التي حصلت ثروتها للأئمة عن طريق الخلفاء الراشدين، كعلم الحديث وعلم الفقه والإجماع على المسائل المجتهد فيها، والقضاء على اختلاف الأمة وعلم الإحسان (الذي سمي - أخيراً - بعلم السلوك) وتوضيح الفرق بين مراتب علوم الحكمة والأخلاق الفاضلة والأخلاق المذمومة، وتدبير المنزل، وسياسة المدينة، كل هذه العلوم والفنون والشعب الدينية انتقلت إلى الأمة عن طريق الخلفاء الراشدين وبتعليمهم ومنهج عملهم، وتدين لهم الأمة كلها في ذلك»^(٢).

ولذلك كان من المناسب - جداً - أن يشرح - بعد تأليف «حجة الله البالغة» الذي هو تفسير علمي ونظري للإسلام - كيف طبقت هذه الأصول والتعاليم الإسلامية بعد عهد النبوة - مباشرة - في عالم الواقع بنجاح منقطع النظير، وكيف ظهرت في صورة عملية، وطبقت على الحياة بطريقة رائعة، وما هي الآثار التي ترتبت بها على المجتمع البشري، وكيف قضت على مدينتين عتيقتين جبارتين تملكان أزمة السلطة والسيطرة حتى اقتسما العالم المتمدن كله، ويرجع تاريخهما إلى قرون عريقة في القدم وكانتا تزدهران وتتقدمان تحت ظل الحكومات «الساسانية والرومية» وفي قيادتها وتؤثران على الحياة الإنسانية وتطبعانها بطابعهما، كيف انتهى دورهما، وذهبتا أدراج الرياح؟!^(٣).

(١) «إزالة الخفاء» (٤/٢). (٢) المصدر السابق (٦/٢).

(٣) انظر المصدر السابق (٥٤/٢)، (٥٩/٢ - ٦٣).

* دور الإمام الدهلوي القيادي في عهد احتضار الدولة المغولية:

في القرن الثاني عشر الهجري بلغت الهند من الانحطاط السياسي والإداري والخلقي وفساد النظام وملوك الطوائف والقلق والاضطراب ما يصح أن يعبر عنه بحالة احتضار للهند ونظامها، لقد أصبحت الدولة المغولية رمزاً للسلطة الطويلة القوية لأسرة مسلمة حاكمة، ولم تعد وراءها قوة مساندة ولا إدارة حازمة ولا همة عالية.

□ وكانت هناك ثلاث قوى مقاتلة ناشئة تتحكم لا في مصير الدولة المغولية فحسب، بل في مصير البلاد كلها، وهي المراهة، الشيخ، والجات (الزط).

المراهة:

وهي جماعة مسلحة نشأت في الجنوب «الدكن» وشنوا حرب عصابات ضد الحكومة الشرعية وعزموها على السيطرة على شمال الهند، ووصلوا إلى البنجاب، ورام كنكا ووصلوا إلى دلهي عاصمة البلاد في ٩ ذي الحجة عام ١١٧٣هـ وقاموا بالسلب والنهب.

وقد تأثر المسلمون والهنادك جميعاً بفوضى المراهة وغاراتهم، فكانت الغارات الوحشية على القرى، وأعمال النهب والسلب بقسوة وعنف، وقطع أيدي الناس وأرجلهم وأنفوسهم أمراً عادياً، وكانت النساء - بغض النظر عن دينهن وجنسيتهن - تتعرض لوحشيتهم ونزواتهم الشهوانية، وكانوا يتجاوزون في ذلك كل الحدود ويتظاهرون بأعمال وحشية بهيمية، وقد أبدى شاعر بنغال المعروف «كنكا رام» مثل هذه الانطباعات، وهو يعلق على غاراتهم وحملاتهم على بنغال.

وقد أبدى المؤلفون البرتغاليون حيرتهم وعجبهم على أفاعيل المراهة

التي يتندى لها جبين الحياء، وقد كان لسيطرة المراهة وسلطتهم آثار اقتصادية سيئة على الناس، وحسب تصريح الشيخ غلام علي آزاد البلكوامي: أنهم ينون - إلى حدود قدرتهم واستطاعتهم - أن يسدوا أبواب الرزق على الناس ويحكموا قبضتهم على جميع وسائل المعيشة، وكان المراهة يجنون من تلك المناطق البعيدة النائية التي كانت تحت حكمهم وسلطانهم ربع حاصلاتهم وغلاتهم.

ولم تقف غارات المراهة عند الحدود العسكرية واستغلال الجماهير، بل لقد كانت مؤسسة على إحياء الديانة الهندوكية وإقامة حضارتها من جديد، يقول ماونت رستوارت الفنستن (حاكم ولاية بمباي) في تاريخه للهند عن «شيواجي» القائد الأول لهذه الحركة:

«لقد اختمرت طبيعته وتربت على العصبية الهندوكية... ولأجل هذه الطبيعة المستحكمة فيه كان يكره المسلمين وتقاليدهم وطقوسهم كراهية شديدة، ويحب الهندوس ويرغب في رسومهم وتقاليدهم رغبة شديدة، وكان هذا الموقف منه يزداد - كل يوم - شدة، وقد وافقت هذه الطبيعة فيه تدبير الشئون الملكية حتى تصور بصورة الرهبان والمشايع الهنادك، وادعى كرامات الأولياء المؤلهين والطف الألهة المعبودين.

لقد حاول المراهة قبل المعركة الحاسمة في ساحة «باني بت» واستشعاراً منهم لدقة الأوضاع وخطورتها عن طريق النواب شجاع الدولة (الذي كان يحمل في قلبه شيئاً من التعاطف مع المراهة من قبل ذلك) أن توقع الهدنة مع الشاه الأبدالي، وما رد به شجاع الدولة - بناءً على هذه التجارب المتواصلة والحقائق المرة - عليهم يلقي ضوءاً كاشفاً على طبيعة المراهة القومية وتأثير فتوحهم وانتصاراتهم ونتائجها، لقد كان رد النواب شجاع الدولة أن قال:

«إن براهمة الدكن يسيطرون على الهند منذ مدة طويلة، وقد نزلت

على رؤسهم - بسبب شدة حرصهم وطمعهم وغدرهم ونكثهم للعهود - هذه البلية من الشاه الدراني، فكيف يصلح من هؤلاء الذين لا يراعون إلا ولا ذمة، ولا يحافظون على عرض ولا عافية، ويرون أن جميع الأشياء ملك لهم ولقومهم، وقد قلق الناس وضجروا على ما لقوا منهم حتى ألقوا - لحفظ أعراضهم ومكانتهم ورفاهية الخلق وأمنهم - على الشاه الأبدالي، ودعوه من بلاده، ورأوا حملاته ونكاياته أهون عليهم وأسهل من إيذات المراهة ونكاياتهم»^(١).

وأخيراً لقيت المراهة هزيمة نكراء بتاريخ ١٤ يناير عام ١٧٦١م الموافق ٦ جمادى الآخرة ١١٧٤هـ في ساحة باني بت على أيدي القوة الموحدة لجيوش أحمد شاه الأبدالي الأفغانية، وجنود النواب نجيب الدولة الروهيله وجيش النواب شجاع الدولة، وكما يقول أحد المؤرخين: «لقد طارت قوة المراهة في لمحة البصر كالكافور» وسنذكر عوامل مقدم أحمد شاه الأبدالي التي غيرت مجرى التاريخ في صدد ذكر مآثر الإمام الدهلوي القيادية.

السيخ:

لقد كانت السيخ فرقة دينية في بنجاب، وضع أساسها في القرن الخامس عشر المسيحي على أيدي «كرويانانك» (١٤٦٩ - ١٥٣٩م)، ودون قائدهم كروارجن كتابهم المقدس لديهم المسمى «كرنته»، ثم تحولوا إلى جماعة مسلحة مقاتلة على يد قائدهم «كوندراي» وبدأ قائدهم العسكري «هركوند» وهو في الأصل من كشمير في عمليات النهب والسلب وقطع الطريق في نطاق واسع، وكانت الدولة المغولية بعد وفاة الملك أورنگ زيب تسير - بسرعة - نحو السقوط والإنهيار، ونشبت حروب متواصلة بين أبنائه وأحفاده على عرش البلاد، أتاحت الفرصة للسيخ أن يضاعفوا قوتهم - علناً

(١) «تاريخ هندوستان» (٩/٥٠٣).

- فكان «بنده بيرايي» يعمل السيف في الألوف من المسلمين ويقتلهم بقسوة ووحشية ويدخل القرى وينهبها حتى وصل إلى قرب دهلي، وأغار في مايو عام ١٧١٠م على سرهند، وفتح أبوابها للقتل والنهب والسلب، وعامل سكان القرية - من دون تمييز بين صغير وكبير وقوي وضعيف - بظلم فظيع وقسوة رهيبية، وتوجه بهادر شاه إلى بنجاب، وهزمت الجيوش السلطانية بنده بيرايي، ولكنه لجأ إلى الجبال، ثم قام مستغلا الفوضى السياسية والحروب الأهلية بين الأسرة الملكية بعد جلوس فرخ سير على عرش البلاد بالعنف والإرهاب مرة ثانية، وأخيراً جئى به إلى دهلي عام ١٧١٦م وقتل هناك، ولم تكن له شخصية محترمة محببة لدى الشيخ أنفسهم، وقد أحدث تغييرات طفيفة في عقائد الديانة السيخية وعباداتها وأصبح الشيخ تحت قيادته قوة عسكرية، واستمر الحاكم المغولي معين الملك بينجاب (الذي يعرف بميرمنو) في عهد الملك فرخ سير، على سياسته التعزيرية، ولكن سقوط الدولة المغولية كان يسير بخطى حثيثة، وكانت قد ضعفت حكومة بنجاب وتضعضت نتيجة حملات أحمد شاه الأبدالي المتكررة، وسنحت الفرصة مرة ثانية لقيام الشيخ ونهوضهم، ولم ينجحوا - هذه المرة - في إخراج ابن أحمد شاه الأبدالي الأمير تيمور - الذي كان والي بنجاب حينئذ - والذي هدم «هرمندر» - أقدس معابدهم - وملا البركة المقدسة لديهم بالإنقاض والركام - فحسب، بل استولوا كذلك - مؤقتاً - على لاهور، وضربت باسم قائدهم «جسا سنغ كلال» العملة، إلا أنهم اضطروا للخروج من لاهور بمقدم المراهة إليها عام ١٧٥٨م تحت قيادة «ركهوبا» وتوجه أحمد شاه الأبدالي إلى بنجاب للمرة الخامسة، وبعد حرب «باني بت» التي قصمت ظهر المراهة فور ما غادر بنجاب إذا بالشيخ عادوا للثورة والخروج، واستعادوا مملكتهم المفقودة، وعاد أحمد شاه وهزم الشيخ في «لدهيانه» عام ١٧٦٢م هزيمة نكراء، ولكن الشيخ بعد مغادرته عام ١٧٦٣م أغاروا على سرهند، ودمروها وخربوها، واستولوا

على لاهور مرة أخرى وأعلنوا قيام حكومة «خالصة» ثم تفرق الشيخ بعد ذلك في مختلف الولايات وانقسموا إلى مختلف الفرق التي كانت تدعى «مسليين» ولم يكن هناك حاكم أعلى يحكمهم، ولم يبق لديهم أمر مشترك إلا دينهم، وبعد ثلاثين عاماً من هذه الأوضاع المضطربة علا في بنجاب نجم رنجيت سنغ الذي نظم هذه الفرق المختلفة في صورة دولة مستقلة ووجد صفوفهم.

لقد كان الشيخ يكون البغضاء والكراهية لا للحكومات المسلمة فحسب، بل لعامة المسلمين ووقفهم موقف الحرب والنضال ضد المسلمين وحولتهم - بصفة خاصة - في أواسط القرن الثاني عشر الهجري والثامن عشر الميلادي إلى قوة إرهابية مخيفة مزلزلة لسكان المدن الكبيرة الآمنة، وزيادة خطيرة في القوى الهدامة المثيرة للاضطرابات في الهند، وقد تعرضت المساجد والمقابر في عهد حكوماتهم - بصفة عامة - وفي عهد مهاراجه رنجيت سنغ - بصفة خاصة - لانتهاك حرمانها، ودوس كراماتها، ووضعت عراقيل في سبيل أداء العبادات، ونشأ ذلك الوضع الحالِك الذي عبر عنه الدكتور محمد إقبال في بيت من شعره، يقول فيه:

«لقد ذهبت «خالصة» بالسيف والقرآن، وقضت على المسلمين والإسلام في دولتها وسلطانها».

وقد رفع ضد الوضع المكفهر في منتصف القرن الثالث عشر الهجري - تقريباً - وفي الثلث الأول من القرن التاسع عشر المسيحي - الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (ش ١٢٤٦هـ الموافق ١٨٣٠م) والشيخ إسماعيل الشهيد (ش ١٢٤٦هـ - ١٨٣٠م) اللذين كانا خريجي مدرسة الإمام الدهلوي وتربياً على أيدي ابنه الأكبر الشيخ عبدالعزيز الدهلوي - رفعا لواء الجهاد ضد حكومة رنجيت سنغ العسكرية، وبدا بذلك مخططهما الواسع والعميق

ومهمتهما العظيمة التي قامت لتحرير الهند من السلطة الخارجية المستعمرة وتأسيس الحكومة الشرعية، وإصلاح المجتمع المسلم وإحياء الدين وإظهاره.

الجات (الزط):

لم تكن الجات فرقة منظمة كالمراهة، ولا فرقة دينية كالسيخ، ولكن ضعف الدولة المغولية أنشأ فيهم تنظيمًا يقوم على العنف والسلب، وأصبحوا قوة هدامة مثيرة للفتن والاضطرابات.

□ يقول البروفيسور خليق أحمد نظامي في كتابه «الرسائل السياسية للإمام الدهلوي»:

«لقد كان الجات يسكنون المنطقة الجنوبية لجنا من آكره إلى دلهي، وكانت حدودهم في الشرق إلى جنبل» وقد بلغت ثوراتهم في هذه المنطقة أن ضاقت بهم الحكومة المركزية ذرعًا، وحسب ما يقول «سركار»: لم يكن هناك مجال لقبول هذه الشوكة الشائكة في شوارع دلهي وآكره، وكانت المواصلات بين دلهي وآكره تسير بحيطه بالغة وحذر كبير، وكانت الجيوش التي تقصد دكن عن طريق أجمير، تمر بهذه المنطقة، ونهب الجات دلهي، وخرج سكان دلهي - خائفين فزعين - من بيوتهم، فكانوا يهيمون على وجوههم ويتيهون في الأزقة والسكك، كسفينة محطمة تكون تحت رحمة الأمواج الطاغية، وكان يُرى كل شخص كالمجنون يعدو فرعًا مضطربًا^(١).

□ ويقول الشيخ ذكاء الله في ذكر وقائع عام ١٧٦٥م:

«كان الجات متسلطين على قلعة آكره، وكانت للجات جولة وصوله على بعد ١٠٠ ميل من دلهي، وقد طرد راجه سورمل الذي كان ذكيًا فطنًا بارعًا في المنازلة، ماهرًا في القيادة والحكم - قائد المراهة من آكره، واستولى

(١) «الرسائل السياسية» للإمام الدهلوي لخليق أحمد نظامي (ص ١٧٧).

على ميوات، وبني أربع قلاع حصينة قوية، وبدأ يطلب من حكومة دلهي تلك الطلبات التي لا تبقى على اسم الدولة إطلاقاً، وقد هزم نجيب الدولة بحسن تدييره وحيلته وبمساعدة من البلوجيين، الجات، وقتل راجه سورمل في مناصلته لنجيب الدولة، ثم نجحت في ولاية الجات نزاعات وخصومات، وقتل اثنان من أبناء سورج مل، وخلفها الابن الثالث رنجيت سنغ وقد بلغ الجات في عهده أوج التقدم والازدهار، والمنطقة التي كانوا يحكمونها تقع في شمال غربها «ألور» وفي جنوب غربها «أكره»، وكان دخل هذه الدولة عشرين مليون روبية وكان لديهم جيش مكون من ستين ألف جندي^(١).

□ لقد أصبحت دلهي نتيجة حملات المراهة والسيخ والجات اليومية المتتابة عليها كشجرة مثمرة سائبة تحمل عليها الحشود الوحشية من الطيور الكاسرة وتجردها من الثمار والأوراق، وأمت الفتنة والقلقل من كل صوب مدينة دلهي.

* حملة نادر شاه:

عاد الإمام الدهلوي من الحجاز إلى دلهي عام ١١٤٥هـ ولم تمض على ذلك إلا خمس سنوات أن وقعت عام ١١٥١هـ الموافق ١٧٣٨م تلك الحملة النادرية التي ضعفت ما بقى من كيان الدولة المغولية، وخربت دلهي ومزقتها شر ممزق، وقد أثرت هذه الحملة في عقول الغيارى من سكان دلهي والأسر والبيوتات الكريمة وصدمت قلوبها صدمة عنيفة حتى بغضت إليهم الحياة، وسادهم الخجل والحياء إلى حد أنهم كانوا كأنهم يعدون العدة لقتلهم وانتحارهم، وقد ذكر الشيخ عبدالعزيز الدهلوي أنه بمناسبة هذه المقتلة الرهيبة العامة وضياع الأموال والأعراض كان أشرف دلهي قد قرروا وعزموا على

(١) «تاريخ هندوستان» باختصار (٣١٦/٩ - ٣١٨).

تنفيذ تقليد «جوهر»^(١) على طريقة الراجبوت القدماء، فذكرهم الوالد الكريم (الإمام الدهلوي) بحادث كربلاء، ومصائب سيدنا حسين رضي الله عنه ومنعهم من هذا القرار للانتحار، فاختاروا طريق الصبر والرضا بالقضاء رغم هذه المحن والبلايا التي تقشع منها الجلود وتشيب منها الولدان، ولا يتصور أشد منها وأفتك، وكفوا عن إرادة الانتحار وقتل أنفسهم.

* الدور القيادي للإمام الدهلوي:

لم يكن الإمام الدهلوي خلال العجاج المتراكم من هذه الحوادث والأزمات بل في أمطارها الغزيرة الهائلة جالساً تحت السماء منصرفاً إلى البحث والتأليف والتدريس والتصنيف بحيث لا تقلب نفحات الرياح العاتية أي ورقة من كتابه ولا تمحو قطرة من قطرات هذه المطر الغزير أي حرف من حروفه، فحسب بل كان يعمل - في جد ونشاط وحزم وجهاد - لتغيير هذه الأوضاع واستعادة السلطة الإسلامية في هذه البلاد، وإقامة مملكة قوية موطدة الأركان تشعر بمسئوليتها وتعترف بالواقع وتنفذ الأحكام الشرعية، وتحافظ على أعراض الناس وأموالهم وأنفسهم وتقضي على القوى الهدامة التي تعيث في الأرض فساداً، وتنشر الخير والرخاء، فقد كان يقوم في هذا الصدد بالدور القيادي الذي يمكن أن يقوم به أكبر سياسي بصير لا يمت إلى التأليف والتصنيف والبحث والتدريس بأي صلة.

وكان الدهلوي لحميته وعلو همته وبعده نظره كما قال الدكتور محمد

إقبال عنه:

«رغم العواصف الهوجاء يُشعل ذلك الرجل البطل الذي وهبه الله -

(١) كان أشرف راجبوت عند ما يحاط بهم من كل جانب، ولا تبقى أي إمكانية لحياة الشرف يقدمون على قتل أهلهم وعيالهم، ثم يقفزون بأنفسهم في النار ويحترقون.

تعالى - عزة الملوك وإباء السلاطين، سراجہ المنير».

□ لقد بكى قلب الدهلوي الخزين المتقطع المرفف الحس دموعاً من دماء، وقطرت من قلمه السيل هذه القطرات من الدماء على صفحات تلك الرسائل التي كتبها إلى معاصريه من الملوك وأعيان الدولة ووجهائها، وقد جمعت هذه الرسائل باسم «الرسائل السياسية للإمام الدهلوي».

□ يكتب إلى ملك معاصر يشكو فيها صولة سورج مل وشوكته وغربة الإسلام ويؤسه:

«ومن بعد ذلك ظهرت شوكة سورج مل وقيت، فقد استولى سورج من على مسافة ٦ أميال من دلهي إلى أواخر حدود «آكره» طولاً، ومن حدود ميوات إلى «فيروز آباد» وشكوه آباد عرضاً، فلا يقدر أحد أن يؤذن هناك ويقيم الصلاة»^(١).

□ ويذكر في هذه الرسالة خراب مدينة «بيانه» التي كانت عامرة مخصبة، فيقول:

«لقد أخرج المسلمون - كرهاً وقسراً وبإهانة وإذلال - من مدينة «بيانه» التي كانت مدينة إسلامية قديمة، لم يزل يسكنها العلماء والمشايخ من سبعة قرون»^(٢).

□ ويذكر فقر الموظفين الرسميين وسوء حالهم وقد تجاوز عددهم مائة ألف، فيقول:

«لما انتهت خزانة الملك، توقف النقود أيضاً، حتى تفرق الموظفون شذر مذر، وبدأوا يتكفون ويستجدون، ولم يبق للدولة إلا الاسم»^(٣).

(١) «الرسائل السياسية» للإمام الدهلوي (ص ١٥).

(٢) المصدر السابق (ص ٩).

(٣) المصدر السابق (ص ١١).

□ وقد صدرت من قلمه - وهو يذكر وضع عامة المسلمين - هذه الكلمة المؤثرة المشجعة:

«وبالجملة فإن جماعة المسلمين تستحق العطف والرحمة»^(١).

□ ويقول في رسالة كتبها إلى النواب نجيب الدولة:

«لقد لقي المسلمون - سواء كانوا سكان دلهي أو أي مكان آخر - صدمات عديدة، ووقعوا - مراراً - فريسة السلب والنهب، لقد بلغ السكين العظم، إنه لمقام الرحمة والعطف»^(٢).

ويتنبأ الإمام الدهلوي - نظراً إلى الحقائق والوقائع والأسباب القوية المؤثرة - بالنتائج الحاسمة ووقائع المستقبل القريب بما لا دخل فيه للقياس والذكاء بل هو نتيجة الدراسة والواقعية غير المحايدة.

«فلو بقي غلب الكفر وظهوره على هذا الوضع فيخشى على المسلمين أن يتناسوا الإسلام، ولا تمضي إلا أيام وسوى حتى يظل الشعب المسلم شعباً لا يقدر على التمييز بين الإسلام وغير الإسلام».

□ كتب الدهلوي إلى أحد ملوك المغول من معاصرة رسالة نصحه فيها بإصلاح الحال، وتقوية الدولة، واسترعاء - رحمه الله تعالى - ونصره وتأييده إليه وضمنها توجيهات ونصائح حكيمة عالية تقوم على أساس الحكمة العالية والبصيرة النافذة في الدين، والدراسة العميقة الواسعة للتاريخ والسياسة ونظم الدولة، لقد قال في بدايتها: «أرجو من فضل الله تعالى ورحمته أنه إذا صح العمل وتحقق بموجب هذه الكلمات فسوف تظهر القوة والحزم في شئون الدولة وبقاء الحكومة وتعلو الكلمة يقول الشاعر ما معناه:

(١) الصدر السابق (ص ١١).

(٢) «الرسالة السابعة إلى نجيب الدولة» (ص ٢٢ - ٢٣).

«لقد وضعوني كالبيغاء وراء المرأة، فلا أقول إلا ما لقتني المعلم الأزلي (الأبدي)»^(١).

وقد أشار في آخر هذه الرسالة - التي أرسلها إلى الملك المعاصر وأمراءه ووزرائه - بعد تقديم توجيهات ناصحة حكيمة، سياسية وإدارية لا يمكن أن تقوم الدولة بغيرها، ولا تعود الرفاهية إلى الناس وتستحكم الثقة فيما بينهم - بأن يولى على الحسبة والقضاء أولئك العلماء الذين لم يتهموا برشوة، ويكونون من أهل السنة والجماعة، وأن تعطى لأئمة المساجد رواتب محترمة، ويؤكد على أداء الصلوات بالجماعة، ويعلن - باهتمام بالغ - أن لا يتتهك أحد حرمة شهر رمضان، وأخيراً أن لا ينهمك «ملك الإسلام» والأمراء العظام» في العيشة الباذخة المحرمة، ويتوبوا مما سلف منهم من الذنوب توبة نصوحاً، ويتوقوا من الذنوب في الحياة المقبلة، فلو عمل بذلك فإني آمل بقاء الدولة، وتأييد الله تعالى ونصرته، «وما توفيتني إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب»^(٢).

وهكذا قام الإمام الدهلوي بأداء واجبه ومسئولته التي كان يجب على العالم الجليل بالدين وشارح الكتاب والسنة، ومصلح عصره ومجدده أن يقوم بأدائها، وهكذا يفعل من يعرف مسئولياته وواجباته، ويطلع على تلك الأخطار المحدقة التي كانت كالسيف المصلت ليس على رؤوس الأسرة الحاكمة فحسب، بل على رؤوس جميع سكان البلاد ولم تكن للإمام الدهلوي في اتباعه لسلفه الأكرمين وحسب منهج العلماء الربانيين علاقات وصلات مباشرة بالبلاط والدولة، بل كان متبواً على حصر الفقر الغني، ولكن قلبه كان مشغولاً - كالشيخ نظام الدين البداوني الدهلوي، وخلفه

(١) «الرسائل السياسية» للإمام الدهلوي، رسالة رقم (١).

(٢) المصدر السابق (ص ٨٠ - ٨١).

السيد نصير الدين الدهلوي - بالدعاء للحكومة وهدايتها وصلاحتها ولم يكن يضمن على من يتصل بمركزه العلمي والروحي بالتوجيهات الناصحة مشافهة وكتابة، ويكتب إلى ملك: «تعرض للخليفة مشاكل طريفة غريبة، من قبل أعداء الدين وأتباعه أيضاً فلا علاج لهذه المشاكل إلا العلاج الواحد، وهو أن تجعل مرضاة الله - تعالى - نصب عينيك، وتستعين به، وتصرف النظر عمّن سواه»^(١).

لقد أرسل الدهلوي الأمراء وقادة الجيوش والأبطال الطامحين الذين أحسن في داخلهم بجمرة الحمية الدينية إلا أن اختيار الإمام الدهلوي - الذي كان يرافقه الإلهام الرباني والفراسة الإيمانية - وقع منهم على شخصيتين عظيمتين في ذلك العهد، كان أحدهما في داخل الهند، والآخر في خارجها، أعني بذلك الأمراء النواب نجيب الدولة وأحمد شاه الأبدالي حاكم أفغانستان إذا ذاك.

* النواب نجيب الدولة :

ويقول الشيخ ذكاء الله في «تاريخ الهند»: لقد كان نجيب الدولة عاقلاً ذكياً فطناً حكيماً، قلّ من يكون مثله، فقد انتهت إليه في عهده الأمانة والديانة، فكان لا يكف عن طاعة أسياده القدماء النواب دوندي خان روهيله، والنواب شجاع الدولة، وبالجملة فقد كان هذا الرجل الشجاع يداري - بطريقة أو أخرى - هذه الدولة المحطمة المكسرة»^(٢).

ويقول الشيخ عبدالعزيز الدهلوي: «كان لدى نجيب الدولة تسعمائة عالم، يتقاضى أداهاهم منزلة خمس روبيات وأعلاهم ٥٠٠ روبية شهرياً»^(٣).

(١) المصدر السابق (ص ١٣٦ - ١٣٧).

(٢) «تاريخ هندوستان» (٩/٣١٥).

(٣) «مجموعات الكلمات» للشيخ عبدالعزيز الدهلوي (ص ٨١).

وكان هو - حسب تصريح البروفيسور خليق أحمد نظامي - أكبر شخصية في دلهي في الفترة ما بين ١٧٦١م - ١٧٧٠م، فكان هو القطب الذي تدور حوله رحى السياسة كلها، وكان يتحمل عاتقه أعباء إدارة الحكومة كلها^(١).

لقد اختار الإمام الدهلوي - الذي وهبه الله تعالى - ملكة خاصة لمعرفة الرجال والاعتراف بالواقع والتي لا تعطي إلا لأولئك الرجال الذين يقومون في تاريخ الإصلاح والتجديد وصناعة الرجال وتربية الأفراد بأعمال جليلة بارزة، لتحقيق آماله وتكميل مهمته في هذا العهد من أزمة الرجال وندرة الأفراد، النواب نجيب الدولة وقد تفرس بعد نظره ودقته ما أودع الله تعالى من جوهر صالح وحمية دينية، فبدأ الإمام الدهلوي مراسلته، وحاول إشعال تلك الجمرات الكامنة تحت الرماد، يقول في رسالة إليه: «ندعو الله تعالى أن يشرف أمير المجاهدين بالنصر الظاهر والتأييد المبين ويبلغ هذا العمل إلى منزلة القبول وينزل عليه بركات ورحمات كبيرة».

ليبلغ من الفقير ولي الله - عفا الله عنه - بعد التسليمات العطرة بالمحبة أننا نشغل هنا بالدعاء لنصرة المسلمين، وتلوح لنا من الغيب آثار القبول، ونأمل أن الله تعالى سيحيي على أيديكم الجهد والجهاد الديني ويعطي بركاته وثماره في الدنيا والآخرة، إنه قريب مجيب^(٢). ويدعوه في رسالة أخرى بـ «أمير الغزاة ورئيس المجاهدين»^(٣)، ويقول في رسالة أخرى: «يخيل إلينا أن عمل تأييد الملة الإسلامية ونصرة الأمة المحرومة في هذا العصر سوف يتحقق على أيديكم الذي هو مصدر هذه الأعمال الخيرة ووسيلتها.

(١) «الرسائل السياسية» (ص ٢٣٢).

(٢) المصدر السابق (ص ١٩).

(٣) المصدر السابق (ص ٢٠).

□ وكتب إليه ناصحاً:

«عندما تمر الجيوش الملكية بدلهى فليراع بدقة نظام أن لا تداس كرامة هذه المدينة بالظلم والعدوان كما سبق من قبل، لقد شهد أهل دلهى - مراراً - حوادث النهب والسلب وانتهاك الحرمات والأعراض، وهذا هو سبب التأجيل في تحقق المقاصد والأهداف؛ فإن أنة المظلوم لا تذهب هكذا سدى، فإذا كنتم تريدون هذه المرة أن يتحقق لكم ما لم يتحقق بعد، فليؤكد تأكيداً بالغاً ولبلتزم التزاماً قوياً بأن لا يتعرض أي جندي للمسلمين في دلهى وغير المسلمين أيضاً، الذين يدعون أهل الذمة»^(١).

وبلغت الإمام الدهلوي الأنظار - مرة بعد مرة - في عدد من رسائله إلى حماية البلاد من خطر هذه القوى المقاتلة الهدامة الثلاث - التي مضى ذكرها - وحفظها من أضرارها وعدوانهم، إذ بدون ذلك لا تقوم للنظام والإدارة في البلاد قائمة، ولا يسود الأمن والسلام ولا تبقى الشعائر الدينية ومساجد المسلمين آمنة مصونة، ولا أمل في عيشة عادية متزنة، فقد أصبحت البلاد كلها بسبب هذه القوى العائنة في الأرض الفساد تعيش حالة حرب دائمة، وفي صورة جبهة عسكرية مستقلة^(٢).

وقد اتخذ الإمام الدهلوي النواب نجيب الدولة نفسه واسطة خاصة لدعوة أحمد شاه الأبدالي إلى الهند، وأمره بالكتابة إليه عدا مراسلاته معه مباشرة.

* أحمد شاه الأبدالي والي قندهار بطل أفغاني (١١٣٦ - ١١٨٦هـ):

لقد كان - رحمه الله - من أولئك القادة العسكريين الممتازين في القرن

(١) «الرسائل السياسية» (ص ٢١).

(٢) المصدر السابق (ص ٢١ - ٢٢).

الثاني عشر الهجري الذين لا يولدون إلا بعد آمام وأحقاب طويلة، ويؤسسون دولاً وحكومات مستقلة أنه جمع شمل الأفغانيين المتفرقين بتوفيق ونجاح، ونفذ القوانين العادلة، وأقام الحسبة، وكان يجمع بين صفات الفروسية والأخلاق الفاضلة وشرف النفس وكرم الأصل، يتذوق العلم والأدب ويعني بهما، وكان مجيئاً أنيساً في قومه، متديناً متقيداً بالفرائض والآداب الدينية، يحب مجالسة العلماء والصالحين ويتأدب مع الأشراف والمشايخ ويكرمهم، ويرغب - دائماً - في زيادة معلوماته وتبادل الآراء في الأمور العلمية.

وكان رقيق القلب رحيماً سخياً كريماً، يتمسك بأصول المساواة والمسامحة الدينية، وقد أحيا بعض السنن التي كان التكلم بها في البيئة الأفغانية - إذا ذاك - من الصعوبة بمكان، مثل الزواج بالأيامي، وقد كان هو نفسه مثقفاً وكاتباً قديراً، وكان يهتم بتقدمه الروحي ويتمنى ذلك، يقول فيرير: «لقد كان أحمد شاه بريئاً من كثير من السيئات ومواضع الضعف الشرقية، فكان يتجنب - كلياً - شرب الخمر وتناول الأفيون، نزيهاً سامياً على أفاعيل النهامة والنفاق، ملتزماً بالدين أيما التزام، وكانت عاداته وأخلاقه الساذجة ولكن المتزنة الرزينة تحببه إلى كل شخص، كان الوصول إليه سهلاً ميسوراً، فقد كان يراعي العدل والنصفة، ولم يشك أحد قط في حكمه وقضائه.

□ قال عنه الإمام الدهلوي: «الذي يخيل إليّ هو أن أحمد شاه الدراني سوف يعود إلى هذه البلاد ويقلب هؤلاء الكفار ظهراً لبطن ويجعل عاليهم سافلهم، وإنه رغم جوره وطغيانه قد - حفظه الله تعالى - لأجل هذه المهمة»^(١).

(١) المصدر السابق (ص ٢٦ - ٢٧).

كان الإمام الدهلوي يريد من أحمد شاه الأبدالي أداء دوره في صيانة هذه البلاد من هذه الأوضاع القلقة والفوضى العامة، وأن يتعهد بالدولة إلى شخص كفاء صالح - إلى حد ما - من أفراد الأسرة الحاكمة، وكان الإمام الدهلوي قد تنبأ قبل مقدمه بأنه لا يلبث هنا بل يولى أمر الدولة لأحد الزفراد من أولاد الملوك^(١).

وأخيراً طلب الإمام الدهلوي من نجيب الدولة كتابة الرسائل بهذا الصدد إلى أحمد شاه الأبدالي، ثم كتب إليه - مباشرة - رسالة مؤثرة بليغة تكشف عن بصيرة الإمام الدهلوي السياسية وحميته الدينية وجراءته الخلقية^(٢).

وقد ذكر في هذه الرسالة الأوضاع الراهنة في البلاد وأساليب حكمها القديمة وإدارة مختلف الولايات ونظمها المختلفة وعدد الفرق الدينية والسلالية المختلفة في البلاد، ونسبة قواها، وأخطاء الملوك السياسية وقصر نظرهم فيما يتعلق بهم، واستحكامهم وتبؤهم مكانة القوة والسلطة - بصفة تدريجية، وذكر المرهنة والجات في هذا الصدد - بصفة خاصة - وصور غربة الإسلام وبؤس المسلمين بتأثير حملاتهم المتكررة صورة مشجية مذيبة للقلوب، وحرص هذه القائد المسلم - الذي كان يملك في ذلك العهد من الهند إلى إيران - أكبر قوة عسكرية منظمة على مقاومة هذه الأوضاع وتثبيت دعائم الدولة المغولية وتوطيد أركانها، وتحمل مسؤولية البلاد على عاتقها من جديد، وصارحه بقوله: «إنه لا يوجد - في هذا العهد - ملك يملك من القوة والشوكة ما يستطيع أن يهزم بها جيوش الأعداء، مع بعد النظر والحنكة العسكرية إلا سيادتكم»^(٣).

(١) «الرسائل السياسية» (ص ٣٠).

(٢) «الرسائل السياسية» (ص ٦ - ١٧).

(٣) المصدر السابق (ص ١٢).

□ ويزيد قائلاً: «نسال بالله تعالى أن تصرفوا همتكم المباركة العالية إلى هذه الجهة، وتقاوموا الأعداء حتى يكتب لكم عند الله تعالى في صحيفتكم ثواب عظيم، ويسجل اسمكم على صفحة المجاهدين في سبيل الله، وتنالكم في الدنيا مغانم كثيرة لا تحصى، ويتخلص المسلمون من مخالط الكفار وقبضتهم»^(١).

وقد عرض الإمام الدهلوي في هذه الرسالة - نفسها - ببصيرته السياسية واطلاعه العميق على الظروف والأوضاع، عن هذه القوى الناشئة البارزة التي كانت لها - الفقدان أي: قوة منظمة مجابهة - هيبتها ورعبها في النفوس، وكان يعتقد أن لا قدرة لأحد على هزيمتها، تقديراً صحيحاً دقيقاً لا يقدمه إلا قائد محنك أو سياسي بارع، يقول عنه المرهته: «إن الهزيمة المرهته هيئة سهلة، شريطة أن يشمر غزاة الإسلام عن ساق الجد والجهاد، والواقع أن عنصر المرهته قليل العدد، ولكن جمعاً كبيراً يساندهم ويحالفهم، فلو فرق صف واحد من صفوفهم لتبددت هذه الجماعة وتفرقت وأصيبت بالهزيمة والضعف والفتور، وبما أن هؤلاء القوم ليسوا أصحاب قوة وشوكة، لذلك فإنه ينحصر كل مهارتهم في جمع العدد الكبير والجيش الكثير الذي يكون أكثر من النمل والجراد، أما البطولة والشجاعة وكثرة وسائل الحرب فليست فيهم»^(٢). إن هذه الرسائل التي كتبها النواب نجيب الدولة - بتوجيه من الإمام الدهلوي إلى أحمد شاه الأبدالي، ثم الرسالة المؤثرة البليغة المفضلة التي كتبها الإمام نفسه إليه، وقد تقدمت بعض مقتطفاتها لم تذهب سدى، فقد توجه أحمد شاه الأبدالي عام ١١٧٣هـ - الموافق ١٧٥٩م لكسر شوكة المرهته وتحطيم قوتهم ومساعدة نجيب الدولة وشجاع الدولة - الذين كانا قد أثبتا

(١) المصدر السابق (ص ١٢).

(٢) «الرسائل السياسية» (ص ٨٦).

وعيهما السياسي ووحدهما الإسلامية إلى الهند، ومضى عام كامل في الحروب والاشتباكات الجانبية، وأخيراً وقعت بين المرهته وبين الأفغانيين والجبهة الإسلامية الهندية الموحدة عام ١١٧٤هـ الموافق ١٤ يناير عام ١٧٦١م تلك المعركة الحاسمة التي غيرت في الهند مجرى التاريخ، وأخرجت المرهته من الخريطة السياسية الناشئة في الهند.

ونورد فيما يلي قصة هذه الحرب ونتيجتها بإيجاز حسبما يحكيها الشيخ ذكاء الله في كتابه «تاريخ الهند»^(١)، يقول:

«لقد حمى الوطيس واشتد لظى الحرب إلا أن كفة المرهته كانت راجحة، فأصدر أحمد شاه أمره للجنود الفارين من الزحف أن يحاصروا ويقتلوا، وأعلن أن من حاول الفرار يقتل فوراً، ثم أمر جيشه بالتقدم وأمر فرقة عسكرية أن تحمل من جهة يساره على العدو، وقد أصاب سهم هذه التدبير نقتله، وقد كان بهاءؤ، وبسواس راؤ في قلب الجيش راكبين يحرضان الجنود المرهته على القتال، وكانت الحرب بالخنجر والرماح، وإذا به وقع ما الله يعلمه فتزلزلت أقدام الجنود المرهته، وذهبت ريحهم وما أن تزلزلت أقدامهم حتى امتلأت ساحة الحرب بالخشث والأشلاء، فتعقبهم الجيش الإسلامي وتبعهم - بحماس واندفاع - في كل جهة وجانب إلى خمسة عشر وعشرين ميلاً، وأثنخهم بالجراح، وأسقطهم أكواماً من الصرعى والقتلى، ومن بقى من المرهته من أيدي هؤلاء الأعداء فقد قتلهم البدو الرعاع، وقتل «بسواس راؤ»، و«بهاءؤ» وكان قد أخفى بعض الدرّانيين «جي كوجي سنديها» وستر عليه، ولكنه أخذ بعد بحث وتفتيش وقتل، وأسر إبراهيم خان كاردي^(٢) ولقى حتفه بعد أسبوع، وقتل شمشير بهادر وهو يحاول الفرار،

(١) «تاريخ الهند» للشيخ ذكاء الله (٣٠٥/٩ - ٣٠٩).

(٢) كان رئيس المدفعية في جيش مرهته وكان رغم إسلامه وخيالهم، بقى بجوارهم إلى آخر لحظة، عليه من الله ما يستحقه.

وفر ملهراؤ في «مالوه» بنفسه، ووصل أبا جي سندهيا إليه كذلك وهو أعرج، ولم يبق أحد من القادة المعروفين سوى هذين القائدين، ولم تلحق المرهته مثل هذه الهزيمة الساحقة من قبل، ولا نزلت مثل هذه النازلة قط، وقد أحدثت هذه المصيبة يأساً في النفوس، فسقطت الهمم وبردت القلوب، ومات بالاجي لهذه الصدمة الشديدة بعد أيام، وكان من يوم أن سمع نبأ الهزيمة اعتكف في أحد المعابد يدرس اللغة السنسكريتية^(١).

وحسب تصريح أحد المؤرخين: «لقد طاردت قوة المرهته في لمحة البصر كالكافور»، ويوقل سرجاد وناتهسركار: «إنه لم يبق بيت من البيوت في ولاية مهاراشتر لم يعمه المأتم والرتاء، فقد ذهب جيل القادة والرؤساء كله في معركة واحدة»^(٢).

وتوجه أحمد الأبدالي - حسب تخطيط الإمام الدهلوي - بعد تحقيق هذه المهمة الضرورية إلى قندهار، يقول الشيخ ذكاء الله:

«لقد قدم أحمد شاه بعد الفتح والانتصار من بانتي بت إلى نواحي دلهي، ومكث عدة أيام وعين الأمير عالي كوهراي شاه عالم ملك البلاد، وشفع لدى الملك أن يولى شجاع الدولة الوزارة ونجيب الدولة إمارة الأمراء، ولم يكن شاه عالم إذا ذاك في دلهي، فعين ابنه جوان بخت نائباً عنه، وفوض إلى نجيب الدولة إدارة دلهي ونظامها، وخلع على شجاع الدولة وولاه ولايات أوده واله آباد، وتوجه هو نفسه إلى قندهار»^(٣).

□ يقول البروفيسور خليق أحمد نظامي: «لقد حاول أحمد شاه الأبدالي - جهده - بعد حرب «بانتي بت» أن يدعو شاه عالم إلى دلهي،

(١) «تاريخ الهند» (٩/٣٠٩).

(٢) «الرسائل السياسية» (ص ٤٥).

(٣) «تاريخ الهند» (٩/٣٠٩ - ٣١٠).

وبعث إليه برسول ولما لم يحضر طلب أحمد شاه من والدته النواب زينب محل أن تكتب إليه، وكان أحمد شاه يحاول دعوة شاه عالم «إلى دلهي» حتى يتخلص هو من قبضة الإنكليز، ويقدم إلى دلهي ويضعف قوته ويحكمها حال وجود أحمد شاه الأبدالي»^(١).

□ ويقول خليف أحمد أيضاً: «لم يكن عند أحد من المرهته والسيخ والجات من السعة وشمول التصور والتفكير بحيث يفكر في أساليب المحافظة على وحدة الهند ومركزيتها، وقد كان الإمام الدهلوي - حسب مخططه المقترح - يريد استعادة السلطة العليا والمركزية والوحدة التي كانت في عهد الملك أكبر - وجهانكير - وشاه جهان واورنك زيب في البلاد، ولكن عن طريق الحكومة العادلة لا الملوك الجائرين الجبارين»^(٢).

وضيغ شاه عالم ما صنعه الأبدالي بسقوط همته وقصر نظره.

* الإمام الدهلوي ودوره في الإصلاح والتربية للمجتمع :

مع كون الإمام الدهلوي كان من كبار العلماء والمؤلفين إلا أنه كان من كبار الوعاظ ومعلمي الأخلاق وإماماً في مجال الإصلاح والتربية والتجديد، وهذه المآثرة للدهلوي من أروع المآثر والمعها في تاريخ الإصلاح والتجديد؛ فإنه قد خاطب السلاطين المسلمين والأمراء وأركان البلاط والجنود العسكريين والصناع والمحترفين، وأولاد المشايخ المنعزلين، كل طبقة من هذه الطبقات على حدة وفي صورة مستقلة، وضرب على وترهم الحساس، ودل على مكان ضعفهم وانحرافهم وأنواع غرورهم وخداعهم، كما خاطب الأمة الإسلامية - بصورة عامة - خطاباً جامعاً شاملاً، وكشف عن أمراضها

(١) «الرسائل السياسية» (ص ٤٥ - ٤٦).

(٢) المصدر السابق (ص ٤٧).

وأدائها، ووصف علاجها، وقد بلغ توجعه وحرقة قلبه واندفاعه في الحمية الإسلامية وعاطفة الدعوة الدينية وبلاغة البيان وقوة التعبير في هذه الخطابات الخاصة أوجها وذروتها يصعب أن تجد أمثلتها في كتب المؤلفين السابقين - الذين مضى ذكرهم - والمصلحين الناقدين، وسوف نورد مقتطفات من كتاب «التفهيمات الإلهية» للإمام الدهلوي الذي خاطب فيه قادة مختلف الطبقات البارزة المؤثرة وسادتها، ويتجلى في هذه الخطابات الخاصة من دقة نظر الإمام الدهلوي وعمق ملاحظته وحكمته في الدعوة، وجزائه الخلقية واطلاعه الواسع الدقيق ما يحاربه دارس التاريخ الذي اطلع على انحطاط هذا العهد ومجتمعه، ومراعاة العلماء وأصحاب الأقلام لمصالحهم الشخصية، وبأس الدعاة والمصلحين من إصلاح الأوضاع وتغيير الأحوال ويتعجب ويقول: «هل كانت هذه الجمرة يا رب كامنة في الرماد!»

وها نحن ننقل هذه الكلمات الموجهة إلى مختلف الطبقات بنصها:

خطابه للسلطين المسلمين:

أقول للملوك، أيها الملوك! المرضى عند الملأ الأعلى في هذا الزمان أن تسلوا السيوف، ثم لا تعمدوها حتى يجعل الله فرقاناً بين المسلمين والمشركين وحتى يلحق مرده الكفار والفساق بضعفائهم لا يستطيعون لأنفسهم شيئاً، وهو قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ فإذا ظهر الفرقان فرضاء الملأ الأعلى أن تنصبوا في كل ناحية وفي كل مسيرة ثلاثة أيام وأربعة أيام أميراً عادلاً يأخذ للمظلوم حقه من الظالم ويقيم الحدود ويجتهد أن لا يحصل فيهم بغي ولا قتال ولا ارتداد ولا كبيرة، ويفشوا الإسلام ويظهر شعائره، ويأخذ بفرائضه كل أحد ويكون لأمير كل بلد شوكة يقدر بها على إصلاح بلده ولا يكون له شوكة يتمتع بسببها ويعصي على السلطان، وينصب في كل إقليم كبير أميراً يقلده القتال فقط يكون جمعه اثنا

عشر ألفاً من المجاهدين، لا يخافون في الله لومة لائم يقاتلون كل باغ وعاد، فإذا كان ذلك فرضاً الملاء الأعلى أن يفتش حيثئذ من المنظمات المتزلية والعقود ونحوهما حتى لا يكون شيء إلا موافق الشرع حتى يأمن الناس من كل وجه^(١).

خطابه للأمرء وأركان الدولة :

وأقول للأمرء: أيها الأمرء! أما تخافون الله اشتغلتم باللذات الفانية الدائرة وتركتم الرعية تأكل بعضها بعضاً، أما شربتم الخمر جهرة وأنتم لا تنكرون، أما بنيت منازل ودور للزنا وشرب الخمر والقمار وأنتم لا تغيرون، أما هي البلاد الكبيرة لم يضرب فيها حد منذ ستمائة سنة أو أكثر، من وجدتموه ضعيفاً أكلتموه ومن وجدتموه قوياً تركتموه وعتوه، خاضت أفكاركم في لذائذ الطعام ونواعم النساء ومحاسن الثياب والدور، وما رفعتم إلى الله رأساً وما ذكرتموه إلا بالسنتكم في حكاياتكم كأنكم تريدون باسم الله انقلاب الزمان، تقولون الله قادر على كذا تعنون أن الزمان قد ينقلب كذلك^(٢).

وأقول للعسكرية: أيتها العسكرية! أخرجكم الله للجهاد ولتظهروا كلمة الحق وتكتبوا الشرك وأهله فتركتم ما أخرجكم لأجله، واتخذتم رباط الخيل وحمل السلاح كسباً تستكثرون به أموالكم من غير نية الجهاد وقصده، شربتم الخمر والبنج وحلقتم اللحى وأعفيتم الشوارب، وظلمتم الناس ولم ينالوا مما تأكلون فوالله إلى الله سوف ترجعون فينبئكم بما كنتم تعملون، كان مرضى الحق فيكم أن تتزيوا بزبي الصالحين من الغزاة، واعفوا اللحى وقصوا الشوارب وصلوا الصلوات الخمس واتقوا الله في أموال الناس واصبروا في الحرب والبأس، وتعلموا رخص الصلوات كالفصر والجمع، وأنه يجوز ترك

(١) «التفهيمات الإلهية» (١/٢١٥ - ٢١٦).

(٢) المصدر السابق (ص ٢١٦).

السنن في السفر، وكذلك أحكام التيمم، فتمسكوا بها وعضوا على الفرائض وأصلحوا نياتكم ببارك لكم ربكم في خولكم وينصركم على أعدائكم^(١).
وأقول للمحترقة! ضاعت أماناتكم وذهلت عن عبادة ربكم وأشركتكم بربكم، وذبحت لطواغيتكم وحججتم إلى المدار^(٢) والسالار^(٣)، فبئس صنعكم ذلك ورب إنسان منكم جعل الطيرة ماله وكسبه، فجعل يتكلف في لباسه وزيه ومطعمه مالا يكفي له فيضيع حقوق نسائه ورب إنسان منكم اكتفى بشرب الخمر واستيجار الفروج فيضيع معاشه ومعاده، إن الله هيا لكم من الكسب ما يكفي لكم ولدوي حقوقكم إن أنتم اقتصدتم واكتفيتم بما يكون بلغة إلى المعاد، وكفرتم بنعمة ربكم، أسأتم التدبير أما تخافون عذاب جهنم وبئس المهاد، واضروفا غداءكم وعشيتكم في ذكر الله، وطول النهار في حرفتكم، والليل في نسائكم واجعلوا الصرف أقل من الدخل فما غير، فواسوا فيه الغريب والفقير وذروا شيئاً لنوائبكم وخوائجكم؛ فإن خالفتهم هذه الأمور فقد أسأتم التدبير^(٤).

وقد نادى - هكذا - أولاد المشائخ برسم آبائهم من غير استحقاق: يا أيها الناس! ما لكم تحزبتم أحزاباً، واتبع كل ذي رأي رأيه، وتركتم الطريقة التي أنزلها الله على محمد ﷺ رحمة بالناس ولطفاً بهم، وهدى لهم فانتصب كل واحد منكم إماماً ودعا الناس إليه وزعم نفسه هادياً مهدياً، وهو ضال مضل، نحن لا نرضى بهؤلاء الذين يبايعون الناس ليشتروا به ثمناً قليلاً أو يشوبوا اغراض الدنيا بتعلم علم، إذ لا تحصل الدنيا إلا بالتشبه بأهل

(١) المصدر السابق (ص ٢١٦ - ٢١٧).

(٢) المراد به الشيخ بنديع المكنبوري.

(٣) المراد به السيدة سالار سعود الغازي الذي يحتفل آلاف الناس بمولده.

(٤) «التفهيمات الإلهية» (١/٢١٧).

الهداية ولا بالذين يدعون إلى أنفسهم ويأمرون بحب أنفسهم، ولا تتبعوا إلا من دعا إلى كتاب الله وسنة رسوله ولم يدع إلى نفسه ولا ترضى بإشاعة الإشارات الصوفية في المجالس والمحافل، إنما المرضي بالإحسان، أما لكم عبرة في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَكُمُ عَنْ سَبِيلِهِ﴾^(١).

ثم يخاطب العلماء والطلاب في عصره فيقول:

خطابه للعلماء والطلاب:

وأقول لطلبة العلم: أيها السفهاء المسمون أنفسكم العلماء! اشتغلتم بعلوم اليونانيين وبالصرف والنحو والمعني وظننتم أن هذا هو العلم، إنما العلم آية محكمة من كتاب الله أن تتعلموها بتفسير غريبها وسبب نزولها وتأويل معضلها أو سنة قائمة من رسول الله ﷺ أن تحفظوا كيف صلى النبي ﷺ وكيف توضحاً، وكيف كان يذهب لحاجته وكيف يصوم، وكيف يحج وكيف يجاهد، وكيف كان كلامه، وحفظه للسانه وكيف كان أخلاقه، فاتبعوا هديه واعملوا بسنته على أنه هدى وسنة لا على أنه فرض ومكتوب عليكم، أو فريضة عادلة أن تتعلموا ما هي أركان الوضوء وما هي أركان الصلوة، وما نصاب الزكاة، وما قدر الواجب وما سهام فرائض الميت، أما السير وما يرغب في الآخرة من حكايات الصحابة والتابعين فهو فضل، وأما ما اشتغلتم به وما يهتم به فليس من علوم الآخرة؛ إنما هي علوم الدنيا^(٢).

ثم يقول لهؤلاء الطلاب والعلماء:

وأن لا تشتغلوا بالعلوم الآلية إلا بأنها آلة لا بأنها أمور مستقلة، أما

(١) (ص ٢١٤).

(٢) المصدر السابق (١/٢١٤).

أوجب الله عليكم أن تشيعوا العلم حتى يظهر شعائر الإسلام في بلاد المسلمين، فلم تظهروا الشعائر وأمرتم الناس أن يشتغلوا بالزوائد واستكثرتم في أعينهم طلب الحق والدين أما ترون البلاد العظام تخلوا من العلماء وإن كانوا فهم دون ظهور الشعائر^(١).

ثم خاطب أولئك الناس الذين جعلوا وساوسهم وخطرات قلوبهم ديناً، وكل من لم يتفق ومقياسهم المؤسس على هواجس النفس وخطرات القلب، فكأنه خارج عن الدين، وقد كان معظم هذه الطبقة من الناس الذين أصيبوا بهذا الانحراف من الزهاد المتقشفين والعباد الغالين والوعاظ المتشدقين، ولذلك اختبر لهم هذا العنوان.

مع الوعاظ المعسرين في الدين والزهاد المنزوين المنعزلين:

وأقول للمتقشفين من الوعاظ والعباد والجالسين في الخانقاهات:
يا أيها المتسكون! ركبتم كل صعب وذلول وأخذتم بكل رطب ويابس، دعوتم الناس إلى الموضوعات والأباطيل وعسرتم على الخلق، وإنما بعثتم مسيرين لا معسرين، وتمسكتم بكلام المغلوبين من العشاق، وكلام العشاق يُطوى ولا يُروى، واستطبتم الوسواس وسميتموه الاحتياط، وكان مرضى الحق فيكم أن تفهموا الإحسان بجزئيه الاعتقادي والعملي، فتحصلوه من غير أن تخلطوا به أحوال المغلوبين وإشارات المكاشفين فادعوا الناس إليه، أما تعلمون أن الرحمة كل الرحمة والهدى ما جاءكم به محمد ﷺ، أكان يفعل فعلكم هذا أم كان أصحابه يفعلون هذه الأفعال^(٢).

ويخاطب - أخيراً - عامة المسلمين، لا يخص فيه طبقة منهم دون

طبقة، يقول:

(١) «التفهيمات» (١/٢١٥).

(٢) المصدر السابق (١/٢١٥).

خطابه الشامل للأمة الإسلامية جمعاء تشخيص الداء ووصف الدواء :

وأقول لجماعات المسلمين عموماً خطاباً واحداً:

يا معاشر بني آدم! (فسدت) أخلاقكم وغلب عليكم الشح واستحوذ عليكم الشيطان وزثرت النساء على الرجال، وغمط الرجال على النساء واستطبتم الحرام واستبشعتم الحلال، فوالله إن الله ما كلف نفساً إلا ما تطيق، عاجلوا شهوة فروجكم بالنكاح وإن كثرت، ولا تتكلفوا في نفقتكم وزيكم مما لا تطيقون، ولا تزر وازرة وازرة كأنها معلقة، ولا تضيقوا الأمور على أنفسكم فإنكم إن ضيقتم خرجت نفوسكم إلى حد الصفاق، وأن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه، وعالجوه شهوة بطونكم بالأطعمة واكتسبوا قدر ما يكفيكم ولا تكونوا كلا على الناس تسألونهم فلا يعطونكم ولا تكونوا كلا على الخلفاء والأمراء إنما المرضي لكم الكسب بأيديكم إلا عبد ألهمه الله أن الله يكفيك والله يعصمك من آفات الفقر.

يا معشر بني آدم! من رزقه الله مسكناً يؤويه ومشرّباً يرويه ومطعماً يشبعه وملبساً يستره، ومنكحاً يحصن فروج ويعاونه في معيسته، فقد أدى له الدنيا بحذافيرها، فليشكر الله وليتخذ كسباً يكفيه وليكن من شأنه القناعة والقصد في المعيشة ولينتهز الفرصة لذكر الله وليحافظ على ثلاثة أوقات: الغدوة والعشية والسحر، وليذكر الله بالتهليل والتسييح وتلاوة القرآن واستمعوا الحديث واحضروا حلق الذكر.

يا معشر بني آدم! اتخذتم رسوماً فاسدة تغير الدين، اجتمعتم يوم عاشوراء في الأباطيل، فقوم اتخذوه ماتم، أما تعلمون أن الأيام أيام الله والحوادث من مشيئة الله، وإن كان حسين رضي الله عنه قتل في هذا اليوم فأي يوم لم يمت فيه محبوب من المحبوبين، وقد اتخذته لعباً بجراهم وسلاحهم، وقوم اتخذوه منسكاً، أف لصنيعكم اجتمعتم يوم البراء يلعب قوم، ويزعم قوم أنه

يجب إكثار الأُطعمه للموتى، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، ورسوماً تضيق عليكم كالإفراط في لوائهم وكالامتناع من الطلاق وكإمسك المرأة بعد زوجها من النكاح، فضيغتم أموالكم وأوقاتكم في الرسوم وتركتهم الهدى الصالح، وكان المرضى أن لا تتخذوا هذه الرسوم وأن تتخذوا رسوماً سهلة ليس فيها ضيق، اتخذتم المآتم عيداً كأن إكثار الطعام واجب عليكم، وضيغتم الصلوات وقوم اشتغلوا بمكاسبهم فلم يقدرُوا على الصلوات ومنشأ هذا الفساد أنهم ما اخذوا مجالسهم في رجب حول المساجد يسهل عليهم الصلوات، وضيغتم الزكاة، وما من غنى إلا له متعلقون من المحاويج يطعمهم ويواسيهم، ولو أنه نوى الزكاة والعبادة لكفاه، وضيغتم صوم رمضان، فضيغ قوم لأنهم صاروا عسكرية لا يقدرُونَ على الصوم مع ما هم عليه من المحنة، اعلموا أنكم أسأتم التدبير وصرتم عيالاً على السلطان ولما لم يجد السلطان ما يعطيكم، ضيق على الرعية، فما اقبح صنيعكم هذا، قوم لا يتسحرون ولا يجتنبون أعمالاً شاقة، وذلك من سوء تدبيرهم وعقلهم.

□ ويقول أخيراً: «ومقالات الملاء الأعلى في هذا الزمان كثيرة تنبئ عن الخير الكثير والقليل يكون نمودجاً عن الكثير»^(١).

إصلاح الطقوس والتقاليد وتطهير المجتمع منها:

لم يقتصر الإمام الدهلوي على هذه الخطابات الخاصة لهذه الطبقات الخاصة من الناس، بل شدد النكير على تلك الطقوس والتقاليد الهندوكية والبدع والشعائر غير الإسلامية التي تسربت إلى المجتمع المسلم وشاعت فيه بسبب الاختلاط الطويل بالهنداك ومواطنتهم لعدة قرون، وعدم الاهتمام

(١) «التفهيمات» (١/٢١٧ - ٢١٩).

بالسنة المشرفة والحديث الشريف وغفلة العلماء وتقصيرهم، وعدم شعور الحكومة المسلمة بمسئوليتها وفقدان الحسبة الدينية، والتزم بها المسلمون التزاماً شديداً، وشنع تلك المعتقدات الباطلة، والأوهام والخرافات الجاهلية، وتقليد غير المسلمين وأتباعهم، وعابهم عليه، وقد كان عامة العلماء المشتغلين بالعلوم العقلية والفنون الحكيمة لا يعيرون لهذه العادات والتقاليد الجاهلية بالآيرونها هيئة خفيفة، أو يتغاضون عنها فراراً من الوقوع في المشاكل ومعارضة الجماهير، وقد بدأت هذه المهمة لإصلاح الطقوس والتقاليد وتطهير المجتمع المسلم منها - بعد الإمام السرهندي الذي شنع في عدد من رسائله على هذه المعتقدات الشركية والتقاليد الجاهلية والطقوس الهندوكية - بجهود الإمام الدهلوي، وقد قام بتكميل هذه المهمة وتوسيعها - بعده - أبناءه الأعلام ومن تخرج عليهم، ونشأ في أحضانهم من المصلحين المجددين كالإمام أحمد بن عرفان الشهيد (خليفة الشيخ عبدالعزيز الدهلوي ابن الإمام الدهلوي) والشيخ إسماعيل الشهيد حفيد الإمام الدهلوي.

ونورد هنا مقتطفاً من «التفهيمات الإلهية» و«وصايا الإمام الدهلوي»

يقول:

«من عادات الهندوس الشنيعة أنه إذا مات زوج المرأة فلا يخلونها تتزوج مرة ثانية، ولم تكن هذه العادة في العرب قط، لا قبل النبي ﷺ ولا بعده، فرحم الله امرأة يقضي على هذه العادة الشنيعة، وإذا لم يكن القضاء على رواج هذه العادة في عامة الناس فينبغي ترويج طريقة العرب فيما بين قبيلته، وإن لم يمكن ذلك كذلك فلا بد من استقباح هذه العادة ومخالفتها من أعماق القلب على الأقل، إذ هو آخر درجة من الإنكار على المنكر.

وعادتنا الشنيعة الثانية أننا نغالي في المهور، وقد كان نبينا ﷺ الذي نيط به شرفنا في الدنيا والآخرة - حدد لأهله الأقربين - وهو ما يبلغ

خمسمائة درهم.

ومن عاداتنا الشنيعة الإسراف، فإننا نبذر الأموال في مناسبات الأفراد وتقاليد العادات، ولم يثبت عن النبي ﷺ إلا الوليمة في الزواج والعقيقة، ولذلك فينبغي الالتزام بهما والاحتراز عن غيرهما، أو عدم الاهتمام الكثير بغيرهما.

ومن عاداتنا السيئة أيضاً الإسراف والتبذير في مناسبات المآتم باسم سيد جهلم ششماهي، فاتحه، سالانه^(١)، مع أنه لم يكن شيء من هذا في العرب الأولين فمن الخيز أن يهتم بتعزية ورثة الميت في مصابهم لثلاثة أيام، وبالطعام ليوم وليلة، ولا يلتزم بتقليد آخر، ولتجتمع نساء القبيلة بعد ثلاثة أيام وليطبن ثياب النساء ذوات قربي الميت، وإذا كانت زوجة الميت موجودة فليقض على سلسلة المآتم بعد عدتها^(٢).

ولقد صدق الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي - رحمه الله تعالى - إذ صرح في مقاله بعنوان «حقيقة منصب التجديد ومكانه الإمام الدهلوي في تاريخ التجديد» في مجلة «الفرقان» العدد الخاص بالإمام الدهلوي بعد إيراده لمقتطفات من «إزالة الخفاء» و«التفهيمات الإلهية» بما يلي:

«ويقدر من هذه المقتطفات - إلى حد ما - أنه كيف استعرض الإمام الدهلوي ماضي المسلمين وحاضرهم هذا الاستعراض التفصيلي، وكيف انتقدهم بهذا الشمول والاستيعاب، وأن من نتائج هذا النوع من الانتقاد اللازم أن جميع العناصر الصالحة في المجتمع التي لا تزال في إيمانها وضمائرها بقية من حياة ولا تزال قلوبها تميز الصالح والطالح، والشر والخير - يقلقهم الشعور بفداحة الخطب وسوء الأوضاع، ويرهف شعورهم

(١) هذه التقاليد خاصة بالأيام المحددة بعد وفاة شخص.

(٢) «التفهيمات الإلهية» (٢/٢٤٦ - ٢٤٧).

الإسلامي إلى حد أنه يريهم كل أثر من آثار الجاهلية في الحياة من حولهم ويحيك في صدورهم، وتقوى قوة التمييز وتزداد فيهم، فيبدأون يحسون بشوائب الجاهلية مع الإسلام في كل ناحية من نواحي الحياة وتستيقظ فيهم القوة الإيمانية إلى أن كل شوكة من أشواك الجاهلية تقض مضجعهم، وتدفعهم إلى الإصلاح، ثم يلزم المجدد - بعد ذلك - أن يقدم أمامهم مخططاً واضحاً للبناء والجديد، حتى يركزوا أنظارهم على الوضع المشود الذي يغير به الوضع الراهن، ويكرسوا كل جهودهم ومحاولاتهم نحو هذه الجهة المطلوبة، وقد أنجز الإمام الدهلوي هذه المهمة البناء أيضاً في شمول وإجادة وإتقان، كما شاهدته في مهمته النقدية الماضية^(١).

* الدين النصيحة :

كلُّهُ كلُّهُ يُؤخذ منه قوله ويرد، ونحن نحسن الظن بالإمام الدهلوي لرسوخ قدمه في علم الكتاب والسنة، وجلالة شأنه في علوم الشريعة وهذا آخر ما لقي الله به.

وإن سبق للإمام الدهلوي كتابات صوفية فيها مخالفات مثل عقيدة وحدة الوجود، والفناء والبقاء، والتصرف في الكون، والتوجه إلى القبور والعبات في دفع البلاء وجلب المنفعة، والاستعانة بغير الله، والكشوف والمقامات، لقد ألف الإمام الدهلوي كتباً عدة في التصوف، فيها الشيء الكثير من الدعاوى والشطحات، بل المخالفات العقديّة التي يمكن للمنحرفين من الصوفية أن يجعلوها تكأة يتكئون عليها في تأييد انحرافاتهم وضلالاتهم ومن هذه الكتب:

- «الطاف القدس في لطائف النفس».

(١) مجلة الفرقان العدد الخاص بالدهلوي (ص ١٠١ - ١٠٢).

- «القول الجميل في بيان سواء السبيل» (في سلوك الطرق الثلاثة المشهورة القادرية، والجشتية، والنقشبندية).

- و«الخير الكثير» و«أنفاس العارفين» و«الانتباه في سلاسل أولياء الله» وهو كتاب مبسوط في السلاسل المشهورة وغير المشهورة.

- «وفيض الحرمين»

في هذه الكتب - وخاصة في «القول الجميل» و«الخير الكثير» من القبح والشر ما الله به عليم من عقيدة وحدة الوجود، والاستيناس بأقوال الحلاج وابن عربي، وتلميذه القونوي، وادعاء الأخذ المباشر من الجيلاني، والنقشبندي، والجشتي، بل من النبي ﷺ وكذلك من الملائكة الأعلى.

فهو في هذه الكتب وأمثالها، صوفي مثل أي صوفي آخر، متوغل في الشطحات والدعاوى المخالفة للكتاب والسنة مثل الفناء والبقاء ومكاشفة القلوب والقبور.

ومعروف أن الإمام الدهلوي يردد إصطلاحات الصوفية، ويطبقها في كتبه، وأحياناً يحوم حول شطحاتهم - مثل الأخذ من النبي ﷺ حيناً، ومن الملائكة الأعلى حيناً آخر، حتى في كتبه التي ألفها بعد اهتدائه إلى تأييد مذهب المحدثين في العقيدة والعمل^(١).

لقد بقى الإمام الدهلوي متصوفاً على طول الطريق، ولكنه بعد اهتدائه إلى نصرته مذهب أهل الحديث في العقائد والأحكام، ترك من الآثار ما يدل دلالة واضحة على تخليه عن تلك المخالفات العقدية الصريحة التي سجلت في بعض كتبه.

(١) راجع مبحث «المقامات والأحوال» في كتابه الشهير «حجة الله البالغة» وفيه تطبيقات لاصطلاحات الصوفية على أمور النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

وكتبه في نصرة المنهج السلفي هي الآخرة وترد على كتاباته الصوفية السابقة .

ونحن كأهل حديث لا نعرف إلا الإمام الدهلوي المحدث وأتباعه وأنصاره الذين حثوا على الاعتصام بالكتاب والسنة، ونشروا الحديث شرحاً وتدریساً ودافعوا عن مسلك المحدثين، وردوا على الكلام المذموم، ورفضوا التقليد الجامد، وعرضوا الفروع الفقهية على النصوص، ودعوا إلى ضرورة الاجتهاد نظراً إلى ما يستجد من المسائل في كل عصر وزمان .

وأهل الحديث في شبه القارة الهندية يعرفون الدهلوي المحدث، ولا صلة لهم بالدهلوي الصوفي، وأتباعه وأنصاره الذين عضوا على التقليد والتصوف بالنواجذ .

* على درب وخطى الدهلوي الأبناء الأعلام والخلفاء العظام :

إن من مزايا الإمام الدهلوي في سلسلة رجال الفكر والدعوة، ونعم الله - تعالى - الخاصة عليه بين المصلحين والمجددين أن الله عز وجل خصه بأولئك الأبناء والخلفاء الأعلام الكرام الذين كانوا خير خلف لخير سلف، والذين لم يحافظوا على ذلك المشعل الذي أناره الإمام الدهلوي مضيئاً وهاجاً فحسب، بل أشعلوا به مئات من الشموع والمشاعل، ولم تزل هذه المشاعل تمد المشاعل الأخرى وتنقل إليها من نورها وضوئها، واستمرت هذه السلسلة المباركة دون انقطاع في شبه القارة الهندية وخارجها من نشر تعاليم الكتاب والسنة والعقائد الصحيحة، والتوحيد الخالص، والرد على الإشراك والبدعة، وإصلاح التقاليد والعادات، وتزكية النفوس وتهذيب الأخلاق، والوصول إلى درجة «الإحسان» وإعلاء كلمة الله - تعالى - والجهاد في سبيله والحمية الدينية والغيرة الإسلامية، وإقامة المدارس الدينية، وعرض تعاليم الإسلام الصحيحة والكتابة والتأليف لتبليغ هذه الرسالة والدعوة إليها، وتراجم القرآن الكريم

والعناية بالحديث الشريف، وكتب الفقه، إلى يومنا هذا، فلو درسنا تاريخ هذه الخطوات والجهود المباركة وبحثنا عن مراكز هذه الخيرات والمبرات، ونسب هذه السلاسل والحلقات، لرأينا أن الشموع تضيء الشموع والمشاعل لم تنزل تمد المشاعل، وقد أضاءت هذه الشموع والمشاعل كلها بذلك السراج المنير الذي أشعله الإمام الدهلوي في منتصف القرن الثاني عشر وسط العواصف الهوجاء والرياح العاتية الشديدة.

* ومن هؤلاء العظام:

سراج الهند... حجة الله الإمام عبدالعزيز بن ولي الله الدهلوي:

قام الإمام عبدالعزيز بتكميل أعمال والده الإمام الدهلوي، وتوسيع نطاقها فبدأ - رحمه الله - سلسلة مباركة لترجمة القرآن وتفسيره، وتحطّم ذلك الطلسم الذي روج له علماء الدنيا بأن نشر القرآن الكريم في العامة نذير خطر كبير وتمهيد لضلالة مستطيرة.

فقد كانت دروس الإمام الدهلوي في التفسير وصلت إلى هذه الآية من سورة النساء ﴿اعملوا هو أقرب للتقوى﴾ حيث وفاة الأجل المحتوم، فبدأ الشيخ عبدالعزيز سلسلة دروسه منها فبلغ إلى قوله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ من سورة الحجرات، وبدأ بعده ابن بنه الشيخ محمد إسحاق - الذي كان قد تربى وتخرّج على يديه وكان خليفته بحق في دروسه في القرآن الكريم.

ثم ألف الشيخ عبدالعزيز تفسيره المسمى «فتح العزيز».

* تدريس الحديث الشريف ونشره وترويجه بشكل لم يسبق له مثيل: إنه يصعب أن يوجد له مثيل في تاريخ الهند العلمي والديني، وتمتد

فترة تدريسه للحديث الشريف إلى أربع وستين سنة، وخرج التلاميذ النجباء، والخريجين الفضلاء الذين أفاضوا علوم الحديث ومعارفه، ليس في الهند فحسب بل في الحجاز كذلك، ويبلغ عدد من تخرج على يديه من نوابغ تلاميذه إلى أربعين خريجاً.

لقد كان الشيخ عبدالعزيز بن ولي الله الدهلوي مثل أبيه في نصرة العمل بالحديث ضد الجمود الفقهي.

وقد سئل الشاه عبدالعزيز عن مذهب أئمة الحديث فقال:

«إن أئمة الحديث لا يتقيدون بمذهب من مذاهب المجتهدين، بل إنهم يستفيدون من الفقهاء، ومن المصادر الأخرى على السواء» انتهى من «الفتاوى العزيزية» (١١٧/٢).

وأدرك - رحمه الله - خطورة الأصول والقواعد التي وضعها متأخرة الحنفية للرد على الأحاديث الصحيحة فقال في «الفتاوى العزيزية» (١/٦٢):
«ومن اللطائف التي قلماً ظفر بها جدليّ لحفظ مذهبه ما اخترعه المتأخرون لحفظ مذهب أبي حنيفة، وهي عدة قواعد يردون بها جميع ما يحتج بها عليهم من الأحاديث الصحيحة».

* دفاع الشيخ عبدالعزيز الدهلوي عن السنة ورده على الشيعة في كتابه القيم «التحفة الاثنا عشرية»:

لقد قاوم الشيخ عبدالعزيز فتنة الرفض والتشيع، وقام كتابه «التحفة الاثنا عشرية» في وجه السيل الجارف من التشيع سداً منيعاً، خاصة أن شبه الشيعة وتأثيرهم وصل إلى أسر الأشراف والبيوتات الكريمة، وأصحاب الحكم وبلاطهم.

□ يقول الشيخ عبدالعزيز: «إن هذه البلاد التي نسكنها، وهذا العهد

الذي نعيشه، قد بلغ فيها المذهب الإثنا عشري من الذيوع والانتشار والقبول والرواج بحيث قلَّ بيت من بيوت أهل السنة لا يميل فيه واحد أو اثنان من أفراده إلى هذه العقيدة ويتبع هذا المذهب، ومعظم هؤلاء ممن لا يعرفون علم التاريخ والأخبار، ويعيشون في غفلة وقلة علم بسير أسلافهم وأصولهم ومنهجهم، وعندما يتناقشون مع أهل السنة والجماعة في مجالسهم ونواديهم، يأخذون طريق الجدال والمراء والمغالطة، وقد جاء تأليف هذه الرسالة حسة لله - تعالى - لهذا الغرض حتى لا تزل أقدام المتبعين لمذهب أهل السنة والجماعة عند المناقشة والمناظرة، ولا ينكروا أصولهم أنفسهم، ولا يدعوا الشكوك والشبهات في تلك الأمور التي تنبني على الحقائق، تجد إليهم سيلاً^(١).

* معارضة السلطة الإنكليزية والحفاظ على كيان الأمة الإسلامية:

بعد سقوط الهند في «الشركة الشرقية للهند» البريطانية، واستيلاء بريطانيا على الهند عام ١٢١٤هـ، ولما وقع بصر الجنرال هارس على جثة السلطان تيبو عام ١٧٩٩م الموافق ١٢١٤هـ قال: «الآن أصبحت الهند لنا». وكان الشيخ الدهلوي أول شخص يتجاسر على إعلان أن الهند أصبحت دار حرب، وسئل الشيخ عبدالعزيز: دار الإسلام هل يمكن أن تتحول دار حرب أو لا؟ قال في «الفتاوى العزيزية» (ج/١): «إن حكم إمام المسلمين في هذه المدينة «دهلي» غير نافذ، وحكم الحكام النصرانيين نافذ مطبق بدون معارضة ونقد، وإن ما يسميه الفقهاء بإجراء أحكام الكفر يراد به أن يكون الكفار أصحاب حكم وسلطة في شؤون إدارة البلاد وتنظيم الرعية وأخذ الجبايات وتعشير أموال التجارة وتعزير السراق وقطاع الطريق والفصل في الخصومات والتعزير على عامة الجرائم، وإن كانوا لا يتعرضون لبعض

(١) «التحفة الإثنا عشرية» للشيخ عبدالعزيز الدهلوي (ص ٢).

الأحكام الإسلامية كإقامة الجمعة والعيدين والأذان وذبح البقر، ولكن الأصل الأصيل أن تكون هذه الشئون المتقدمة الذكر تحت رحمتهم وفي دائرة نفوذهم، إننا نرى بأم أعيننا أنهم يهدمون المساجد علناً، ولا يسمح لأي مسلم أو ذمي أن يدخل هذه المدينة أو نواحيها إلا بإذنتهم، ولا يمنعون الوافدين من الخارج والمسافرين والتجار لمصالحهم الذاتية، ولكن الوجهاء الآخرين كشجاع الملك وولايتي بيكم لا يمكن أن يدخلوا المدينة بغير إذنتهم، إن حكم النصراري يسود من مدينة دلهي إلى كلكتة، نعم إنهم لم ينفذوا أحكامهم في بعض المناطق - يميناً وشمالاً - كحيدر آباد ولكنؤو رامفور، إما لأجل مصالحهم الخاصة، أو لأن حكام هذه الولايات خضعوا لسלטانهم وقبلوا طاعتهم»^(١).

لقد تعرّف الشيخ الدهلوي على الخطر الكبير الذي يواجهه المسلمون والهند كلها، ببصيرته الموهوبة وفراسته الإيمانية، وتجلت بصيرته في تربية رجال الجهاد الذين ينتمون إليه فقد كانوا أكفاء ذوي صلاحية فائقة وهمة عالية وعزيمة صارمة، تأثير في النفوس والقلوب الذين أحدثوا ثورة عظيمة في حياة الآلاف المؤلفة من الناس.

لقد كان نهر علم الشيخ الدهلوي وحياته هادئاً ساكناً، ولكنه كما يقول الدكتور إقبال: «من هذا النهر تتصاعد تلك الأمواج الطاغية المتلاطمة التي تحطم أوكار التماسيح وتجعل عاليها سافلها».

□ وكان الإمام أحمد بن عرفان الشهيد والشيخ إسماعيل الشهيد أروع مظاهر تربية الشيخ الدهلوي كما تتجلى مشاهدتها الرائعة في حروب الشيخ ولاية علي العظيم آبادي، والشيخ يحيى علي الصادق بوري، والشيخ أحمد الله، والشيخ عبدالله ضد الإنكليز على الحدود، وفي تلك التضحيات

(١) «الفتاوى العزيزية» (١/١١٤).

الجليلة التي قام بها الصادقون من صادق بور والتي لا يوجد لها نظير إلا بصعوبة^(١).

ثم انتقلت هذه العاطفة من هذه الجماعة المناضلة المجاهدة إلى أولئك العلماء والقادة الدينين الذين خاطروا في سبيلها بمهجهم وأرواحهم عام ١٨٥٧م، وقد اشتهر منهم الشيخ أحمد الله شاه المدراسي، والشيخ لياقات على الإله آبادي، والشيخ إمداد الله المهاجر المكّي، والحافظ ضامن الشهيد، ثم انتقلت إلى أولئك العلماء الذين ما تركوا هذا المشعل يخبو يوماً ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما هودوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾^(٢).

* الشيخ محمد بن إسحاق الدهلوي وأثره في نشر الحديث في الهند:
انتشر علم الحديث انتشاراً واسعاً كبير على يدي الشيخ محمد إسحاق الدهلوي تلميذ الشيخ عبدالعزيز الدهلوي، وتخرج عليه علماء كبار، وأساتذة الحديث في الهند، إلى أن هاجر إلى مكة المكرمة عام ١٢٥٨هـ وأسند عنه كبار علماء الحجاز وأساتذة الحديث بها.

* الإمام الذي لم يوف حقه: السيد أحمد بن عرفان:

«يؤسس دولة إسلامية في «بيشاور» ويحيي الجهاد الإسلامي ضد السيخ ويقضي على البدع»:

□ قال عنه الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه «الإمام الذي لم يوف

(١) انظر للتفصيل كتاب الشيخ الندوي «إذا هبت ريح الإيمان» (ص ١٨١ - ٢٠٠) - طبع دار

القلم - الكويت ومؤسسة الرسالة.

(٢) «الإمام الدهلوي» (ص ٢٨٧ - ٢٩١).

حقه: أحمد بن عرفان: «قاد السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد - رحمه الله - (١٢٠١ - ١٢٤٦هـ) حركة إسلامية كبرى في شبه القارة الهندية، لم يُعرف لها نظير في الشمول وعمق التأثير، ومشابهاة الدعوة الإسلامية الأولى، لا في قرنه الثالث عشر الهجري، بل ولا في عدة قرون من تاريخ الإسلام والمسلمين الأخير، وظل يناضل على أوسع جبهة نعرفها من إصلاح المجتمع، وتربية الرجال، والوعظ والإرشاد، والكفاح والجهاد، ولم يكن تأثيره مقصوراً على العهد الذي نشأ فيه والجيل الذي عاصره، والمجال الذي عمل فيه، بل خلف أثراً عميقاً واسع المدى على الجيل الذي أعقبه، وعلى دعاة الإصلاح والعاملين في المجال الإسلامي، الذين جاءوا بعده كحركة الإصلاح التي قادها تثار على في بنغال، والدعوة السلفية في الهند، ومركز الدعوة والتربية في «صادق فوربتنه»، وحركة التحرير وإجلاء الإنجليز، التي كانت قيادتها في المرحلة الأولى بيد العلماء والقادة من جماعته، وحركة التأليف والترجمة الواسعة النطاق في مختلف أنحاء الهند، التي ملأت الفجوة الواقعة بين الشعب والثقافة الإسلامية الأصلية، والتعريف بالكتاب والسنة، فكان في كل ذلك أثر ملموس للحركة التي قام بها هؤلاء المجاهدون أو كانت وليدة دعوته التي هزّت المشاعر، وأشعلت المواهب»^(١).

□ إنه دعا إلى الدين الخالص، وللإطلاع على دعوته السافرة القوية إلى التمسك بعقيدة التوحيد القرآنية النقية ونبذ الشرك والبدع، يرجع إلى كتابه «الصرراط المستقيم» بالفارسية وكتاب «تقوية الإيمان» لوزيره الشيخ محمد إسماعيل الشهيد «بالأردية» وترجمتها العربية المسماة «برسالة التوحيد» بقلم أبي الحسن الندوي لقد «أشعل في القلوب شعلة الإيمان والحماسة والإسلامية، والجهاد في سبيل الله ونظّم جماعة كبيرة، وأحسن تربيتها

(١) الإمام الذي لم يوف حقه أحمد بن عرفان لأبي الحسن الندوي (ص ١٣ - ١٤).

الدينية والحرية، وخرج معها مهاجراً في سبيل الله (في ٧ من جمادى الآخرة سنة ١٢٤١هـ) من طريق بلوچستان وأفغانستان، إلى حدود الهند الشمالية، ليتخذها مركزاً لدعوته، ولتقدم منها إلى الهند لإجلاء الإنجليز، وتأسيس دولة إسلامية على منهاج الكتاب والسنة، وأثار الغيرة الإسلامية في نفوس المسلمين وأولي الأمر، وأنذرهم بالخطر المحدق بالوجود الإسلامي، ونبههم على نوايا «الأخطبوط» الإنجليزي، ومخططاته التوسعية، وراسل أمراء المسلمين في الهند.

□ كما راسل ملوك البلاد الإسلامية المستقلة ككابل وهرات ونجاري وغيرها، وأرسل إليهم رسله ورسائله الرقيقة المرققة، الدافقة بالقوة والحماسة الإسلامية، وفراسة المؤمن الأملعي، وعلو همة القائد العصامي، والإمام الديني الذي هياه الله لهذا الأمر العظيم، وسمت همته، وبعد نظره، حتى فاق في ذلك كبار السياسيين في عصره وبعد عصره، وما ذلك إلا لإحياء ما مات من السنن، واندرس من معالم الإسلام، ولإدالة الإسلام من الجاهلية، والسنة من البدعة، وإجراء الأحكام الشرعية على من دان بالإسلام ونطق بالشهادتين»^(١).

□ كتب السيد أحمد بن عرفان إلى الأمير كامران: «إن هذا الفقير سوف ينصرف مع المجاهدين الصادقين بعد الفراغ من هذه المهمة (مهمة بنجاب ومنطقة الثغور الشمالية) إلى الهند بعزيمة القضاء على الكفر والطغيان إذ هو الغرض الحقيقي من ذلك» يقصد جهاد الإنجليز.

ويكتب إلى شاه سليمان وإلى «جترال»: «لقد تدهورت حكومة الهند وسلطته - لسوء الحظ - منذ أعوام إلى وضع سيئ حتى استولى المسيحيون

(١) «سيرة السيد أحمد الشهيد» (١/٣٩٠).

والمشركون على أكثر بقاع الهند، وملأوها بظلمات الظلم والجور والطغيان»^(١).

ويكتب إلى هند وراؤ وزير كواليار: «وهؤلاء البياعين التجار قد غدوا يملكون زمام البلاد، وقد أسقطوا حكومات الحكام الكبار وانتهكوا الحرمات والأعراض وأذلّوهم وأرغموا أنوفهم»^(٢).

ويكتب إلى غلام حيدر - الذي كان أحد الضباط العسكريين في كواليار:

«لقد راحت معظم البقاع من هذه البلاد إلى سلطة الأجانب، وقد شمروا عن ساعد الجحد في الظلم والعدوان في كل مكان، لقد ضاعت حكومة حكام الهند وخربت».

* إحياءه للإمارة والإمامة وتأسيسه لدولة إسلامية:

بُوع بالإمارة والإمامة في ١٢ من جمادي الآخرة سنة ١٢٤٢هـ، وقرئت باسمه الخطبة ودخل الناس في بيعته أفواجًا، وجاءه أمراء المناطق، ورؤساء القبائل، وكبار العلماء فبايعوه على السمع والطاعة والجهاد في سبيل الله.

لقد أسس السيد أحمد دولة شرعية في الحدود الهندية الشمالية والغربية، تشتمل على «بشاور» وما جاورها من البلدان والقرى، ونقذ الحدود الشرعية، وطبق النظام الإسلامي المالي والإداري تطبيقًا دقيقًا، وشهد التاريخ نموذجًا للخلافة الإسلامية الراشدة، بعدما توالى قرون طويلة على حكومات المسلمين شبه العلمانية والزمنية فيما يتصل بالأحكام الشرعية والقوانين

(١) المصدر السابق (١/٣٨٩).

(٢) المصدر السابق (١/٣٨٩ - ٣٩٠).

(٣) المصدر السابق (١/٣٩٠).

الإسلامية وانضم إلى دولته أمراء منقطة «هزارا» ووادي «كشمير».

* إحياءه للجهاد وقاتله للشيخ :

آثره الجليلة أنه أحيا ركن الجهاد في سبيل الله، حسب تعاليم الإسلامي وأدابه، بعد فترة زمنية كاد يندرس فيها هذا الركن، ويظوى في صحائف السنة المطهرة، والسيرة النبوية وتاريخ المجاهدين الأولين والعزاة المخلصين الذين قاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا، ويكون الدين كله لله، ولا يبتغون به عرضاً من الحياة، أو تشييد ملك ودولة لأسرتهم وأبنائهم، وقد أهمله ملوك الإسلام أو استغلوه لقضاء مآربهم، أو اشباع شهوة الملك والفتح، وشغل عنه - أو عجز - دعاة الإصلاح، والمعلمون والمربون حتى كادت الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها تجهل قيمته وأهميته وفضله، ومكانته في الإسلام، وحتى أصبح أقل أهمية من كثير من أبواب الفقه كما يقول وزير السيد وترجمانه العلامة محمد إسماعيل بن عبدالغني الدهلوي: «إن الجهاد قد صار الاهتمام به عند العلماء لا يزيد على اهتمامهم بتعليم كتاب الحيض والنفاس وتعلمه».

«وقد كان ضرر هذا الإهمال على العالم الإسلامي كبيراً وفادحاً، فقد عاث فيه المفسدون، واجترأ عليه السفلة وأراذل الناس، وخضدت شوكة الإسلام والمسلمون، وأصبح المسلمون في بلادهم التي فتحوها بحد السيف، وحكموها قروناً طويلة، فريسة القتل والتدمير، وعرضة الإهانة والتذليل، تهدم مساجدهم، وتنتهك أعراضهم، وتهدر كرامتهم وانطبق عليهم قول رسول الله ﷺ: «إذا تركتم الجهاد في سبيل الله سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»^(١)، وقد كان العالم الإسلامي خصوصاً ما بعد منه

عن مركز الخلافة العثمانية صورة صادقة لهذا الوضع المهين .

□ يقول السيد أحمد بن عرفان في الفصل القيم في «ضرورة الجهاد» من كتابه القيم «الصرائط المستقيم»: «ومن شك في وخامة نتيجة ترك الجهاد، وما عاد به على الهند من شر وضرر، وخيم به عليه بسببه الذل والهوان فليسرح طرفه في أطرافها^(١) ، وما آل إليه أمرها، وما ترددت فيه من ضعف واستكانة، وذل ومهانة، وبؤس وشقاء، وكيف نزعت عنها البركة، وفارقها البهاء^(٢) .

□ وقد عاش الجهاد بفضل جهاده في إحياء هذا الركن العظيم، واحتل مكانه في حياة المسلمين وتفكيرهم واهتمامهم، وفي الأدب الإسلامي، والشعر الهندي، حتى زالت هيبة الموت، والجراحة في سبيل الله، وحنّت النفوس إلى الشهادة حين الطائر إلى وكره حتى قدم أحد الأثرياء والأمراء^(٣) ابنه الشاب للجهاد، وقال أريد أن ينال الشهادة من أيدي الكفار فيكون ذبيحاً كإسماعيل، وتنافس الشبان والأثرياء والمتنعمون في الهجرة والجهاد، وألغوا حياة التقشف والخشونة، والايثار والفداء، وكانت الآيات التي قيلت في الحث عليه، والشوق إلى الشهادة ترنيمة تنوم بها الأمهات أبناءهن، وينشدنها في مناسبات كثيرة.

□ اجتمع تحت راية أحمد بن عرفان في معركة «شيدو» نحو مائة ألف مقاتل .

□ ولما احتل السيخ «بنجاب» واستولوا عليها، وكانت لهم سيطرة على

(١) «عند كتابة هذا الكتاب في سنة ١٢٣٣هـ.

(٢) «الصرائط المستقيم» لأحمد بن عرفان (ص ٩٥ - ٩٦).

(٣) هو الأمير فرزند علي من سرة مديرية «غازي فور» قدم ابنه أمجد، اقرأ التفاصيل في «سوانح أحمددي» .

حدود الهند الشمالية الغربية والقبائل الأفغانية الحرة، وهددوا سلامة أفغانستان، وزحفوا إليها مراراً، وتعرض المسلمون الذين كانوا يشكلون الأكثرية في «بنجاب»، وحكموها منذ القرن الخامس الهجري للإهانة والإبادة، والاضطهاد الديني، فكان لا بد من انتصار لهم ودفاع عنهم ودرء الخطر عن البلاد الإسلامية الصميمة، وكانت لبنجاب أهمية استراتيجية كبيرة.

وبدأت الحرب مع الشيخ، كانت الحرب مع «رنجيت سنغ» أكبر قائد من الشيخ نينغ في أواخر القرن الثامن عشر المسيحي، وأقوى حاكم عسكري في عصره، وانتصر المجاهدون في أكبر المعارك الحربية، وعلى الجيوش التي كان يسرحها رنجيت سنغ حاكم «بنجاب»، يقود بعضها قائدان إيطاليان محنكان كانا قد قاتلا بجوار نابليون في الحروب التي دارت بينه وبين منافسيه والحكومات الأوروبية، وهما الجنرال فيتورا والجنرال الأرد، وظهر من المجاهدين من الشجاعة والحنين إلى الشهادة والطاعة للأمير، والتأدب بأداب الشرع في الحرب والسلام ما جدد ذكريات القرون الأولى.

ولما تحرك الجيش الإسلامي إلى الهند، صرفوا العنان إلى منقطة «هزارا» ووادي كشمير وفي طريقهم إلى كشمير، وقعت المعركة الحاسمة الأخيرة في وادي «بالاكوت» مع جيش الشيخ الذي كان يقوده الأمير شير سنغ بن رنجيت سنغ، وقد دلّه بعض المسلمين المأجورين إلى هذا الوادي الضيق الوعر المسالك، ووقعت المعركة الحامية، واستشهد الإمام السيد أحمد، وصاحبه العلامة محمد إسماعيل بن عبدالغني (ابن شيخ الإسلام أحمد بن عبدالرحيم الدهلوي) وكبار أصحابها بعد بطولات نادرة، وشجاعة خارقة للعادة، وذلك

(١) استولى الإنجليز على ملك رنجيت سنغ في سنة ١٨٤٩م، يعني بعد شهادة السيد أحمد ابن عرفان بثمانية عشرة سنة، وانقرض هذا الملك انقراضاً كلياً.

في ٢٤ من ذي القعدة عام ١٢٦٤هـ (٦ من مايو ١٨٣١م).

واتخذ خلفاء السيد وأصحابه - وعلى رأسهم الشيخ ولايت على العظيم آبادي وأخوه وأولاده - مركزاً لهم في «ستهانه» المنطقة القبائلية الحرة، وانتقلت المعركة من «الشيخ» - الذين ضعف شأنهم وفقدوا السلطة^(١) - إلى الإنجليز الذين استولوا على الهند، وأسسوا فيها حكومة منظمة قوية، وقد كان هذا الانتقال من مقاصده الحقيقية، والغاية القصوى التي كان يرمي إليها. ولم يزل أتباعه في الهند قائمين على الحق، باذلين في ذلك النفس والنفيس، والإنجليز يطاردونهم ويضطهدونهم، ويصادرون أملاكهم وأموالهم، ويحاكمونهم محاكمات طويلة عريضة، وقد حكم على بعضهم بالشق، وبالنفي المؤبد، وعلى بعضهم باعتقال طويل مع الأعمال الشاقة، وهم صابرون محتسبون، لا يضطربون ولا يتزعزعون، ولا يلينون ولا يستكينون، حتى كانت ثورة ١٨٥٧م.

* إحياءه لركن الحج في الهند :

أحيا السيد أحمد بن عرفان ركن الحج في الهند، الذي تعرّض لحملة علمية وفقهية تحاول إسقاط فرضيته عن المسلمين في الهند، لحيلولة البحار وكثرة الأخطار، وتوجه للحج سنة ١٢٣٦هـ بصحبة سبعمائة شخص.

□ وأحيا السيد أحمد بن عرفان سنة تزويج الأيامى الذي كان المسلمون في الزمن الأخير يتعبرون منه، ويعدونه سبةً وعاراً.

وكذلك تزويج العوانس في القبائل الأفغانية التي تعرضت لتعطيله أو تأخيره تأخيراً عظيماً لقبائح عظيمة.

□ قال المؤلف الكبير السيد صديق حسن خان أمير بهوبال (١٣٠٧هـ)

ذلك الذي شهد بأمر عينيه تأثير تعليم السيد وتربته، وعاشر طائفة من أولئك

الأفراد الذين تربوا في مدرسته مباشرة، وذلك في كتابه «تقصار جلود الأحرار»: «إنه كان آية من آيات الله في هداية عباده، وإصلاح حالهم، والرجوع بهم إلى الله وعبادته، بلغ خلق كثير، وعالم بأسره إلى درجة الربانية والإحسان بتعليمه وتربيته، وتزكيته القلبية والجسمية، وتطهرت الهند من أدناس الشرك والبدع والخرافات، والأوهام، بفعل مواعظ أصحابه وخلفائه، واهتدت إلى جادة الكتاب والسنة، ولا تزال مواعظه وتعاليمه تفعل فعلها وتؤتي أكلها».

□ ويضيف قائلاً: «وقصارى أقول: أننا لا نعلم رجلاً يدانيه في جلالته شأنه وفضله، في أي جزء من أجزاء العالم المعاصر، وما جناه الخلق من المنافع الإيمانية، والمكاسب الروحية، من هذه الجماعة الحققة، لم ينالوا عشر أعشاره من العلماء والمشايع المعاصرين الآخرين».

□ ويقول علامة عصره، وأستاذ أساتذة عهده، الشيخ حيدر علي الرامبوري الطونكي (م ١٢٧٣هـ) أحد تلاميذ الإمام الشيخ عبدالعزيز بن ولي الله الدهلوي في رسالته، «صيانة الناس عن وسوسة الخناس»:

«أشرق نور إصلاحه وتربيته، كأشعة الشمس بكل قوة ودفعة على البلاد، وفي قلوب العباد، وجعل يتقاطر عليه من الناس من كتب لهم الله السعادة في الأزل، ويتوبون من الشرك والبدع، الذين كانوا قد وقعوا فريستها، وعاشوا فيها كعمامة الناس فيعصرهم، فتمسكوا بأهداب التوحيد والكتاب والسنة، وقام خلفاؤه وأتباعه المؤمنون بجولات واسعة في البلدان والقرى، وهدوا مئات الألوف من الناس إلى منهج الشريعة المحمدية - على صاحبها الصلاة والسلام - فمن حالقهم التوفيق الإلهي، وكانوا سعداء أخذوا يسرون على هذا الدرب القويم، وبث أتباعه في جميع النواحي حتى يواصلوا القيام بالتربية والإرشاد، وتلقين التوبة، والذين كانوا يكرهون الصلاة

والصيام، ويتعاطون الحشيش، وكان الخمر والأشربة المحرمة قوام حياتهم، ويصدعون على رءوس المحافل والمجلس - سخرية واستهزاء - بأن الصلاة لم تأمر بها الشركة الهندية الشرقية الحاكمة في الهند، وأن الصيام لم يفرضه مجلس حكومي فضلاً عن الزكاة والحج، وكانت الرشوة والزنا، وإيذاء عباد الله، والربا شغلهم الشاغل، وقد عمّ الاختلاط فيما بين الرجل والمرأة دون نكاح شرعي، كالبهائم والأنعام مما كثر به أولاد الزنا، وكانت هناك مئات من الشباب والشيخوخة لم يختنوا كاليهود والنصارى، فتاب هؤلاء وأولئك كلهم بفضل تعليم السيد وتربيته عن ذنوبهم، واستغفروا الله، وتناكحوا واختنوا، وعادوا إلى حياة الطهر والصفاء، والعفة والحياء، وحسنت توبتهم، وصاروا أتقياء يخافون الله، وكان يبايعه في وقت واحد عشرة آلاف من الناس، وقد اعتنق الإسلام بفضل جهوده الإصلاحية والتربوية كثير من الهنادك، والشيعنة، ومن يمارسون «يوك» - الرياضات الهندوكية - وصدقوا في إسلامهم، وأخلصوا في إيمانهم، حتى حضره سرّاً بعض النصارى، وأسلموا على يديه، دون أن يشعروا بذلك قومهم، وأقبل آلاف العلماء - بعد ما تخرجوا عليه في التربية والإحسان على إصلاح الخلق - فمنهم من اتخذ الإرشاد والإصلاح والتربية والتزكية، شعاره ودثاره ومنهم من انقطع كلياً إلى وضع الكتب الدينية، وتفسير الآيات القرآنية، وشرح الأحاديث النبوية، وألفوا وصنفوا، ونشروا كتباً ورسائل في لغتهم الأم، ترغب الناس في العبادة، وترهبهم من المعاصي، وبذلك جعلوا كثيراً من الجهلاء - الذين كانوا لا يستطيعون أن يتلفظوا بكلمة الإسلام صحيحة - علماء يعرفون الدين والإسلام، ومنهم من سلكوا الطريقين معاً^(١) «^(٢)» .

(١) يعني عنوا بالتعليم إلى جانب التأليف والتصنيف .

(٢) «صيانة الناس عن وسوسة الخناس» للشيخ حيدر الرامبوري الطنكوي (ص ٤ - ٦) .

□ ويقول العالم الرباني الشهير، المجاهد في سبيل الله الشيخ ولاية علي العظيم آبادي - رحمه الله - (م ١٢٦٩هـ): «ما إن دوت دعوته في الهند، إلا وجعل الناس يترامون عليه ترامي القراش على النور، حتى كان يبايعه عشرة آلاف نسمة في يوم واحد، وتكاثرت جماعته مع الأيام، وتوسعت، وانسلخ آلاف الناس عن دياناتهم الباطلة، ودخلوا في الإسلام، وبايعه في مدة ستة أعوام فحسب ثلاثة ملايين من المسلمين الهنود، بالإضافة إلى نحو مائة ألف رجل بايعوه خلال رحلته للحج والزيارة، والذين بايعوه كان فيهم الآلاف من العلماء والفقهاء ومثات من حفاظ القرآن الكريم، ومثات من رجال الإفتاء والقضاء وكثير من أولى التجربة والحكمة الذين ساحوا وطوفوا وجربوا الخلو والمر، مما يدل دلالة واضحة على مدى ما كان يتمتع به من حسن القبول والتأييد العجيب من الله، فكان تنجذب إليه قلوب الناس انجذاب الحديد إلى المغناطيس، ويبايعونه مندفعين راغبين»^(١).

* حقيقة أعجب وأغرب من الخيال والأساطير:

إسلام أكثر من أربعين ألفاً على يد الإمام أحمد بن عرفان:

□ يقول أحد علماء الهند المطلعين الثقات الشيخ عبدالأحد، وله خبرة واسعة بأحوال الهند وأخبارها، والذي زار عدداً كبيراً من أفراد هذه الجماعة النيرة الصادقة، وكان عهده قريباً من عهد الإمام الشهيد «لقد أسلم على يدي السيد أحمد أكثر من أربعين ألفاً من الهنادك وغيره من الكفار، وبايعه ثلاثة ملايين من المسلمين».

(١) «رسالة الدعوة المتضمنة للرسائل التسع» للشيخ ولاية علي العظيم آبادي (ص ٦٥).

* الدين النصيحة :

«لا ريب أن السيد أحمد بن عرفان البريلوي، وأصحابه وعلى رأسهم الشاه إسماعيل الدهلوي - قائد الجناح العسكري - أقاموا دولة إسلامية، ولكن أمراء بعض القبائل، والمغرضين من الشعب تخاذلوا عن تأييدها، لقلّة الوازع الديني، وعدم التربية على منهاج النبوة، حتى قُتل السيد أحمد والشاه إسماعيل الدهلوي مع كثير من أصحابهما، على يد الشيخ في ساحة «بالاكوت» في الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ست وأربعين ومائتين وألف من الهجرة النبوية.

□ حثوا الناس على الجهاد ضد أعداء الإسلام والمسلمين، وأنشأوا فيهم حب التفاني في سبيل الله، كأنهم تأثروا في هذا الجانب بدعوة الإمام محمد ابن عبدالوهاب، إلا أنهم كانوا صوفية في سلوكهم، وحنفية في فروعهم الفقهية، وأشعرية وما تريد في عقائدهم.

□ وألفوا كتباً ورسائل ودونوا إملاءات تدل دلالة صريحة على توغلهم في التصوف الطرقي منها كتاب «الصراط المستقيم» وهو إملاءات السيد أحمد التي دونها الشاه إسماعيل والشيخ عبدالحلي البدهانوي، ونقله الأخير إلى العربية، وفيها مخالفات عقديّة كثيرة»^(١).

وهذا القول الصحيح هو عكس ما يقوله الأستاذ أبو الحسن الندوي عن كتاب الصراط المستقيم.

* الإمام الشاه إسماعيل بن عبدالغني الدهلوي (- ١٢٤٦هـ) :

جاهر - رحمه الله - بالعمل بالحديث تمسكاً بما قرّر جدّه الإمام الدهلوي في كتاباته من تأييد مذهب المحدثين (مع التزامه بمرشده الشيخ

(١) الأستاذ أبو الحسن الندوي - الوجه الآخر من كتاباته - لصالح الدين مقبول أحمد.

أحمد بن عرفان في التصوف^(١) ، وقام بالرد على البدع السائدة في البلاد، وألّف كتاب «تقوية الإيمان» الذي هو مثل «كتاب التوحيد» للإمام محمد بن عبد الوهاب، و«ردّ الإشراك» و«تنوير العينين»، وهي مؤلفات العلامة إسماعيل الدهلوي وهي ثمرات ناضجة لمعارف شيخ الإسلام ابن تيمية التي ورثها عن جده. وأثمرت حركته لإحياء السنة، وتحوّلت إلى حركة الجهاد التي أفضت مضاجع الشيخ والإنجليز، حتى استشهد هو ومرشده في ميدان «بالاكوت».

□ ولقد تأثر علماء «صاد قبور» بالشاه إسماعيل الدهلوي وجمعوا بين العقيدة الصحيحة واتباع السنة، والذكر والتزكية والجهاد في سبيل الله، حتى انتهوا فيما بعد بنذ التصوف، وصاروا نواه لحركة أهل الحديث، وحماة للدعوة السلفية في شبه القارة الهندية، ورفعوا راية الجهاد ضد الإنجليز، واستعذبوا ألواناً من المصائب والمشقات على أيديهم، فعلقوا على المشانق ونفوا من البلاد، ودُمرت بيوتهم، ونُبشت قبورهم، وأقيمت مكاتب الدوائر الرسمية على أنقاضها فرحمهم الله رحمة واسعة، وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خيراً.

□ عودة مرة أخرى إلى الشاه إسماعيل بن عبدالغني الدهلوي الذي دعا إلى الكتاب والسنة بقلمه ولسانه، نهاراً وجهاراً، وكان كتابه «تقوية الإيمان» دعوة صريحة إلى التمسك بعقيدة السلف نقية وخالية من أكدار الشرك والوثنية، والإلحاد والزندقة، فاهتدى به إلى سبيل الحق والرشاد مئات الألوف من الناس، ولعلّه لم يحظ كتاب من القراءة والمطالعة من قبل الموافقين والمخالفين على السواء، فكان حجة أو عليهم ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيْنَةِ

(١) «أبجد العلوم» لصديق حسن خان (٣/٢٦٦ - ٢٦٧).

وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيٍّ عَنْ بَيْتَةٍ ﴿٤٢﴾ [الأنفال: ٤٢].

وعلى يد الشاه إسماعيل الدهلوي تميّزت صفوف أهل الحديث في الهند بالاعتصام بالكتاب والسنة، عن غيرهم من طوائف المسلمين، وتقدمت حركة إحياء السنة إلى الإمام مع تمييز الصف، وتوضيح المنهج وتحديد المسار، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

* قيادة الإمامين: العلامة نذير حسين الدهلوي، والشيخ صديق حسن خان:

بعدما تميّز الصف اهتمام العلماء بالتدريس والإفادة، والدعوة والإرشاد، والتصنيف والتأليف. ونشأت اليقظة السلفية في القارة الهندية، بعد الركود الذهني المحزن، والسبات الفكري العميق، والجمود الفقهي الطويل، تحت قيادة الإمامين السيدين:

* العالم الرباني رائد السلفية في الهند السيد نذير حسين المحدث الدهلوي (-١٣٢٠هـ):

تلميذ الشيخ محمد إسحاق المهاجر المكي^(١) (- ١٢٦٢هـ)، بل أبرز تلامذته على الإطلاق وتولي التدريس بعده في مكانه، ودرّس الحديث على طريقة فقهاء المحدثين ما يقارب اثنين وستين سنة وتخرّج على يده أعلام أهل الحديث في الهند وخارجها، ومنهم^(٢):

- أبو الطيب شمس الحق العظيم آبادي (- ١٣٢٩هـ) صاحب «عون

(١) انظر إلى أبجد العلوم» (٣/ ٢٦٦ - ٢٦٧).

(٢) هناك مقالات منشورة في «مجلة الجامعة السلفية» في تراجم العظيم آبادي، والباركفوري، والسهراني والآروي لكاتب هذه السطور.

المعبود على سنن أبي داود».

- أبو العلي عبدالرحمن المباركفوري (- ١٣٥٣هـ) صاحب «تحفة الأحوذى في شرح جامع الترمذى».

- محمد بشير الفاروقى السهوانى (- ١٣٢٦هـ) صاحب «صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان».

- أبو محمد إبراهيم الأروى (- ١٣١٩هـ) الذى اهتم بالعلامة محمد نصيف وجيه جده (- ١٣٩١هـ) بتوجيهاته إلى السلفية.

- الشيخ سعد بن عتيق - الذى انتشر سند شيخه المحدث نذير حسين بواسطته فى بلاد نجد والحجاز.

قال العلامة عبدالحى^(١) الحسنى فى شيخه السيد نذير حسين المحدث الدهلوى: «... وكان له ذوق سليم فى الفقه الحنفى، ثم غلب عليه حب القرآن والحديث، فترك اشتغاله بما سواهما إلا الفقه... ونفع الله بعلومه خلقاً كثيراً من العرب والعجم وانتهت إليه رئاسة الحديث فى بلاد الهند. أما تلامذته فعلى طبقات:

فمنهم العالمون الناقدون المعروفون، فلعلهم يبلغون إلى ألف نسمة.

ومنهم المقاربون للطبقة الأولى فى بعض الأوصاف.

ومنهم من يلى الطبقة الثانية - وأهل هاتين الطبقتين يبلغون إلى

الآلاف»^(٢).

□ وقال العلامة حسين بن محسن الأنصارى اليمانى^(٣) (- ١٣٢٧هـ):

(١) هو والد الشيخ أبى الحسن الندوى.

(٢) «نزهة الخواطر» (٨/ ٥٠٠).

(٣) راجع ترجمته فى «أبجد العلوم» (٣/ ٢١١).

«إنه فرد زمانه ومسند وقته وأوانه. ومن أجل علماء العصر، بل لا ثاني له في إقليم الهند في علمه وحلمه وتقواه. وإنه لمن الهادين والمرشدين إلى العمل الكتاب والسنة والمعلمين لهما. بل أجلّ علماء هذا العصر المحققين في أرض الهند أكثرهم من تلامذته. وعقيدته موافقة لعقيدة السلف الموافقة للكتاب والسنة»^(١).

ولا ريب أنه ربّي جيلاً كاملاً على إحياء السنة تدریساً وتألّيقاً، ودعوة وتبليغاً، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً.

* العالم الرباني صديق حسن خان ملك بوفال:

هو الأمير السيد صديق حسن الحسيني القنوجي البوفالي (- ١٣٠٧هـ) الذي نشر كتب الحديث ودواوين السنة من جهة، وأثرى المكتبات الإسلامية بمؤلفاته من جهة أخرى.

وكان العلامة صديق حسن خان ممن تأثر بدعوة شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام محمد بن عبد الوهاب^(٢). ومؤلفاته تمثل «مدرسة الأثر» التي تعرض فروع الفقه الإسلامي على الكتاب والسنة مباشرة^(٣).

□ قال العلامة محمد عبدالعزيز الخولي:

«ومن حسناته طبع «فتح الباري في شرح البخاري» للحافظ ابن حجر، و«نيل الأوطار» للإمام الشوكاني، و«تفسير الحافظ ابن كثير مع تفسير فتح البيان».

طبعت هذه على نفقته في المطبعة الأميرية بمصر، فكانت من أنجح

(١) «نزّهة الخواطر» (٩/٤٩٩).

(٢) «الشيخ محمد بن عبد الوهاب» لابن حجر آل بوطامي (ص ١٣١).

(٣) «دستور الوحدة» (ص ٧٧).

رسائل إحياء السنة^(١)

□ يقول الشيخ عبدالحמיד عبدالجبار الرحمانى :

«كان السيد صديق بن حسن (- ١٣٠٧هـ) سلفياً منذ نعومة أظفاره، وارتضع حب السلفية مع لبان الأم ولما سافر للحج سنة ١٢٧٦هـ اغتنم فرصة وقوف باخرته في اليمن، فأقام هناك أسبوعين عند المحدث اليماني الشيخ حسين بن محسن الحديدي (- ١٣٢٧هـ)، واشترى عدة كتب، منها «اقتضاء الصراط المستقيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية.

وبعد ما فرغ من أداء مناسك العمرة أول عمل قام به في مكة المكرمة هو نسخ كتاب «السياسة الشرعية» لابن تيمية بيده.

وكانه كان يعدّ نفسه لتنفيذ ما في «اقتضاء الصراط المستقيم» في العقيدة والمنهج، وتنفيذ ما في «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية» في سياسة البلاد التي حكمها فيما بعد.

ولما تزوج بملكة (بوفال) شاهجهان بيكم (- ١٣١٩هـ) وأخذ مقاليد الأمور بيده في سنة ١٢٨٨هـ قام بنشر أفكار شيخ الإسلام ومعارفه بمؤلفاته ومطبوعاته ومدارسه ومساجده في بلاده وخارجها.

وكتب ترجمة شيخ الإسلام في كتبه بالفارسية مثل «إنحاف النبلاء المتقين لإحياء مآثر الفقهاء والمحدثين»، و«تقصار جيود الأحرار من تذكّار جنود الأبرار» - وفي كتبه بالعربية مثل: «التاج المكمل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول» و«أبجد العلوم» ولم يكتف بتحرير ترجمته وترجمة بعض تلامذته في هذه الكتب فقط بل كلما وجد مناسبة لذكر شيخ الإسلام ذكره وذكره معارفه ودعوته في مؤلفاته الأخرى التي تبلغ أكثر من مئتين وخمسة

(١) «مفتاح السنة» للخولي (ص ١٦٩) - دار الكتب العلمية بيروت.

وعشرين كتاباً في اللغات العربية والفارسية والأردية. وحجم بعض هذه الكتب يزيد عن خمسة آلاف صفحة.

ولقد نوّه بشيخ الإسلام وعدّه مجدّد قرنه في عدة كتب له، مثل «حجج الكرامة» (١٣٦ - ١٣٧) و«تقصار جيود الأحرار» (ص ٧٦) و«هداية السائل إلى أدلة المسائل» (١١٥ - ١١٦، ٢٨٢). وغيرها من مولفاته وهي مملوءة بمثل هذه التصريحات.

□ وقد قام العلامة صديق بن حسن البوفالي بجلال الأعمال في الدفاع عن شيخ الإسلام، وطبع كتابين من أهم الكتب في هذا الموضوع. أحدهما: «الرد الوافر على من زعم أن من سمّى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر» للعلامة ابن ناصر الدين الدمشقي (٤٨٢هـ).

والثاني: «جلاء العينين في المحاكمة بين الأحمدين» للشيخ خير الدين أبي البركات نعمان بن محمود الألويسي (١٣١٧هـ). وفيه مقارنة بين آراء أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحراني، وأحمد بن حجر الهيتمي (٩٧٤هـ) ودافع فيه عن شيخ الإسلام وبين وهاء آراء ابن حجر الهيتمي.

وكذلك نشر مختصرات عدة رسائل لشيخ الإسلام وفتاواه في اللغة الفارسية الرائجة في الهند آنذاك. ووقف مطابعه ومدارسه لنشر معارفه ومعارف الأئمة السلفيين الآخرين.

وأما ما قام به من الأعمال الجليلة لنشر السنّة والدفاع عن السلفية فيتلخص في الأمور التالية:

- شكّل مجلساً علمياً جمع فيه نخبة من العلماء البارزين الذين ملأوا القارة الهندية نوراً وعلماً.

- وعيّن علماء سلفيين محققين على نفقته للدفاع عن عقيدة السلف الصالح وعن السنّة الصحيحة، والرد على البدع والمنكرات.

- وعين مكافآت شهرية وجوائز تشجيعية لمن يحفظ الأحاديث وشجعت هذه الخطة المباركة عدة علماء على حفظ دواوين السنة.

- قام بإحياء علوم الكتاب والسنة تصنيفاً وتأليفاً ونشراً وتوزيعاً. وكان له مندوبون في مصر وتركيا واليمن يبحثون له عن مخطوطات نادرة لينشر تراث السلف الصالح ويكون في متناول أيدي العلماء وطلبة العلم.

وجدير بالذكر هنا أن هؤلاء العلماء الذين نفذوا خطته كانوا كلهم إلا البعض، من تلامذة السيد محمد نذير حسين المحدث الدهلوي (١٢٢٠ - ١٣٢٠هـ) رحمه الله تعالى.

فالعلامة السيد نذير حسين المحدث الدهلوي بعلمه الجم وتربيته الفذة، وعمله بالكتاب والسنة على منهج السلف وجه للسنة، والسيد صديق بن حسن بماله وجاهه وعلمه بذلا قصاري جهودهما لإحياء منهج السلف الصالح في الهند على غرار دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية، وحركته الإصلاحية السلفية.

وما يرى من ازدهار في حركة العمل بالسنة في شبه القارة الهندية، يرجع فضله - بعد الله تعالى - إلى هذين العالمين الجليلين اللذين بارك الله في أعمالهما في نشر السلفية تأليفاً وتدریسا، ودعوة وتبليغا.

● وصدق فيهما قول النبي ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلط على هلكته في الحق. ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»^(١).

وقد أودى هذان الإمامان في سبيل الحق، ونشر الدعوة، والدفاع عن

(١) البخاري مع الفتح (١/١٦٥)، ومسلم (٨١٦) عن عبدالله بن مسعود.

منهج السلف في العقيدة والعمل كثيراً.

وبدأ تيار العمل بالكتاب والسنة يسري في صفوف العلماء الذين تأثروا بالسيد صديق بن حسن البوفالي والسيد نذير حسين المحدث الدهلوي حتى وصل السهول والجبال في شبه القارة الهندية.

وأخص بالذكر هنا أسرة علمية تتلمذت على السيد نذير حسين الدهلوي وغيّرت مجرى التأريخ فيطها، ألا وهي أسرة غزنوية وعلى رأسها الإمام عبدالله بن محمد الغزنوي - رحمه الله - الذي اعتنى بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية اعتناء بالغاً.

□ قال ابنه عبدالجبار بن عبدالله الغزنوي (١٢٦٨ - ١٣٣١هـ):

«كان والدي الإمام عبدالله الغزنوي - رحمه الله - راغباً جداً في مؤلفات المحدثين المحققين، وخاصة في مصنفات شيخ الإسلام أحمد بن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، ودائماً كان يبحث في كتبهما... وكان يفضلهما على أكثر الأئمة والعلماء، وكان يصغر الشاه ولي الله الدهلوي في مقابلتهما...»^(١).

□ وكان الشيخ عبدالله الغزنوي (تلميذ السيد نذير حسين الدهلوي) عاكفاً على العبادة والإفادة وانتهى إليه الورع وحسن السمات والتواضع والاشتغال بخاصة النفس، واتفق الناس على الثناء عليه والمدح بشمائله وصار المشار إليه في هذا الباب»^(٢).

وكان له - رحمه الله - اثنا عشر ابناً كلهم دعاة إلى الله على منهج السلف الصالح. وكان من بينهم العلامة عبدالرحيم الغزنوي والعلامة

(١) «سيرة الإمام عبدالله الغزنوي» (ص ٢٤).

(٢) «نزهة الخواطر» (٣١١/٦).

عبدالواحد الغزنوي يشتغل بالتجارة ليستعينا بها على الطاعة والعبادة والدعوة. وكانا يجوبان الأقطار في هذا الشأن حتى وصلا إلى بعض البلدان العربية، وقدّر الله أن حصل لهما اجتماع أثناء سفرهما إلى الكويت بالأمير عبدالرحمن بن الفيصل آل سعود (١٢٦٨ - ١٣٤٦هـ) وابنه المغامر عبدالعزيز ابن عبدالرحمن بن فيصل آل سعود (١٢٩٧ - ١٣٧٣هـ) وتأثر الأميران بهما جداً ودرساً عليهما بعض العلوم، وقامت بينهم علاقة ودية خالصة على أساس وحدة العقيدة والمنهج.

ولما استولى الأمير عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود على «الرياض» عاصمة نجد، وجه إليهما الدعوة للإقامة في الرياض فجاءا وبقياً خمس سنوات في نجد، واستفاد منهما في هذه المدة بعض الأشخاص من آل سعود وغيرهم من أهل نجد.

وهذه الإقامة في نجد فتحت لهما الطريق للحصول على مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية التي كانا مجبولين على حبها من عهد والدهما عبدالله الغزنوي. ورجع هذان العالمان إلى الهند مع النسخ الخطية لبعض مؤلفات شيخ الإسلام فقاموا بطبعها وتلخيصها ونقلها إلى الأردية وتوزيعها في شبه القارة الهندية.

وبالإضافة إلى ذلك طبعوا عدة مؤلفات للإمام ابن قيم الجوزية، وكتبوا في الدفاع عن شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب ودعوته، ومؤلفات أئمة الدعوة السلفية الآخرين. وبدأت الدعوة السلفية تشق طريقها إلى الأوساط المسلمة في الهند بجهود العلماء الغزنويين وغيرهم من تلامذة السيد نذير حسين الدهلوي وزفقاء السيد صديق حسن خان البوفالي.

* ابن تيمية الهند... إمام الهند أبو الكلام آزاد:

أما العبقري العظيم الذي ملأ أرض الهند بذكرات شيخ الإسلام ابن تيمية ووضع شخصيته أمام العلماء والمفكرين، والدعاة والمثقفين بأدب رائع رفيع، وأسلوب شائق جذاب، وطريقة معجزة مبتكرة فهو إمام الهند أبو الكلام محيي الدين أحمد الملقب بأزاد (أي الحر) (١٣٠٥ - ١٣٧٧هـ). وهو من سلالة علمية من آل البيت وكان أبوه خير الدين من كبار المتصوفة، ولكن الله عزّ وجلّ أراد لابنه خيراً فانقلب على أبيه، ودعا إلى التمسك بالكتاب والسنة، ودافع عن عقيدة السلف، وعرف بإماماته في العلوم والمعارف، وذكائه المفرط، وعبقريته الفذة في فهم الدين والواقع، ونظرته الثاقبة في السياسة الحاضرة، وفراسته النافذة في أحداث المستقبل. ولا ريب أنه كان من أذكىاء العصر.

□ قال الأستاذ الأديب المؤرخ أبو سلمان الشاه جهانفوري: «... إذا كان يشبه أبو الكلام آزاد أحدًا في هذه الأمور فهو يشبه جامع المحاسن والفضائل شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - .
ولذا قرّر الأديب الصحفي الخطيب شورش الكاشميري أن أبا الكلام آزاد نظير شيخ الإسلام، وهو ابن تيمية الهند»^(١).

□ كان أبو الكلام آزاد مع علمه الجم بالكتاب والسنة سياسياً محنكاً ورائدًا من رواد تحرير الهند من براثن الاستعمار البريطاني. وكان الاستعمار يتوجس من كتاباته الرصينة الهادفة، ومحاضراته البليغة الأخذة خيفة لما كان فيها من الإثارة والتحميس للشعب، والمؤاخذه على حكم الإنجليز وسياسة الاستعمار.

(١) «حياة ابن تيمية» لآبي سلمان (ص ٦ - ٧).

ولأجل هذا وذلك اعتقله الاستعمار الإنجليزي مرات. ولما اعتقله في (٣٠ مارس ١٩١٦م) بمدينة «رانشي» بقي هناك في المعتقل ثلاث سنوات ونصف السنة، واشتغل طوال هذه المدة بالعبادة والذكر، وبترجمة معاني القرآن الكريم وتفسيره، وبتأليف كتابه القيم المعروف بـ «التذكرة»، وذكر فيه تأريخ الأئمة المجددين والمصلحين البارزين، ونوه فيه بصفة خاصة بسيرة إمام السنة أحمد بن محمد بن حنبل، وشيخ الإسلام أحمد ابن تيمية وركز على سيرة شيخ الإسلام فكتب ما يقارب مائة صفحة كتابة في غاية الروعة، لا يوجد لها نظير - في نظري - في سيرته في أي لغة حتى في العربية.

وقال الكاتب الإسلامي الكبير الأستاذ غلام رسول مهر - رحمه الله -:
إن جريدة أبي الكلام آزاد المسماة «الهِلال» الأسبوعية (الصادرة سنة ١٣٣٠هـ) لم تكن إلا انعكاساً لمعارف ابن تيمية. ولا ريب أن كتاباته وخطبه وجهوده، وكذلك صحفه ومجلاته (الهِلال، والبلاغ، وإقدام، والجامعة، وبيغام (الرسالة) كلها كانت شرحاً وتفصيلاً لمعارف شيخ الإسلام وآرائه، وجاء كتابه «التذكرة» ملخصاً لكل هذه النفائس والدرر في صفحاته القلائل».

أرى من المناسب تعريب مقتطفات من كتابه «التذكرة» مع أن نقل أسلوبه الرصين، وعباراته البليغة إلى أي لغة أخرى من أصعب الأمور؛ لأنه كان أمير البيان وسلطان القلم، ولا يستطيع أن يوفي بحق تعريب كتاباته إلا رجل عبقرى مثله.

وللإفادة إليكم آلان بعض المقتطفات المعربة عن شيخ الإسلام من «التذكرة»:

- قال: «... فإن الفتن التي ظهرت عبر التاريخ الإسلامي في شأن العقيدة الإسلامية متفرقة في عصور مختلفة عادت مجتمعة في هذا العصر. فنظراً إلى هذا لا يشفي غليل هذا العصر إلا معارف ابن تيمية إلا أنها

تحتاج إلى شرح زائد، وتفصيل لما أجمله، وتوضيح لما أشار إليه، وضبط وتصنيف لما فرقة ونشره»^(١).

- وقال: «...» وحينما ظرت الروح الموافقة للدعوة العامة للأمة ولتجديد الشريعة وإحياء السنة بعد موتها، وإخماد البدعة بعد شيوعها وارتفاعها، وتجسدت في شخصية شيخ الإسلام ابن تيمية - رضي الله عنه - الذي هو آية من آيات الله وحجة قائمة من حجج الله، وشيخ المصلحين، وملاذ المجددين، وسند الكاملين، وإمام العارفين، ووارث الأنبياء، وقدوة الأولياء، وسلمت إلى هذا المجدد العظيم رئاسة جميع مسالك الدعوة وسيادتها، والتجديد في العصر الأخير، وصار قطباً لرحاها، ونقطة مركزية لدائرتها. فهل كان لا يوجد في هذا العصر عالم من علماء الحق سوى شيخ الإسلام؟

... بل كان من بينهم كبار الحفاظ، وكبار الأئمة والمحققين والباحثين، وعباقرة المجتهدين والمفكرين الذين لن تلد الأمهات بعدهم مثلهم في العالم الإسلامي..

... فماذا تعتقدون في هؤلاء؟ هل يسع لأحد أن ينكر فضل هؤلاء النجباء الكرام وورعهم وتقواهم واتباعهم للحق... .

... مع وجود هؤلاء الأئمة الأعلام وعباقرة الفنون في هذا العصر لم يحظ أي واحد منهم بالمكانة التي حظي بها شيخ الإسلام ابن تيمية في القيام بواجبات الدعوة والجهاد بكل شجاعة وعزم وصبر وتحمل للمشاق التي تقشعر الجلود من تصورها. وكان شيخ الإسلام ابن تيمية قد خص به دون غيره، وهي حقيقة لامعة مثل الشمس، واضحة لكل صاحب عين مبصرة.

(١) «التذكرة» (١٧٩ - ١٨٠).

ولا شك أن هؤلاء الأعلام قاموا بأعمال جلييلة في نواح معينة، ولكن شيخ الإسلام قد أتى بما كانوا يشتغلون به أحسن مما أتوا، وسبقهم فتركهم وراءه على مسافات بعيدة في عزم الدعوة، وتجديد معالم الدين، ورفع أعلام السنة، وإخماد الشرور والبدع، وإبراز المعاني الخفية من الكتاب والسنة، وكشف غوامض المعارف وأسرار الحكم النبوية وتفجير ينابيع الحكمة من اللسان والجنان، والجهاد في سبيل الله بالسيف والقلم واللسان، ووقف وحيداً على قمة العلوم الموهوبة، والأعمال الموفقة حيث تعي وتحسر أفكار أقرانه وأخيلة معاصريه في التفكير فيه، فاعترفوا جميعاً بلفظ واحد:

«ما رأينا مثله وإنه ما رأى مثل نفسه».

□ وقال الحافظ الذهبي في معجم شيوخه بعد ما أعياه تحرير محاسن نادرة الأرض وأعجوبة الدهر هذا، ولم يصل إلى نهاية مدائحه فأمسك عنها وقال:

«وهو أكبر من أن ينه على سيرته مثلي. والله لو حلفت بين الركن والمقام أني ما رأيت بعيني مثله وأنه ما رأى مثل نفسه لما حثت.

□ وكفاك بالذهبي شاهداً:

تقي الدين أضحى بحر علم يجيب السائلين بلا قنوط
أحاط بكل علم فيه نفع فقل ما شئت في البحر المحيط^(١)
ووقف أبو الكلام آزاد مع الدعوة السلفية التي جدد معالمها شيخ الإسلام، وبذل في سبيلها كل غال ونفيس، ودعم هذه الحركة العظيمة بكتبه ومقالاته وصفحه ومجلاته وتلامذته ومسترشديه.

ولما احتل أبو الكلام آزاد منصب نائب رئيس الوزراء في الحكومة

(١) من كتاب «التذكرة» لأبي الكلام آزاد ملخصاً.

الهندية، وصار أول وزير للمعارف فيها بعد استقلال الهند من حكم الاستعمار لم يغفل عن إحياء معارف ابن تيمية ونشر علومه وأفكاره. ومن مآثره في هذه الفترة من الزمن مع زحمة الأشغال الرسمية أنه بذل جهده لطبع كتابين مهمين لشيخ الإسلام.

أحدهما: «الرد على المنطقيين»: قام بنشره الشيخ عبدالصمد شرف الدين في المطبعة القيمة في بمبائي سنة ١٣٦٨هـ بتعاون من أبي الكلام آزاد. والثاني: «الصارم المسلول على شاتم الرسول». طبعته «دائرة المعارف العثمانية» بحيدر آباد.

ومن الجهود العظيمة التي لا تنسى وقوفه مع أهل الحديث والسنة والجماعة: السلفية في أنحاء العالم الإسلامي للدفاع عن الأعمال التي أنحرتها حكومة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود في الحجاز لتطهير مكة المكرمة والمدينة الطيبة، والطائف من آثار الشرك.

وبهذه المناسبة أصدر أبو الكلام آزاد مجلة «الجامعة» بالعربية للدفاع عن الموحدين في هذه القضية. وكتب مقالات علمية مدللة بالكتاب والسنة لتعزيز موقفهم، ودحض آراء مخالفيهم، وأهمها مقالان:

الأول: الأمير ابن سعود والحرمين الشريفين ومسألة هدم القباب (يحتوي على ٢٣ صفحة).

والثاني: حكم المباني على المقابر، والفرق بين اتباع السنة وعاطفة التشبه بعادات النبي ﷺ (يحتوي على ٧٦ صفحة).

وهذان المقالان ردّ مقنع لمن يحترم العلم والبرهان، وردّ مفحم للمكابير الذي ليس لديه حجة إلا التعصب والهوى. وما رأيت في قوة الاستدلال وبراعة الأسلوب نظيراً لهذين المقالين في موضوعهما.

واختار أبو الكلام آزاد موقفاً واضحاً من دعوة شيخ الإسلام تيمية وإحياء علومه ومعارفه. وتأثر بصراحته في هذا الأمر كثير من الأدباء والمفكرين والكتاب والمثقفين وعلى رأسهم:

- الكاتب الإسلامي والمؤرخ الكبير غلام رسول مهر - رحمه الله - وقد ألف رسالته «سيرة ابن تيمية» (طبعت ١٣٤٣هـ - ١٩٢٥م في ٦٦ صفحة) وهي تحتوي على مقدمة وسبعة أبواب مختصرة جامعة. واعترف المؤلف بأن هذه الرسالة انعكاس لكتابات إمام الهند أبي الكلام آزاد في هذا الباب.

وكذلك كتب المؤلف المذكور مقدمة جامعة على كتاب «الإمام ابن تيمية» للدكتور غلام جيلاني برق الذي أعدّ لنيل شهادة «الدكتوراه» من جامعة «فنجاب». وزادت هذه المقدمة قيمة الكتاب في نظر القراء.

ولما عزم الشيخ محمد عطاء الله حنيف الفوجياني - رحمه الله - على إعداد الطبعة الأردنية لكتاب «ابن تيمية: حياته وعصره وآراؤه وفقهه» لأبي زهرة، مع تعليقاته النفيسة وانتقاداته القوية، وقع نظره لتقديم هذه الطبعة الأردنية على الأستاذ غلام رسول مهر - رحمه الله - وذلك لكفاءته البالغة في أداء حق المقدمة على كتاب يتعلق بشيخ الإسلام - رحمه الله -.

وقد كان أثار أبو زهرة في كتابه شبهات كثيرة حول دعوة شيخ الإسلام، وحركة الإمام محمد بن عبد الوهاب، وحكومة آل سعود. فأتاها الأستاذ غلام رسول مهر في هذه المقدمة من قواعدها، فدافع عن شيخ الإسلام بالأدلة والبراهين، وأعاد الحق إلى نصابه، وذكر حقائق تاريخية كذبت آراء أبي زهرة في دعوة ابن عبد الوهاب وحكومة آل سعود. وأعطى كلاً من الدولة العثمانية والدولة الشريفة والدولة السعودية حقها من الإنصاف. ولا يتسع المقام لذكر تحليلاته بهذا الشأن، ولي عودة إلى ذلك في

فرصة أخرى إن شاء الله، ولكنني أقول: إن الأستاذ غلام رسول مهر - رحمه الله - كان موفقاً في هذا البحث الذي لم يسبق إليه .

□ قال العلامة محمد عبدالعزيز الخولي:

«ولا يوجد في الشعوب الإسلامية على كثرتها من وفي الحديث قسطه من العناية في هذا العصر، مثل إخواننا مسلمي الهند، أولئك الذين وجد بينهم حفاظاً للسنة، ودارسون لها على نحو ما كانت تدرس في القرن الثالث، حرية في الفهم، ونظر في الأسانيد.

كما طبعوا كثيراً من كتبها النفيسة التي كادت تذهب بها يد الإهمال، وتقضي عليها غير الزمان.

وإن أساس تلك النهضة في البلاد الهندية أفذاذ أجلاء، تمخضت بهم العصور الحديثة، وانهجوا في تحصيل العلوم نهج السلف، فنبه شأنهم وعلا أمرهم، وذاع صيتهم. وتكونت جمعيات سلكت سبيلهم، وعملت على نشر مبادئهم فكان لها ذلك الأثر الصالح والسبق الواضح.

ومن أشهر هؤلاء الأعلام: ولي الله الدهلوي صاحب التصانيف في اللغتين: العربية والفارسية، وأشهرها كتاب «حجة الله البالغة». والسيد صديق حسن خان ملك بهوفال صاحب التصانيف الكثيرة أيضاً. . .

وفي الهند الآن طائفة كبيرة تهتدي السنة في كل أمور الدين، ولا تقلد أحداً من الفقهاء ولا المتكلمين وهي طائفة المحدثين»^(١).

ولا ينسى فضل علماء الهند الآخرين كالأستاذ شبلى النعماني:

- وأثنى العلامة محمد منير الدمشقي على حركة أهل الحديث في الهند

فقال:

(١) «مفتاح السنة» للخولي.

«وهي نهضة عظيمة أثرت على باقي البلاد الإسلامية، فاقنتى بها غالب البلاد الإسلامية في طبع كتب الحديث والتفسير»^(١).

- وقد اعترف بفضل حركة أهل الحديث الشيخ مناظر أحسن الكيلاني من تلامذة الشيخ محمد أنور الكشميري الحنفي، فقال:

«يُعترفُ أن اعتناء أحناف شبه القارة الهندية بالنبعين الأساسيين للدين (الكتاب والسنة) فيه دخل كبير لحركة أهل الحديث، ورفض التقليد... وإن لم يترك عامة الناس التقليد إلا أنه قد تحطّم سحر التقليد الجامد، والاعتماد الأعمى»^(٢).

فحركة أهل الحديث في الهند ثمرة لدعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وامتداد طيب لها ورحم الله ابن تيمية حين يقول: «ومن المعلوم أن أهل الحديث والسنة أخص بالرسول وأتباعه، فلهم من فضل الله وتخصيصه إياهم بالعلم والحلم، وتضعيف الأجر ما ليس لغيرهم كما قال بعض السلف: «أهل السنة في الإسلام كأهل الإسلام في الملل».

□ وقال أيضاً:

«من المعلوم أن أهل الحديث يشاركون كل طائفة فيما يتحلون به من صفات الكمال ويمتازون عنهم بما ليس عندهم. فإن المنازع لهم لا بد أن يذكر فيما يخالفهم فيه طريقاً أخرى مثل المعقول، والقياس، والرأي، والكلام، والنظر، والاستدلال، والمحااجة، والمجادلة، والمكاشفة، والمخاطبة، والوجد، والذوق، ونحو ذلك»^(٣).

(١) «نموذج من الأعمال الخيرية» للدمشقي (ص ٤٦٨) - طبع المطبعة المنيرية.

(٢) «جهود مخلص» (ص ٧٥).

(٣) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٤/ ١٤٠).

وكل هذه الطرق لأهل الحديث صفوتها وخلاصتها: فهم أكمل الناس عقلاً، وأعدلهم قياساً، وأصوبهم رأياً، وأسدّهم كلاماً، وأصحهم نظراً، وأهداهم استدلالاً، وأقومهم جدلاً، وأتمهم فراسة، وأصدقهم إلهاماً، وأحدّهم بصراً ومكاشفة، وأصوبهم سمعاً ومخاطبة، وأعظمهم وأحسنهم وجداً وذوقاً.

وهذا هو للمسلمين بالنسبة إلى سائر الأمم، ولأهل السنّة والحديث بالنسبة إلى سائر الملل».

* الشيخ رحمت الله بن خليل الرحمن الكيرانوي العثماني القرشي الهندي، وجهوده في مقاومة التنصير، وكتابه «إظهار الحق»:

وحين نتكلم عن التنصير في الهند، الذي مهد له الاستعمار الإنجليزي، وتحويل المساجد إلى الكنائس، وبناء ألف مدرسة تبشيرية كنيسية يدرس فيها خمسة وستون ألف طالب، ويتبع للكنائس معاهد متخصصة وكليات في «هوجلي» و«كلكتا» و«لاهور» و«غازي يور» و«كليكرة» تدار بأموال الوقف الإسلامي... نتكلم عن المنصر هنري مارتين، الذي وضع أساساً قوياً للتنصير بترجمة الإنجيل إلى الفارسية والأردية... نأتي إلى خاتمة المطاف إلى المستشرق الأمريكي الكاثوليكي د. فندر، والذي تحول إلى البروتستانتية وأرسلته كنيسة إنجلترا رئيساً للمنصرين في الهند.

تزعم فندر الحملة التنصيرية داخل الهند بإلقاء المواعظ والخطب في الاجتماعات العامة والمآتم والأفراح الإسلامية والهندوسية، والتهجم على العقائد غير النصرانية، والظعن في الإسلام، والتشكيك في القرآن الكريم وفي رسول الإسلام ﷺ، وتحدي علماء المسلمين علناً.

وكان يوجه المنصرين إلى مختلف المديرية الهندية، ويدربهم على

إلقاء الخطب والمحاضرات. وألف عدة كتب للدعوة للنصرانية، أهمها وأخطرها «ميزان الحق»، بل هو أخطر كتب المنصرين على الإطلاق، وتلقى المنصرون والقساوسة هذا الكتاب بالقبول والتقدير، لشموله جميع الشبه والافتراءات، وكل ما يمكن أن يعترض به المنصرون والمستشرقون على دين الإسلام، بالإضافة... لشموله جميع أوجه الرد والدفاع عن العقائد النصرانية، ونفدت له ثلاث طبعات متتالية في الهند بالإنجليزية والفارسية والأردية، وترجم فيما بعد للتركية والعربية. وهذا الكتاب هو الينبوع الذي منه يستقي المبشرون مطاعنهم في الإسلام، ويعد صاحبه به أخطر منصر دخل القارة الهندية. وقد عد هوري زعزعة فندز لعقيدة المسلمين في الهند بترجمته كتابه «ميزان الحق» إلى اللغتين الفارسية والأردية، أعظم من عمل القس هنري مارتين بترجمته الإنجيل للفارسية والأردية، كما ورد في كتاب الغارة على العالم الإسلامي (ص ٣١ - ٣٢)، وقد عد إبراهيم خليل أحمد - القسيس المصري الذي أسلم - في كتابه الاستشراق والتبشير (ص ٦٤، ٦٢) أخطر أربعة كتب للمنصرين، وجعل أولها وأكثرها خطورة كتاب «ميزان الحق».

وكان لهذا الكتاب ردود فعل عنيفة، حصلت عند المسلمين إثر صدور هذا الكتاب؛ لانتشاره السريع، وسكوت كثير من العلماء عن الرد عليه فترة من الزمن، بحيث خيف على ضعاف النفوس من الردة.

بل إن رام شندر الهندوسي الذي كان صديقاً لفندز وللشيخ رحمت الله، وكان محباً لفندز وكتبه، تجرأ أن يطلب من الشيخ رحمت الله - وهو أستاذ الهند بلا منازع في الرد على النصارى - زيارة فندز لعله يهتدي إلى النصرانية!!

□ يقول الشيخ أبو الحسن الندوي في مجلة البعث الإسلامي عدد ٩

سنة ١٣٩٩هـ (ص ٥٥): «وقد استفحل أمر فندر ورأى أن الجو قد خلا له، فازداد جراءةً وتحدياً، ورأى الشيخ رحمت الله أنه لا سبيل إلى الحد من نشاط هؤلاء القسوس، وفي مقدمتهم وعلى رأسهم القس فندر، وإعادة الثقة إلى نفوس المسلمين إلا مناظرة فندر في مجمع حافل، يحضره المسلمون والمواطنون والحكام الأوروبيون والنصارى والمنصرون، وكان فندر كثير الإدلال بكتابه ميزان الحق، فخوراً بتبجحاته، ويرى أنه ليس من السهل معارضته ونقضه من علماء المسلمين.

كل هذه الأسباب مجتمعة، جعلت الحاجة ماسة للرد على هذا القسيس، مما حفز الشيخ رحمت الله للدعوة إلى مناظرته علناً حتى يعريه، ويفقده كل هذا الأثر في الأوساط الهندية.

فأرسل الشيخ رحمت الله تسع رسائل إلى الدكتور القسيس فندر لترتيب أمور المناظرة العلنية بينهما، بدأت المراسلات بتاريخ ٢٣ آذار، وانتهت في ٨ نيسان سنة ١٨٥٤، ويظهر منها أن الشيخ رحمت الله قد أشرب قلبه حب المناظرة، وكان يخشى عدم قبول فندر للمناظرة العلنية، فقد كان رسائل فندر إليه تحوي شروطاً صعبة لتثبيط همته، فقبلها، وتم الاتفاق بينهما على أن تكون المناظرة في خمسة موضوعات، هي: النسخ، والتحرير، وألوهية المسيح والتثليث، وإعجاز القرآن، ونبوة محمد ﷺ، وأن تكون المناظرة يومي الإثنين والثلاثاء ١١، ١٢ رجب سنة ١٢٧٠هـ و ١١ نيسان سنة ١٨٥٤م في موضوعي النسخ، والتحرير، ومكان المناظرة في خان عبدالمسيح الذي كان مدرسة في السابق، وأن يكون القسيس فزنج مساعداً للقسيس فندر، وأن يكون الدكتور محمد وزير خان أبادي مساعداً للشيخ رحمت الله، وكان محمد وزير خان قد درس الطب في لندن وتخرج عام ١٨٣٢م فأتقن اللغتين الإنجليزية واليونانية، واطلع على المسيحية في مصادرها

الأصلية، وعند عودته إلى الهند أحضر معه عددًا من الكتب الأصلية عن النصرانية وأقوال علمائها المحققين.

وتم انعقاد مجلس المناظرة العام في اليوم الأول ١١ رجب في تمام الساعة السادسة والنصف صباحًا، في حي عبدالمسيح ببلدة أكبر أباد، وقد توافد الناس لحضور المناظرة من المسلمين والمسيحيين والوثنيين، وكان على رأس الحضور أمراء المسلمين والهندوس وحكام الإنجليز وأعيان البلدة والوجهاء وكبار الموظفين المدنيين والعسكريين، كما حضرها القضاة والعلماء المسلمون والقساوسة والمنصرون ومراسلوا الصحف، وقد زاد عدد الحضور في هذا اليوم على خمسمائة نفس، وتناقل الناس خبر المناظرة، فزاد عدد الحضور في اليوم الثاني على ألف نسمة من جميع الأطراف.

وقد أسفرت هذه المناظرة الكبرى عن:

تعرية فندر وكتابات:

فقد استطاع الشيخ رحمت الله بفضل الله في هذه المناظرة أن يظهر فندر للناس على حقيقته، وتعرية كتاباته التي ملئت تبجحًا وتحديًا، فأظهر تناقضه في مواضع عديدة من كتبه، وأنه كان يكتب بغير علم، وقد تراجع فندر عن كتابات كتبها، وكفي انتصارًا للشيخ، أنه أظهر للحاضرين ضلالة علم فندر، وتهربه عن الجواب بطرق شتى.

اعتراف القسيس فندر العلني وصاحبه بوقوع النسخ والتحريف في كتب العهدين: بسبعة مواضع أصلية، منها أكبر شاهد لهم التلث، وهو ما في رسالة يوحنا الأولى ٧/٥ - ٨، من أن الذين يشهدون في السماء ثلاثة، وهم واحد.

كما اعترف بوجود أربعين ألفًا موضع سميها سهو الكاتب أو اختلاف العبارة، مع عدم القدرة على تعيين الصداقة جزمًا، وقدم القول بأن

اختلافات العبارة أربعمائة ألفاً، على القول القائل بأنها مائة ألف وخمسون ألفاً، وهي ما يطلق المسلمون عليه اسم التحريف النافي لبقاء إلهامية كتب العهدين.

فلما ظهرت الغلبة لرحمت الله في مسألتى النسخ والتحريف، ورأى ذلك صاحب الميزان «فندر»، وسد باب المناظرة، ووقع في عرض الشيخ ونفسه، ولعل القسيس «فندر» خشي أن يظهر المزيد من مثالب كتاباته، وخاصة مسألتى الألوهية والنبوة، بل لعله خشي أن يهتدي إلى الله وإلى الدين الحق، بعد أن ثبت له الشيخ بطلان عقيدة ألوهية المسيح وثبوت نبوة محمد ﷺ، على ما كان مشروطاً من دخول المغلوب في دين الغالب منهما.

وبعد هزيمة فندر في المناظرة، وجره العار الكبير والحزي على الكنيسة، لم يستطع البقاء في الهند، وسافر إلى ألمانيا وسويسرا وبريطانيا، ثم اختارته الكنيسة منصرفاً في مقر الخلافة الإسلامية في القسطنطينية فسافر إليها سنة ١٨٥٨م.

وقد اتصل فندر بالسلطان عبدالعزيز خان، وزور أخبار المناظرة، وزعم أن الغلبة فيها كانت له، ثم دعا مسلمي تركيا إلى الاقتداء بإخوانهم مسلمي الهند، حيث زعم أنهم تحولوا إلى النصرانية، وأن المساجد أصبحت كنائس، وأخذ يتجول في أرجاء تركيا يشيع أخبار هذه المناظرة بطريقته الخاصة، معتمداً على الكذب وتزوير الحقائق؛ لرفع مكانته وستر فضائحه.

ولكن السلطان عبدالعزيز خان أصيب بغم شديد لسماعه أخبار فندر، وخصي أن تؤثر هذه الإشاعات على أبناء المسلمين، وقد علم من الحجاج الأتراك أن الشيخ رحمته الله موجود في مكة المكرمة - بعد مصادرة الإنجليزية لأمواله، وجعلوا مكافأة ألف روية لمن يدلهم على الشيخ رحمت الله،

وحظروا بيع كتبه وطبعها، فاضطر للهجرة متخفياً حتى وصل إلى مكة سنة ١٨٦٢م - فعجل السلطان عبدالعزيز بالأمر إلى أمير مكة الشريف عبدالله بن عون، بإرسال الشيخ رحمت الله إلى دار الخلافة؛ لينظر فندر في تركيا. ولما حل الشيخ ضيفاً رسمياً في قصر الخلافة، وسمع فندر بذلك فر هارباً من تركيا.

وقد أوعز السلطان العثماني بترحيل المنصرين عن تركيا، وحظر نشاطهم، ومصادرة كتبهم ومنع انتشارها.

ولما سمع السلطان عبدالعزيز العلماء والوزراء وكبار رجال الدولة، طلب من الشيخ أن يقص خير المناظرة، فلما استبان للسلطان طول باع الشيخ في هذه الموضوعات، وتمكنه منها، طلب منه تأليف كتاب باللغة العربية يضم مسائل المناظرة الخمس، فعقد الشيخ العزم على تأليف كتاب يكون سداً منيعاً في وجه المنصرين، فألف كتابه «إظهار الحق» ليكون مرجعاً لطلاب العلم والباحثين عن الحق والمتخصصين في هذا الفن.

ولو كان فندر يعلم أن مجيئه إلى تركيا وكذبه على السلطان عبدالعزيز خان، وترويره أخبار المناظرة، سيكون سبباً في تأليف هذا الكتاب، لفضل البقاء في بلاده، أو قطع لسانه، كي لا يخرج هذا السفر الجليل إلى عالم الوجود، فأبى دارس لعلم مقارنة الأديان والرد على العقائد الباطلة، وأي طالب للرد على المنصرين والمستشرقين، وأي باحث عن الحق بخصوص كتب أهل الكتاب وعقائدهم، ولا يطلع على «إظهار الحق»، يكون قد فاتته من هذا العالم زبدته، ولن ينال مادته في أي كتاب آخر.

فهو كتاب في فنه آية، وليس وراءه لمبتغي الزيادة غاية.

أظهرت أنواره أسرارها	كم جلت أقمساره ليل ارتياب
نعم مبناه ريساض أثمرت	در معناه لمن يدري الخطاب
كل غاوي لو رآه منصفاً	من ظلام الكفر بالإيمان طاب

وقد طبع الكتاب أكثر من عشر طبعات بالعربية، وأمر السلطان العثماني عبدالحميد خان بترجمته وطباعته وتوزيعه في العالم الإسلامي، وترجم إلى تسع لغات أجنبية، منها: الألمانية والفرنسية والإنجليزية، وترجم إلى التركية. وغازب النصارى صدور هذا الكتاب، فأخذوا يشترون الكتاب من الأسواق بجميع ترجماته وطبعاته، ويجمعونها ثم يتلفونها بالحرق، قاصدين إعدام وجوده من الأسواق العالمية، ومنع وصوله إلى أيدي القراء عامة والنصارى خاصة، وقد علقت صحيفة اللندن تايمز على هذه العملية الحاقدة بقولها: «لو دام الناس يقرءون هذا الكتاب لوقف تقدم المسيحية في العالم».

* مناظر الإسلام ومحامي المسلمين في القارة الهندية وبطل الإسلام العالم

الرباني ثناء الله الأمر تسري من أخزى الله على يديه القادياني والقاديانية:

□ لما استفحل أمر القاديانية وعمّ دجلهم القارة الهندية على يد زعيمهم القمى عميل الإنجليز، الكذاب الدجال غلام أحمد القادياني وادعى أنه ابن الله بل عين الله وأن النبوة لم تختتم بمحمد ﷺ بل هو نبي بعده، وادعى أن عقيدة الجهاد عقيدة نجسة، وأهان الأنبياء، وفضل نفسه عليهم فقال: «جاء أنبياء كثيرون؛ ولكن لم يتقدم أحد عليّ في معرفة الله، وكل ما أعطى لجميع الأنبياء أعطيت أنا وحدي بأكمله»^(١). وفضل نفسه على آدم فقال: صار آدم ذليلاً مصغراً، ثم خلقتني الله لكي أهزم الشيطان».

□ وفضل نفسه على نبي الله نوح فيقول: «إن الله أنزل لصدق دعواي

آيات وبيّنات بهذه الكثرة، لو أنزلت على نوح لم يغرق أحد من قومه»^(٢).

□ وفضل نفسه على نبي الله يوسف فقال: «إن يوسف هذه الأمة -

(١) «در ثمين» للقادياني (ص ٢٨٧، ٢٨٨).

(٢) «ما الفرق في آدم والمسيح الموعود» للقادياني.

يعني أنا العاجز الحقيير - أفضل من يوسف بنى إسرائيل؛ لأن الله شهد لبراءتي بنفسه، وبآيات كثيرة، حينما احتاج يوسف بن يعقوب لبراءته إلى شهادة الناس»^(١).

□ وتناول على نبي الله ورسوله محمد ﷺ فقال: «إن النبي له ثلاثة آلاف معجزة، ولكن معجزاتي زادت على مليون معجزة»^(٢).
ويقذف الأنبياء فيقول هذا الفاجر: «أنا أرى بأن المسيح ما كان ينتزه عن شرب الخمر»^(٣).

□ ويقول هذا الكافر للقاضي يار محمد القادياني: «إنه رأى نفسه كأنه امرأة، وإن الله أظهر فيه قوته الرجولية»^(٤).

ولقد نازل العلماء غلام أحمد القادياني الدجال، وأفتوا بالإجماع بكفره ودجله، وكان على رأس هؤلاء العلماء الشيخ الجليل العلامة ثناء الله الأمر تسري؛ مناظر الإسلام، ومحامي المسلمين في القارة الهندية، فقد جرى بينه وبين الغلام القادياني عدة مناظرات، ومناقشات تحريرية، وتقريرية، ودوماً كان الانتصار حليفاً لرجل إلهي^(٥)، وبطل الإسلام، فاستشاط من ذلك المتنبئ القادياني غضباً، وأصدر نشرة سنة ١٩٠٧م، وبتاريخ ١٥ إبريل بالضبط، وكتب فيها ما يلي:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نحمده ونصلي على رسوله الكريم، يستلونك أحق هو قل إي وربى إنه

(١) «براهين أحمدية» للقادياني.

(٢) «تذكرة الشهداء» للغلام (ص ٤١).

(٣) «ريويو» (١/١٢٣)، ١٩٠٢م.

(٤) «ضحية الإسلام» ليار محمد (ص ٣٤).

(٥) «هكذا سماه العلامة الشيخ رشيد رضا في مجلته المنار.

لحق إلى خدمة الأستاذ ثناء الله .

السلام على من اتبع الله، من زمان وأنا أكذب وأفسق في مجلتكم «أهل حديث»، ودائماً تسمونني في مجلتكم هذه ملعوناً كذاباً، ودجالاً مفسداً، وتشهري في العالم بأني مفترى كذاب دجال، وأفترى في دعواي المسيحية، فأنا تأذيت منك كثيراً وصبرت، ولكني لما رأيت نفسي بأني مأمور لنشر الحق، وأنت تمنع العالم من التوجه إليّ بسبب افتراءاتك عليّ إن أنا كذاب ومفترى؛ كما تذكرني في مجلتك؛ فأهلك في حياتك؛ لأنني أعلم أن عمر الكذاب والمفسد لا يكون طويلاً؛ بل هو يموت خائباً في حياة أشد أعدائه بالذلة والهوان، وتكون في موته منفعة لعباد الله؛ حيث لا يضلهم، فإن لم أكن كذاباً ومفترياً، بل أكون متشرفاً بمخاطبة الله والمكالمة معه، وأكون مسيحاً موعوداً؛ فادعو الله أن لا تنجو من عاقبة المكذبين، حسب سنة الله فأعلن: إن لم تمت أنت في حياتي بعقاب الله، الذي يكون من عند الله محضاً، مثل أن يموت بمرض الطاعون أو الكوليرا، فلن أكون مرسلأ من الله تعالى، وهذا لا أقول بنودة، بل طلبت القضاء من الله تبارك وتعالى، وأدعو الله؛ يا مولاي البصير القدير، العليم الخبير، يا عالم أسرار القلوب؛ إن أنا كاذب ومفسد في نظرك، وأفترى عليك ليلاً ونهاراً يا الله، فأهلكني في حياة الأستاذ ثناء الله، وسره وجماعته بموتى آمين.

ويا الله أنا صادق، وثناء الله على باطل، وكذاب في التهم التي يلصقها بي، فأهلكه - يا رب العالمين - في حياتي بالأمراض المهلكة؛ مثل الطاعون أو الكوليرا أو غيره من الأمراض، آمين. يا رب أنا أوذيت وصبرت، ولكني أرى الآن أنه قد تجاوز الحد، وأنه يظنني أفسق من السارقين والغاصبين الذين يضررون العالم، ويحسبني أردل خلق الله، وقد شهري في البلاد النائية بأني في الحقيقة مفسد، ونهَاب وطماع، وكذاب ومفترى،

وخبيث، وإن لم يكن لهذه الكلمات صدّي، كنت صبرت عليه؛ ولكني أرى أن ثناء الله يريد بهذه التهم أن يفنى دعوتي، ويهدم عمارتي التي بنيتها أنت يارب، ويا من أرسلتني، ولذا ألتجأ إليك يا الله، آخذًا بذيل رحمتك وتقديسك، فاقض بيني وبين ثناء الله بالحق، وأهلك الكذاب والمفسد في حياة الصالح أو ابتليه في آفة؛ تكون مثل الموت، فافعل هكذا يا ربي الحبيب، آمين ثم آمين ﴿ربنا افح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾. وأخيرًا، أرجو من الأستاذ ثناء الله أن ينشر هذه النشرة في مجلته، ثم يعلق عليها ما يشاء، فالقضاء الآن بيد الله.

الراقم عبدالله الصمد غلام أحمد المسيح الموعود، عافاه الله وأيده^(١). ويعد هذا الإعلان والدعاء بعشرة أيام، نشر الغلام القادياني في جريدة قاديانية: إن كل ما قيل من ثناء الله ليس من عند أنفسنا، بل من قبل الله، كما ألهمت الليلة عن الدعاء الذي دعوته ﴿أجيب دعوة الداع﴾، ومعنى هذا الإلهام أن دعوتي قد قبلت^(٢).

وفعلًا قبلت دعوته هذه، وقُضي بينه وبين ثناء الله بالحق؛ فبعد ثلاثة عشر شهرًا وعشرة أيام بالضبط جاء قضاء الله وقدره، بصورة بشعة؛ كان يتمناها للشيخ الجليل ثناء الله، نعم بنفس الصورة، وب نفس المرض الذي نصّ عليه هو! بالكوليرا.

مات غلام أحمد في العاشرة والنصف صباحًا بتاريخ ٢٦ مايو سنة ١٩٠٨م، وبقي ثناء الله حيًّا بعد موته قريبًا من أربعين سنة يهدم بنيان القاديانية ويقمع جذورهم^(٣).

(١) «إعلان الغلام القادياني» المنشور بتاريخ (١٥/٤/١٩٠٧م)، «المندرج في تبليغ رسالت»

(١٠/١٢٠) مجموعة إعلانات الغلام المرتبة من قاسم القادياني.

(٢) جريدة بدر القاديانية الصادرة في ٢٥/٤/١٩٠٧م.

(٣) كتاب «القاديانية» لإحسان إلهي ظهير.

* القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني يوجّه صلاح الدين ويصرف همّه لفتح بيت المقدس:

القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني وزير صلاح الدين وكتابه وقاضيه.. ومن جعله الله سبباً في أن يصرف صلاح الدين همّه لفتح بيت المقدس وقتال الفرنجة.

مرض صلاح الدين مرضاً شديداً فوجهه القاضي الفاضل أن ينذر إن شفاه الله تعالى أن يوجه همه كله لفتح بيت المقدس، ووفى صلاح الدين بنذره.

□ قال عنه صلاح الدين الأيوبي: «والله ما أخذت البلاد بالعساكر، بل برسائل القاضي الفاضل». ذلك هو وسام صلاح الدين يكرّم به كتبه، ويظهر أثر الكلمة الطيبة الهادفة في إصلاح شئون الأمة ونفي الخبث عنها، وتوحيد صفوفها، ورفعها إلى مستوى معركة المصير، التي أحسن صلاح الدين الإعداد لها حتى استرد بيت المقدس^(١).

□ قال عنه ابن كثير: «لم يكن له في زمانه نظير، ولا فيما بعده إلى وقتنا هذا مثيل، ولما استقرّ الملك صلاح الدين بمصر جعله كتبه وصاحبه ووزيره وجليسه وأنيسه، وكان أعز عليه من أهله وأولاده، وتساعدوا حتى فتح الأقاليم والبلاد، هذا بحسامه وسنانه، وهذا بقلمه ولسانه وبيانه.

كان يواظب كل يوم وليلة على ختمة كاملة، مع ما يزيد عليها من نافلة، طاهر القلب، وله أوقاف على تخليص الأسارى من أيدي النصارى، وقد اقتنى من الكتب نحواً من مائة ألف كتاب، وهذا شيء لم يفرح به أحد من الوزراء ولا العلماء ولا الملوك^(٢).

(١) مجلة الأدب الإسلامي العدد الثامن (ص ١).

(٢) «البداية والنهاية» لابن كثير (١٣/٢٧ - ٢٨).

□ قال عنه العماد الكاتب: «لم يُبقِ في مدة حياته عملاً صالحاً إلا وقدمه، ولا عهداً في الجنة إلا أحكمه، ولا عقداً في البر إلا أبرمه، فإن صنائعه في الرقاب وأوقافه على سبل الخيرات، متجاوزة عن الحسنات، لا سيما أوقافه لفكك أسرى المسلمين، إلى يوم الحساب. كان رحمه الله للحقوق ماضياً، وفي الحقائق ماضياً، سلطانه مطاع والسلطان له مطيع وفضله جامع، وشمل الفضل به جميع.

هو واحد الزمان، قد خصه الله بالمكانة والإمكان، والسلطان - رحمه الله - من مفتحاته فتوحه، ومختماتها ومبادئ أمور دولته وغاياتها. ما افتتح الأقاليم إلا بأقاليد آرابه وآرائه، ومقاليد غناه ونائه... وكانت كتابته كتائب النصر، ويراعته رائحة الدهر، وبلاغته للدولة مجمّلة، وللملكة مكملّة»^(١).

* الشيخ آق شمس الدين الرومي الفاتح المعنوي للقسطنطينية يوجه السلطان محمد الفاتح لفتح القسطنطينية ويحدد له موعد الفتح فيتم في نفس اليوم... ويقول محمد الفاتح: «ليس فرحي لفتح المدينة، إنما فرحي بوجود مثل هذا الرجل في زمني»:

هو الشيخ الرباني محمد بن حمزة الدمشقي ثم الرومي المعروف بابن شمس الدين، ارتحل مع والده إلى الروم، وقرأ على علمائها حتى صار مدرساً ببعض مدارسها، أصبح علماً من أعلام الحضارة الإسلامية في عهدها العثماني.

«وهو معلم الفاتح ومربيه يتصل نسبه بالخليفة الراشد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كان مولده في دمشق عام ٧٩٢هـ (١٣٨٩م) حفظ القرآن الكريم وهو

(١) «عيون الروضتين وأخبار الدولتين» لابي شامة (٢/٢٢٨ - ٢٣٠).

في السابعة من عمره، ودرس في أماسيا ثم في حلب، ثم في أنقره وتوفي عام ١٤٥٩م.

درس الشيخ آق شمس الدين للأمير محمد الفاتح العلوم الأساسية في ذلك الزمن، وهي القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه والعلوم الإسلامية واللغات العربية، والفارسية، والتركية، وكذلك في مجال العلوم العلمية من الرياضيات والفلك والتاريخ والحرب، وكان الشيخ آق ضمن العلماء الذين أشرفوا على السلطان محمد عندما تولّى إمارة مغنيسا ليتدرب على إدارة الولاية وأصول الحكم.

واستطاع الشيخ آق شمس الدين أن يقنع الأمير الصغير بأنه المقصود بالحديث النبوي «لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش»^(١).

وعندما أصبح الأمير محمد سلطاناً على الدولة العثمانية، وكان شاباً صغير السن وجهه شيخه فوراً إلى التحرك بجيوشه لتحقيق الحديث النبوي فحاصر العثمانيون القسطنطينية براً وبحراً، ودارت الحرب العنيفة ٥٤ يوماً^(٢).

□ قال الشوكاني عن الشيخ آق شمس الدين: «اشتهرت بركته وظهر فضله حتى أن السلطان محمد خان سلطان الروم لما أراد فتح القسطنطينية دعاه للجهاد فقال للسلطان سيدخل المسلمون القلعة في يوم كذا، فجاء ذلك الوقت الذي عينه لفتح القلعة فحصل مع بعض أصحابه فزع شديد من السلطان على الشيخ إذا لم يصح الخبر، فذهب إليه في تلك الحال فوجده في

(١) ضعيف: رواه أحمد في «مسنده»، والحاكم في «المستدرک» عن بشر الغنوي، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٤٦٥٨)، و«الضعيفة» رقم (٨٨٢).

(٢) «فاتح القسطنطينية محمد الفاتح» للدكتور علي محمد الصلابي (ص ١٤١ - ١٤٢) دار الإيمان.

خيمته ساجداً على التراب مكشوف الرأس وهو يتضرع ويبكي برفع رأسه وقام على رجليه وكبر وقال: الحمد لله منحنا فتح القلعة. قال الراوي: فنظرت إلى القلعة فإذا العسكر قد دخلوا بأجمعهم ففرح السلطان بذلك، وقال: ليس فرحي لفتح القلعة إنما فرحي بوجود مثل هذا الرجل في زمني»^(١).

هذه رواية الشوكاني في «البدر الطالع».. وفصل غيره فقال: «حاصر العثمانيون القسطنطينية براً وبحراً، ودارت الحرب العنيفة ٥٤ يوماً. وعندما حقق البيزنطيون انتصاراً مؤقتاً وابتهج الشعب البيزنطي بدخول أربع سفن أرسلها السلطان محمد الفاتح وقالوا له: «إنك دفعت بهذا القدر الكبير من العساكر إلى هذا الحصار جرياً وراء كلام أحد المشايخ - يقصدون آق شمس الدين - فهلكت الجنود وفسد كثير من العتاد، ثم زاد الأمر على هذا بأن عوناً من بلاد الإفرنج للكافرين دخل القلعة، ولم يعد هناك أمل في هذا الفتح»^(٢)، فأرسل السلطان محمد وزيره ولي الدين أحمد باشا إلى الشيخ آق شمس الدين في خيمته يسأله الحل فأجاب الشيخ: «لا بد من أن يمن الله بالفتح»^(٣)، ولم يقتنع السلطان بهذا الجواب، فأرسل وزيره مرة أخرى ليطلب من الشيخ أن يوضح له أكثر، فكتب هذه الرسالة إلى تلميذه محمد الفاتح يقول فيها: «هو المعز الناصر.. إن حدث تلك السفن قد أحدث في القلوب التكسير والملامة، وأحدث في الكفار الفرح والشماتة، إن القضية الثابتة هي: إن العبد يدبر والله يقدر والحكم لله... ولقد لجأنا إلى الله وتلونا القرآن الكريم وما هي إلا سنة من النوم جاءت بعدها الطاف الله تعالى فظهرت من البشارات ما لم يحدث مثلها من قبل»^(٤).

(١) «البدر الطالع» (١٦٦/٢ - ١٦٧).

(٢) «البطولة والفداء عند الصوفية» لأسعد الخطيب (ص ١٤٦).

(٣) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» للدكتور محمد حرب (ص ٣٧٣) - دار القلم دمشق.

(٤) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص ٣٧٣).

أحدث هذا الخطاب راحة وطمأنينة في الأمراء والجنود، وعلى الفور قرّر مجلس الحرب العثماني الاستمرار في الحرب لفتح القسطنطينية، ثم توجه السلطان محمد إلى خيمة الشيخ شمس الدين فقبل يده، وقال: علمني يا سيدي دعاءً أدعو الله به ليوفقني، فعلمه الشيخ دعاء، وخرج السلطان من خيمة شيخه ليأمر بالهجوم العام^(١).

أراد السلطان أن يكون شيخه بجانبه أثناء الهجوم فأرسل إليه يستدعيه لكن الشيخ كان قد طلب ألا يدخل عليه أحد الخيمة ومنع حراس الخيمة رسول السلطان من الدخول وغضب محمد الفاتح وذهب بنفسه إلى خيمة الشيخ ليستدعيه، فمنع الحراس السلطان من دخول الخيمة بناءً على أمر الشيخ، فأخذ الفاتح خنجره وشق جدار الخيمة في جانب من جوانبها ونظر إلى الداخل فإذا شيخه ساجداً لله في سجدة طويلة وعمامته متدحرجة من على رأسه وشعر رأسه الأبيض يتدلى على الأرض، ولحيته البيضاء تنعكس مع شعره كالنور، ثم رأى السلطان شيخه يقوم من سجده والدموع تنحدر على خديه، فقد كان يناجي ربه ويدعوه بإنزال النصر ويسأله الفتح القريب^(٢).

وعاد السلطان محمد «الفاتح» عقب ذلك إلى مقر قيادته ونظر إلى الأسوار المحاصرة فإذا بالجنود العثمانيين وقد أحدثوا ثغرات بالسور تدفق منها الجنود إلى القسطنطينية^(٣).

وعندما تدفقت الجيوش العثمانية إلى المدينة بقوة وحماس، تقدم الشيخ إلى السلطان الفاتح ليذكره بشريعة الله في الحرب وبحقوق الأمم المفتوحة كما هي في الشريعة الإسلامية^(٤).

(١) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص ٣٧٣).

(٢، ٣، ٤) المصدر السابق (ص ٣٧٤).

وبعد أن كرم السلطان محمد الفاتح جنود الفتح بالهدايا والعطايا وعمل لهم مأدبة حافلة استمرت ثلاثة أيام أقيمت خلالها الزينات والمهرجانات، وكان السلطان يقوم بخدمة جنوده بنفسه متمثلاً بالقول السائد «سيد القوم خادمهم»، ثم نهض ذلك الشيخ العالم الورع آق شمس الدين وخطبهم، فقال: يا جنود الإسلام، اعلّموا واذكروا أن النبي ﷺ قال في شأنكم: «لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا ويغفر لنا، ألا لا تسرفوا في ما أصابتم من أموال الغنيمة ولا تبذروا وأنفقوها في البر والخير لأهل المدينة، واسمعوا لسلطانكم وأطيعوه وأحبوه، ثم التفت إلى الفاتح، وقال له: يا سلطاني، لقد أصبحت قررة عين آل عثمان، فكن على الدوام مجاهداً في سبيل الله، ثم صاح مكبراً بالله في صوت جهوري جليد^(١).

وقد اهتدى الشيخ آق شمس الدين بعد فتح القسطنطينية إلى قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه بموضع قريب من سورة القسطنطينية^(٢).

ورأى الشيخ آق شمس الدين أبا أيوب الأنصاري متاماً وقال أبو أيوب له: شكر الله سعيكم حيث خلصتموني من ظلمة الكفر». وكان الشيخ آق شمس الدين أول من ألقى خطبة الجمعة في مسجد آيا صوفيا^(٣).

* الشيخ شمس الدين يخشى على السلطان من الغرور:

كان السلطان محمد الفاتح يحب شيخه شمس الدين حباً عظيماً،

(١، ٢) «محمد الفاتح» للدكتور سالم الرشدي (ص ١٤٩) - الإرشاد - جدة.

(٣) المصدر السابق (ص ١٤٩).

وكانت له مكانة كبيرة في نفسه وقد بين السلطان لمن حوله - بعد الفتح - : «إنكم ترونني فرحاً، فرحي ليس فقط لفتح هذه القلعة، إن فرحي يتمثل في وجود شيخ عزيز الجانب، في عهدي هو مؤدبي الشيخ آق شمس الدين.

وعبر الفاتح عن تهيبه لشيخه في حديث له مع وزيره محمود باشا، قال السلطان الفاتح: «إن احترامي للشيخ آق شمس الدين، احترام غير اختياري، إنني أشعر وأنا بجانبه بالانفعال والرهبة»^(١).

ذكر صاحب البدر الطالع أن: «... ثم بعد يوم جاء السلطان إلى خيمة صاحب الترجمة - أي آق شمس الدين»، وهو مضطجع فلم يقم له فقبل السلطان يده وقال له: جئتك لحاجة، قال: وما هي؟ قال: أدخل الخلوة عندك، فأبى فألح عليه السلطان مراراً وهو يقول: لا. فغضب السلطان وقال إنه يأتي إليك واحد من الأتراك فتدخله الخلوة بكلمة واحدة، وأنا تأبى عليّ، فقال الشيخ؟ إنك إذا دخلت الخلوة تجد لذة تسقط عندها السلطنة من عينيك فتختل أمورها فيمقت الله علينا ذلك، والغرض من الخلوة تحصيل العدالة، فعليك أن تفعل كذا وكذا، وذكر له الشيخ من النصائح ثم أرسل إليه ألف دينار فلم يقبل، ولما خرج السلطان محمدخان قال لبعض من معه: ما قام الشيخ لي، فقال له: لعله شاهد فيك من الزهو بسبب هذا الفتح الذي لم يتيسر مثله للسلطين العظام فأراد بذلك أن يدفع عنك بعض الزهو...»^(٢).

هكذا كان هذا العالم الجليل الذي حرص على تربية محمد الفاتح على معاني الإيمان والإسلام والإحسان، ولم يكن هذا الشيخ متبحراً في علوم الدين والتزكية فقط، بل كان عالماً في النبات والطب والصيدلة، وكان مشهوراً في عصره بالعلوم الدنيوية وبحوثه في علم النبات ومدى مناسبتها

(١) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص ٣٧٤).

(٢) «البدر الطالع» (٢/١٦٧).

للعلاج من الأمراض .

وبلغت شهرته في ذلك أن أصبح بين الناس يقول: «إن النبات ليحدث آق شمس الدين»^(١) .

□ قال الشوكاني عنه: «... وصار مع كونه طبيياً للقلوب طبيياً للأبدان فإنه اشتهر أن الشجرة كانت تناديه وتقول: أنا شفاء من المرض الفلاني...»^(٢) .

وكان الشيخ يهتم بالأمراض البدنية قدر عنايته بالأمراض النفسية، واهتم الشيخ آق شمس الدين اهتماماً خاصاً بالأمراض المعدية، فقد كانت هذه الأمراض في عصره تتسبب في موت الآلاف، وألف في ذلك كتاباً بالتركية بعنوان «مادة الحياة» قال فيه: «من الخطأ تصور أن الأمراض تظهر على الأشخاص تلقائياً، فالأمراض تنتقل من شخص إلى آخر بطريق العدوى، هذه العدوى صغيرة ودقيقة إلى درجة عدم القدرة على رويتها بالعين المجردة؛ لأن هذا يحدث بواسطة بذور حية»^(٣) .

وبذلك وضع الشيخ آق شمس الدين تعريف الميكروب في القرن الخامس عشر الميلادي، وهو أول من فعل ذلك، ولم يكن الميكروسكوب قد خرج بعد وبعد أربعة قرون من حياة الشيخ آق شمس الدين جاء الكيميائي والبيولوجي الفرنسي لويس باستير ليقوم بأبحاثه وليصل إلى نفس النتيجة .

واهتم الشيخ آق شمس الدين أيضاً بالسرطان وكتب عنه وفي الطب ألف الشيخ كتابين هما: «مادة الحياة»، و«كتاب الطب» وهما باللغة التركية والعثمانية، وللشيخ باللغة العربية سبع كتب هي [حل المشكلات، الرسالة

(١) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص ٢٧٥).

(٢) «البدن الطالع» (١٦٧/٢).

(٣) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص ٢٧٦).

النورية، مقالات الأولياء، رسالة في ذكر الله، تخليص الماتن، دفع الماتن، رسالة في شرح حاجي بايرام ولي^(١).

ومات الشيخ بموطنه كونيوك عام (١٦٦٣هـ - ١٤٥٩م) - رحمه الله - وأسكنه فسيح جناته وهذه سنة الله في خلقه، لا يخرج قائد رباني مغوار إلا وحوله علماء ربانيون يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر، ويشحذون هممه لإعادة مجد الإسلام الغابر... تقبل الله أعمالهم وأعلى ذكرهم فقد ملأوا الدنيا طيباً من عقب طيبهم... عبققت منه الأرواح وعبق منه التاريخ.

لآلى البيان في رجال من دولة آل عثمان

* شيخ الإسلام مصطفى صبري آخر شيوخ دولة الخلافة العثمانية المدافع

عن الإسلام والخلافة:

ظهر الشيخ في أواخر عهد الدولة العثمانية، والدولة مقبلة على الانهيار، ودعاة التغريب في أوج قوتهم. درس في مسقط رأسه (توقاد) الدراسة الابتدائية، ثم أخذ في حفظ القرآن الكريم، ومن ثم رحل إلى بلدة قيصرية، وكانت مركزاً للعلوم الدينية. وتلقى دراسة العلوم العقلية والنقلية عن مدرّسه الشيخ خوجة أمين أفندي. بعد ذلك انتقل إلى إستانبول حاضرة الخلافة الإسلامية.

وفي إستانبول شدّ الشيخ مصطفى صبري انتباه مشايخه بحدّة ذكائه وبقوّة حافظته وعمق تحصيله، وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره أصبح مدرّساً بجامع السلطان محمد الفاتح، وهو منصب مرموق يحتاج إلى جدّ واجتهاد وتحصيل طويل.

(١) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص ٣٧٦).

ثم أصبح أميناً لمكتبة السلطان عبدالحميد الثاني، وقد لفت انتباه السلطان عبدالحميد إليه بسعة اطلاعه وبتميزه وهو في سنّ شابة بين رجال العلم الدينيين في إستانبول، عاصمة الخلافة ومقرّها.

* رحلة كفاح:

وفي عام ١٩٠٨م، مثل منطقته توقاد في مجلس المبعوثان العثماني للجهر بأزائه في هذا المجلس النيابي. وكان في هذه الفترة رئيساً لتحرير مجلة «بيان الحق»، وهي مجلة إسلامية كانت تصدرها «الجمعية العلمية»، ثم أصبح عضواً في دار الحكمة الإسلامية.

ودار الحكمة الإسلامية مؤسسة علمية إسلامية أسست عام ١٩١٨م بأمر من السلطان محمد رشاد: بغية إيجاد حلول للمسائل الدينية التي تظهر في الدولة العثمانية أو أيّ مكان في العالم، كما تهدف إلى التصدي بالإجابة على الهجوم الذي يتعرض له الإسلام، إجابة تتبع من أحكام الإسلام.

ثم عمل الشيخ مصطفى صبري أيضاً بالسياسة، ولم يكن للسياسة عنده إلا معنى واحداً وهو جعل الشريعة الإسلامية أساساً لإدارة الدولة.

وعندما أتت حكومة حزب الحرية والائتلاف إلى الحكم عام ١٩١٩م، وتشكلت الحكومة برياسة الداماد فريد باشا، أصبح الشيخ مصطفى صبري أفندي شيخاً للإسلام (يلاحظ القارئ أن لقب أفندي لدى الأتراك يطلق على العلميين الدينيين).

وعندما سافر رئيس الوزارة إلى مؤتمر باريس، تولّى الشيخ النيابة عنه رئيساً لمجلس الوزراء العثماني.

وفي العهد الثاني لهذه الوزارة (عام ١٩٢٠م) جاء الشيخ مصطفى صبري شيخاً للإسلام، لكنه اختلف مع الوزراء في الرأي، فترك مشيخة

الإسلام. ثم سعى إلى تأليف حزب جديد هو حزب الحرية والائتلاف المعتدل.

إن استقالته هذه كانت بدء مرحلة كفاح أوسع من حياته المليئة بالكفاح، فقد كان الشيخ مصطفى صبري كما يقول صادق آل بايراق: «كان ينادي بالشرعية ويريد إحلال كلام الله محل الحكم في المجتمع» وكان يدافع عن هذا طوال حياته في بلاده وفي مهجره. كان يناضل بمفهومه ضد كل مختلف التيارات الفكرية.

* التحدي والتصدي:

ولم يكن بجوار الشيخ مصطفى صبري كادر من الإسلاميين كاف؛ ليتحمل الدفاع عن المفهوم الإسلامي في الحكم، وينادي به ويعممه مع الشيخ.

تصدى الشيخ مصطفى صبري لكل المفكرين والمسؤولين الذين أنجبتهم حركة التنظيمات العثمانية، ومن ثم حركة حزب الاتحاد والترقي؛ التي كانت ترى في الإسلام عقبة كثوداً ضد التطور وضد حركة التغريب الشاملة للدولة العثمانية. لذلك عاداه أنصار التغريب، وهم كثرة في موقع السلطة. كان السبب في هذا العداء السافر الذي أظهره المتغربون ضد الشيخ، أن الشيخ مصطفى صبري أفندي كان يجاهر بآرائه داعياً لفكره عملياً، ينادي به بكل فرصة وفي كل وقت، أما الآخرون من الإسلاميين فلم يكونوا قادرين على التصدي والجهر بالدعوة - بكل هذا الوضوح الذي فعله الشيخ - لفكرتهم الإسلامية؛ ولأن الفكر الذي طرحه شيخ الإسلام مصطفى صبري والنضال السياسي الذي قام به، لم يكن قد شوهه بين المسلمين لسنوات طوال سبخته.

تصدى شيخ الإسلام مصطفى صبري لدعاة الوقيعة بين العرب وبين الأتراك، وتصدى للدفاع عن مفهوم الإسلام في الحكم، وفي الحياة، كما

وقف وقفة رجل، ووقفه عالم، لمن أرادوا تشويه التاريخ الإسلامي. وتصدى أيضاً لحملة واسعة شنها دعاة الفكر الغربي عندما نادوا بخروج المرأة وسفورها. ولم يسلم من حملاته أولئك الذين تسموا باسم «المسلمون الجدد»، وأجاب في كتابه «المجددون الدينيون» على كل آرائهم.

□ كان يتناول كل حركة (ما لم تمسّ بالإسلام الصحيح)، وكان يتحول إلى مهاجم صعب؛ إذا ما تصرف أحد من معاصريه ضد هذا الذي يؤمن به، يقول الشيخ:

«مع رغبتى المخلصة في أن يصعد المسلمون إلى وجه عالم سعيد، ومع ذلك فإنني ألعن الذين يضغطون على ديننا صاعدين إلى عالم عالٍ يمكننا الوصول إليه.

عندما نصعد إلى هذا العالم يجب علينا وفي نفس الوقت أن نمسك الإسلام في أيدينا نلصقه بها ونضعه على رؤوسنا».

* الرحيل والدعوة في اليونان:

وفي عام ١٩٢٢م أجبر الشيخ مصطفى صبري على مغادرة بلاده، فهاجر إلى اليونان، حيث جمع المسلمين الأتراك في منطقة (تراقيا) الغربية ووحدهم، وأصدر هناك جريدة تركية بالحروف العربية سماها «يارين» أي الغد، تفاؤلاً بغد إسلامي مشرق. وأخذ الشيخ من خلال هذه الجريدة في نقد حركة التغريب في العالم الإسلامي، ونقد المجتمع التركي، ونقد النظام الكمالي في تركيا الذي عُرف باسم الحركة الكمالية، نسبة إلى مصطفى أتاتورك، وأخذ يحلل المصائب التي حلت بالعالم الإسلامي، وعلى رأسه الدولة العثمانية من جراء اتباع حركة التغريب.

إن في جريدة «يارين» مادة خصبة للدراسة وجهة النظر المعارضة

للكمالية من مقالات وتحليلات ودراسات وفكر وأدب .

□ ثم سافر الشيخ إلى مصر، ثم الحجاز، ثم مصر مرة أخرى، حيث استقر في القاهرة. وفي العاصمة المصرية أخذ الشيخ يناهض بأفكاره، بالعودة إلى العمل بالشريعة الإسلامية، ويفصل القول في مضار العلمانية. لذلك لم يترك له دعاة الفكر الغربي في مصر وقتاً للراحة. وعندما كان العلمانيون في مصر يصفقون لآتاتورك ولانقلاباته في تركيا قال الشيخ مصطفى صبري:

«إن الفصل بين الحكومة وبين الخلافة، يجرد الحكومة من كونها حكومة إسلامية. وهذا معناه أيضاً أنّ الحكومة التركية قد خرجت على دينها. إن الاتحاديين ومن أعقبهم قد عملوا كثيراً على نشر الإلحاد بين الأتراك. وقد كان هذا الطريق، هو أقصر الطرق إلى الوصول إلى غاياتهم».

□ كان الشيخ مصطفى صبري في نظر الكمالين مجرماً؛ أوردوه ضمن قائمة الـ ١٥٠ شخصاً غير المرغوب فيهم، لكنه في نظر الإسلاميين الأتراك بطلاً ورغم أن قراراً بالعفو عن قرار الـ ١٥٠ شخصاً قد صدر من بعد، إلا أن الشيخ لم يُحسب بالعودة وبقي في مصر إلى أن توفي في القاهرة عام ١٩٥٤. توفي شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي بعد حياة حافلة بالدفاع عن الفكرة الإسلامية في الحكم والحياة، ولم يعرف المؤرخون عنه أنه خشي إنساناً، وقد قال كل آرائه رغم كل الظروف الصعبة التي مرّ بها هو وأسرته في وطنه أو في مهجره. مات بعد أن قال لا، لكل المسئولين والكتاب والرأي العام الذي كان مخالفاً له وقتها.

* فكر إيجابي :

يمكن إيجاز فكر شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي في ثلاثة نقاط:

١ - استنهاض الأمة الإسلامية لإزالة كل مظاهر العلمانية والتغريب

الحضاري والخلقي .

٢ - التمسك بطريق أهل السنة والجماعة.

٣ - إعادة الخلافة الإسلامية.

أما أعماله فعشرة مؤلفات باللغتين العربية والتركية، أشهرها: «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين»، باللغة العربية، وصدر في القاهرة في أربعة أجزاء عام ١٩٥٠، نشرتها دار إحياء الكتب العربية: عيسى البابي الحلبي وشركاه - القاهرة. و«المجددون في الإسلام»، باللغة التركية. وصدرت منه طبعة بالحروف اللاتينية أخيراً بعنوان «ديني مجددر»، عن دار سبيل للنشر، بإستانبول.

* موقفه من المؤرخ العربي محمد عبدالله عنان في اتهاماته لتاريخ آل عثمان:

□ قال شيخ الإسلام مصطفى صبري:

«كان ظني عند مغادرتي تركيا مهاجراً إلى بلاد العرب؛ التي جاء نور الإسلام إلينا منهم، أتى أستريح من مجاهدة الملاحدة (يقصد الاتحاديين والكماليين). لكنني وجدت الجو الثقافي بمصر أيضاً مسموماً من تيار الغرب فشقّ هذا على نفسي أكثر مما شقّ عليّ موقف تركيا الجديدة (يقصد تركيا عقب الانقلاب الكمالي) من ذلك التيار. كما شقّ عليّ وقوفي على أنّ إخواني العرب يفضلون تركيا هذه (أي الكمالية) على تركيا القديمة المسلمة (أي الدولة العثمانية)، فرأيتهم (يقصد المصريين المتغربين) توغّلوا في تقليد الغرب، وسابقوا الترك في الامتنان به. والانقلاب الثائر في تركيا (أي انقلاب أتاتورك) حصل عندهم (أي المصريين) في شكل هادئ، وعن طريق التأثير والتجديد في الأزهر... (موقف العقل - صدر عام ١٩٥٠م -

لم يستطع الشيخ سكوثًا على معارضي فكره الإسلامي، لذلك أخذ يفصح بالكتابة في الصحف والمجلات المصرية، وكذلك في كتبه عن موقفه تجاه المثقفين المصريين والعرب المشبّعين بروح الغرب وثقافته، واتجاه الإلحاديين من العرب.

شيخ الإسلام مصطفى صبري وردّه على محمد عبدالله عنان :

ومن هذه المواقف، موقفه من محمد عبدالله عنان. ومحمد عبدالله عنان من أبرز المؤرخين العرب؛ إن لم يكن أبرزهم وأوسعهم شهرة، وهو عالم عُرِفَ بتخصّصه في التاريخ الأندلسي، لكن موقفه من التاريخ العثماني موقف غريب من مؤرّخ، ولا أقول من مؤرّخ شرقي ومسلم. إن موقفه من التاريخ العثماني لا يعتمد على مصادر موثوقة، ونُقُوله فيه تعتمد على مصادر تنقصها الثقة، مثال عن ذلك محاضراته في ندوة ابن إياس. إنه مؤرّخ لم يتعمّق تاريخ العثمانيين ولم يتقصّ المصادر الأولى في هذا التاريخ، معلوماته مغلوبة. رد كاتب هذه السطور^(١) على معلومات وادعاءات محمد عبدالله عنان عن السلطان سليم الأول وكلها مغلوبة. فكاتب هذه السطور، فضلاً عن أنه متخصص في التاريخ العثماني في البلاد العربية؛ قد درس عهد سليم الأول من مصادره الأولى، ويقول: إنها تناقض محمد عبدالله عنان في هذا الصدد.

وفي مجلة (سدبر) التركية (عدد أبريل ١٩٨٠م)، لقاء أجرته المجلة مع كاتب هذه السطور حول مشاكل فهم التاريخ العثماني، نقد كاتب هذه السطور في هذا اللقاء مشاكل فهم عنان لتاريخ العثمانيين. في فهم عنان الخاطئ الذي لا يعتمد على مصادر أولية موثوقة. كتب أيضاً الدكتور

(١) هو الدكتور محمد حرب مؤلف كتاب «العثمانيون في التاريخ والحضارة».

مصطفى فايدة؛ الأستاذ بكلية الإلهيات في إستانبول مقالات علمية في حولية كلية الإلهيات حول ادعاءات محمد عبدالله عنان على التاريخ العثماني.

□ نشر المؤرخ العربي محمد عبدالله عنان في مجلة الرسالة عام (١٩٤٠م) مقالة عنوانها: حرب منظمة يشنها الكماليون على الإسلام، قال فيها: «وإذا كان الإسلام لم يعتر قط بتركيا يوم كانت دولة قوية شامخة، فكيف يحاول اليوم أن يعتزّ بهذه البقية الضئيلة من تركيا القديمة؟».

أدت هذه الجملة شيخ الإسلام، فقال: «إن عنان ليس مخلصاً في عدائه للكماليين، وإنما الأستاذ عنان ينضم بعدوانه لتركيا القديمة الإسلامية العثمانية، إلى تلك الوسائل المحشودة لخصومة الإسلام ويؤيد جديدها (أي تركيا الكمالية) الذي تظاهر (أي صارح) بمعاداته مع قديمها كما يؤيده الغرب الحاشد، وليس الأستاذ (يقصد بذلك عناناً) صميمياً في هذه المعادة، إنما هو جاد في خصومة تركيا القديمة الإسلامية الشامخة؛ التي لا بد أن يكون من خاصمها من خصوم الإسلام». «موقف العقل» (ص ٧٢ - ٧٣).

لا بد هنا من ملاحظة أن محمد عبدالله عنان يرى في الخطوات الأولى للثورة الكمالية مثل: إلغاء الخلافة، وحلّ الجماعات الدينية، والطرق الصوفية وفرض الثياب المدنية، وفرض لبس القبعة، .. ما يشير الأذهان المستتيرة التي كانت تتبّع جهود تركيا الجديدة في سبيل التجديد القومي والاجتماعي بمتهى الإعجاب والعطف.

فزع شيخ الإسلام عندما وجد عناناً العربي المسلم يعلي من شأن خطوات الانقلاب الكمالي تجاه الثقافة الإسلامية والدين، فأخذ الشيخ يجهز مقالة في الرد على عنان، مدافعاً فيه عن الدولة العثمانية، ودور الأتراك في موكب الحضارة الإسلامية وفي مجاهدة أعداء المسلمين، فإذا بمقالة الشيخ

تطول حتى أصبحت كتاباً؛ نصفه الأول دفاع عن الدولة العثمانية، ونصفه الثاني دفاع عن الإسلام نفسه. ثم شغل الشيخ نفسه بالنصف الثاني من الكتاب، فإذا بهذا يكبر حتى صار كتاباً في أربعة أجزاء أسماه: «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين».

ولا شك أن هذا الكتاب كسب وإثراء للفكر الإسلامي المعاصر.

□ ينقل شيخ الإسلام مصطفى صبري أمثلة أخرى لعداوة محمد عبدالله عنان للأتراك المسلمين: «إن مصر الإسلامية لم تعرف، رغم ما توالى عليها من عصور الاضطراب والفتنة، من الخطوب والمحن نكبة أعظم من الفتح العثماني، ولم تعرف حكماً أقسى وأمرّ من حكم الدولة العثمانية - عنان، «مصر الإسلامية» (ص ١٤٩) . . . ولبت سليم الأول في القاهرة ثمانية أشهر يذيق وجنده المصريين أشنع ألوان السفك والظلم والمصادرة . . .» «مصر الإسلامية» (ص ١٦١).

* يردّ شيخ الإسلام على محمد عبدالله عنان ردوداً مختلفة، منها:

- إن محمد عبدالله عنان: «في قلبه مرض عدم التفريق بين المسلمين العرب واليهود، وعلى بصره غشاوة من معاداة آل عثمان . . . فلم يكن مقصود سليم من الفتح إلا توحيد مصر الإسلامية بتركيا الإسلامية»^(١).

□ إن عبدالرحمن عزام بك، وهو مصري وأمين الجامعة العربية - سابقاً - ، قال عن العثمانيين في مقال بعنوان «آخر الخلفاء»، في الأهرام بتاريخ ١٩٤٤/١/٢٢م:

«لما وصل العثمانيون إلى شرق أوروبا وكلها سجون أبدية يتوالد فيها

(١) «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين» للشيخ مصطفى صبري (ص ٨٥).

الفلاحون للعبودية، فكسروا (أي العثمانيون) أغلال السجون وأقاموا مكانها صرح الحرية الفردية، فهم (أي العثمانيون) هم الذين قضوا على نظام الإقطاع والأرستقراطية ليحل محله نظام المواطن الحر والرغبة المتساوية الحقوق، فوصل في دولتهم الرقّ الشركسي والصقلي وغيره إلى أكبر مقام في الدولة؛ كما وصل النابه من عامة الناس حتى المجهول الأصل، إلى مقام الصدارة العظمى والقيادة العليا، وتعلّمت أوروبا الشرقية على يد محرريها سيادة القانون على الأحساب والأنساب والطوائف والملل والنحل. فترتب على ذلك تطور هائل في اتجاه الحرية والديمقراطية الغربية الحديثة. وكانت القرون الأولى لسيطرة آل عثمان عصوراً ذهبية شمل فيها الناس، الأمن والرخاء والسلام الروحي. ولم يكن فوز آل عثمان كما يظنّ بعض الناس، مستمدّاً من سيف وشجاعة، بل مما هو أعظم من السيف والشجاعة، احترام الحق والوفاء بالعهد والخضوع لسلطان القانون والشرع، ولو كان الأمر كما يتصوره الذين ينخدعون بأثار دور الانحطاط من استخدام الطوائف، والغيرة بين العناصر، والبطش لتغطية الضعف، لاستحال أن يدوم ملك آل عثمان ستمائة سنة، منها مائتان لا يسندهم فيها إلا سيف مبتور. لقد رويت لي - أي لعبدالرحمن غزام، أمين الجامعة العربية سابقاً - في رحلاتي بالبلقان وملدافيا؛ أمثلة باقية في لغة العامة، من عدل آل عثمان بين بيوت الملك الذي طال أمره وتنوّعت رعاياه، وقد ثقلت كفته بالخير والرحمة والمروءة والشرف».

□ إن الأمير شكيب أرسلان امتدح العثمانيين في ديوانه، بقوله:

أحبكم حبّ مَنْ يسعى لطيبته	في طاعة العقل لا في طاعة الغضب
أحبكم حبّ من يدري مواقفكم	في خدمة الدين والإسلام من حب
ومنذ تقلدتمو أمر الخلافة قد	أويتمو بينها كل مغترب

□ إن سليم الأول قد حارب ممالك مصر لأنهم انحازوا إلى إيران الصفوية الشيعية، العدو الأول لسليم الأول، والتي كان هدفها إسقاط حكم آل عثمان وتعميم الفكر الشيعي بالقوة في الدولة العثمانية. وسليم الأول قد عرف بانحياز ممالك مصر إلى الشاه إسماعيل الصفوي ضده. وإن الباحث يجد في بعض معاهدات الدولة العثمانية مع الإيرانيين نصوصاً تفرض عليهم أن يكفوا عن شتم سيدنا أبي بكر وعمر وسيدتنا عائشة «موقف العقل» (١/ ٨٥ - ٨٦).

□ إن دجو فارا، وهو وزير روماني خضعت بلاده للسيادة العثمانية ومؤلف كتاب «مائة مشروع لتقسيم تركيا»، وكان آلفه عقب الحرب العالمية الأولى، يقول:

«إن احترام المعاهدات والعمل بموجب الكلمة المعطاة من مزايا العثمانيين يدور عليها التاريخ كله»، و«كانت السلطنة العثمانية سلطنة عسكرية محضاً مستندة على شرع سماوي»، و«العداوة الحقيقية كانت عداوة النصارى للمسلمين برغم تسامح المسلمين في الحرية الدينية التي يتمتع بها المسيحيون في السلطنة العثمانية».

□ قول ريتشارد لوج، صاحب كتاب تاريخ أوروبا الحديث وتعريب محمد عبدالله عنان (١/ ٤٧): «إن سر نجاح الترك يرجع إلى استبسالهم في تضحية نفوسهم، وهي عاطفة الجهاد التي غرسها الإسلام في قلوبهم، وكذا يرجع بالأخص إلى حسن إدارتهم المدنية والحربية» «موقف العقل» (ص ٩٠).

□ يقول شيخ الإسلام مصطفى صبري في حاشية (ص ١٠١) من «موقف العقل» ما نصّه: «وإني أقرأ على المسلمين المنهومين في أكل لحوم الدولة العثمانية الزائلة كالأستاذ عبدالله عنان وغيره، قول الخطيئة (الذي كان الأستاذ على عبدالرزاق بك باشا قرأه في غير محله على المسلمين الذين لا

يعجبهم أفعال مصطفى كمال في تركيا الجديدة، وذلك في مقالة له منشورة في الزمان الماضي):

أقولوا عليهم لا أبالاببيكم من اللوم أو سندوا الفراغ الذي سدوا»

□ يختتم شيخ الإسلام في الدولة العثمانية سابقاً، الشيخ مصطفى صبري، والذي هاجر إلى مصر فصدمه فيها ميل العالم العربي إلى التغريب والبعث عن الأصالة، يختتم موقفه من المؤرخ العربي محمد عبدالله عنان، بقوله:

«أنا لا أقول: إن آل عثمان، حتى الأعظم المشهورين منهم في تاريخ العالم، برآء من كل ما ينتقدونهم به، وإنما أردّ على من أنكر اعتزاز الإسلام بهم» «موقف العقل» (ص ٩٠).

□ بيان موقفه في عدم جواز فصل الدين عن السياسة، وردّه على الدكتور محمد حسين هيكل الداعي إلى فصل الدين عن الدولة والمطالب بحذف عبارة أن الإسلام دين الدولة الرسمي من الدستور.

كانت قضية عدم جواز فصل الدين عن السياسة من أهمّ الأسس التي خصص لها مصطفى صبري أفندي، مكاناً كبيراً في كتابه «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين»، (طبع الكتاب في القاهرة عام ١٩٥٠م).

بدأ شيخ الإسلام مصطفى صبري في تبيان موقفه من هذه القضية، عندما كتب الدكتور هيكل باشا كتابه «حياة محمد»، وأسقط الدكتور هيكل باشا في مقدمته جميع ما في كتب الحديث فضلاً عن السيرة مثل صحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود والنسائي وابن ماجه وموطأ مالك ومسنده أحمد وغيرها من أحاديث معجزات نبينا ﷺ، من حيز الاعتداد والاعتماد.

ثم إن الدكتور هيكل باشا قد أتى في مقدمة كتاب «حياة محمد» على المبدأ الغربي المتعلق بفصل الدين عن الدولة فصلاً واضحاً صريحاً. يقول الشيخ: «والدين في مصر وإن كان مفصولاً عن الدولة والحكومة إلى حد ما، لانقسام المحاكم فيها إلى شرعية وغير شرعية، ولعدم دخول شيخ الأزهر في هيئة الوزارة... لكن معاليه (يقصد هيكل باشا) يتمنى فصلاً أوضح وأصرح، بأن يحذف بتأناً من الدستور كون دين الدولة الرسمي الإسلام، كما وقع في تركيا الحديثة، أو يجرد لفظه من كل معنى حقيقي كما فعلت الدول الأوروبية بدينها المسيحي الذي يتدنى خطأ الخاطئين من قياس الإسلام عليه... وهذا الفصل الواضح الصريح الذي هو آمال المتعلمين العصريين، وآخر منال لهم من ديننا...» «موقف العقل» (ص ١٦٢).

يعقب شيخ الإسلام بعد ذلك بقوله: «وهنا أقول سلفاً وباختصار أن (هذا) معناه خروج حكومة المسلمين من ربة الإسلام ورقابته عليها، وخروج الأمة أيضاً من ربقة اختيارها الحكومة الخارجة عن الإسلام حكومة لها، لا سيما الحكومة المستندة إلى البرلمان المستند إلى الأمة، فمثل الفصل في تلك الحكومات كممثل المناادة بالردة حكومة وأمة».

* شيخ الإسلام والمجددون الديمقراطيون:

«وقد يقول المجددون الأكياس (يقصد العصريين): لا حاكم هناك ولا محكوم عليه (أي في الديمقراطية الحديثة) وإنما يرد بالفعل أن يكون الدين والحكومة مستقلين لا يتدخل أي منهما في شأن الآخر. لكنني أعرف جيداً ويعرف الإسلام الذي هو أكيس منهم أن الجانب الذي يتولى السياسة والسلطة، لا بد أن يحكم على الذي تنازل عنهما (أي أن هناك حاكم ومحكوم)». «موقف العقل» (ص ١٦٣).

«وبالنظر إلى أن بلاد الإسلام تطلق في عرف الشرع على بلاد تحكم

فيها قوانين الإسلام؛ وأن عزل الدين عن التدخل في أمور الدولة يخرج تلك البلاد من عداد بلاد الإسلام».

«وإن كانت المخالفة لمبدأ الفصل والعزل معدودة من الجمود المعيب عند معاليه (يقصد الدكتور هيكل باشا مؤلف كتاب حياة محمد)، فأنا أجد الجامدين وأحمد الحامدين لله تعالى على جمودي هنا». «موقف العقل» (ص ١٦٣).

* مفهوم الخلافة في فكر الشيخ:

الخلافة، كما يعرفها شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي، هي «الخلافة التي هي بمعنى الخلافة عن رسول الله ﷺ؛ عبارة عن التزام أحكام الشرع الإسلامي ممن يتولى الحكم على المسلمين؛ لأنه إنما يكون بهذه الطريق خليفة عن الرسول، وإلغاء الخلافة الذي هو إلغاء هذا الالتزام، لا بد وأن يترتب عليه فصل الدين عن الحكومة، وعزله (أي الدين) عن أن يكون ذا سلطة عليها، وقد حصل هذا الحال فعلاً في تركيا بعد إلغاء الخلافة، فخلفها حكومة لا دينية» «موقف العقل» (٤/ ٣٢٢ - ٣٢٣).

* تعريف الشيخ للجنسية الإسلامية:

«إن الإسلام جنسية.. إن جنسيته فوق الجنسيات، ذلك أن أفضل الجنسيات ما يكون سبباً لتأسيس الوجدان المشترك بين أفراد الجنس. إذ بهذا الاشتراك فقط يحصل بينهم الاتحاد الحقيقي الذي هو الاتحاد الفكري. ومن هذا لم يفضل عليه الاتحاد القومي، لعدم كفايته في تأسيس الوجدان المشترك ولعدم قابليته للتوسع السريع، فكان الاتحاد في المذهب السياسي أو الاجتماعي أقوى منه؛ ويؤيده أن الرجل تراه ينحاز إلى جانب زملائه في الحزب السياسي والاجتماعي أكثر من انحيازه إلى إخوانه القوميين» «موقف

العقل « (٣٣٢/٤).

* المفهوم الوطني والجنسية الدينية وسن القانون :

□ يقول شيخ الإسلام مصطفى صبري :

«الجنسية المعنى بها اليوم من الأمم المتمدنة، هي الجنسية الوطنية المفسرة بالاجتماع تحت قوانين مشتركة والاستفادة من حقوق متساوية، ولو كان المجتمعون تركبوا من أقوام مختلفة. فلا عبرة بالاختلاف القومي أمام الاشتراك في القانون الذي هو معنى الوطنية. وهذا القانون وإن كان المعتاد بل الملتزم عند الأمم المتمدنة العصرية أن يسنها المواطنون أنفسهم في برلمانهم، لكن الحصول على توحيد القلوب بهذا القانون غير مضمون كالحصول عليه بالقانون المأخوذ من الدين. بل الحصول على العدالة أيضاً غير مضمون بالقوانين الموضوعة عند البشر، وإن كان واضعها نفس الأمة التي تطبق عليها؛ لأن تلك القوانين لا تسنّ مطلقاً بإجماع آراء الأمة وإنما تسنّ بأكثر الآراء النسبية، فيكفيه أن يكون زائداً على النصف ولو بواحد. وليس بمضمون ولا لازم أن يكون رأي هذا الأكثر حقاً، بل يفضل خطأ الأكثر على صواب الأقل كما هو المعروف في الأسلوب البرلماني، فتكون العبرة بعدد الآراء لا بقوتها وأصالتها. وليس بمضمون أيضاً أن يكون هذا القدر من الكثرة حقيقياً فهو صناعي على الأكثر؛ لأن النواب المجتمعين في البرلمان تدخل الشبهة في صحة نيابتهم عن الأمة بدخول أنواع الحيل في انتخاباتهم. وكل شيء في الأساليب المأخوذة من الغرب شكلي واعتباري لا حقيقي. فيقال مثلاً إن في البلاد حرية، لا سيما حرية القول والنقد، وهي محترمة غاية الاحترام، ثم يقال لكنها حرية مقيدة بالقانون، والقانون تضعه الحكومة مع الحزب الذي تستند إليه في البرلمان، فتكون حرية على حساب أهوائهما، وتكون مضايقة للذين تحاولان مضايقتهم» «موقف» (٣٣٣/٤).

* أكفل أشكال الحكم لإرضاء الشعوب والشريعة :

«... لا تخلو البرلمانات من الميمنة والميسرة، ويكون الحكم لمن غلب... فظهر أن الحكم الجمهوري والديمقراطي الذي يعتبر أكفل أشكال الحكم لإرضاء الشعوب، لا يكفل توحيد أكثر القلوب فضلاً عن جميعها، ولا يخلو من محاباة بعض وضرار بعض. وقد أخذ به الغربيون لعدم وجود القانون الإلهي عندهم، بسبب عدم وجود علم الفقه المستنبط من كتابهم وسنة نبيهم، ولا أصول فقه لديهم، ولو وجد لأخذوا به وآثروه طبعاً على القوانين البشرية. أو من ذا الذي لا يؤثر القانون الموضوع من قبل الله على ما هو صنع الإنسان الظلوم الجهول؛ إلا أن يكون غير معتقد لدينه ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾، ولم يقل كتاب الله هذا القول لمجرد التشديد فيمن لم يحكم بما أنزل الله، وإنما قاله تبياناً قد تخفى على بعض الناس» «موقف» (٣٣٤/٤).

* الفرق بين القانون البشري والقانون الإلهي :

«... والقانون البشري نفسه، فضلاً عن تفسيره، لا يخلو على كل حال من أن يكون خديعة يخدع بها الناس بعضهم بعضاً، ويتخذها أداة العدالة فيما بينهم، عدالة تقسم إلى طبقتين: حاكمة، وواضعة القانون... فهي عدالة مخلة بالمساواة، أما القانون الإلهي فالحاكم فيه هو الله، والناس حتى السلطان سواء أمامه، غير محسبن بثقل الحكم لكونه على السوية ولكونه من الله الذي خلقهم» «موقف» (٣٤٥/٤).

* من الذي يضغط لفصل الدين على الدولة؟

«... إن الضغط على الدولة الإسلامية لكفها عن العمل بقوانين الشرع الإسلامي؛ كان يأتي في الزمن القديم من الدول الصليبية، وكان

يقتصر على مسألة التسوية بين المسلم والذمي، وكان لهم عذر في ذلك أو على الأقل عذر في الظاهر، والآن ينوب عن الدولة الأجنبية الضاغطة فريق من المسلمين المتعلمين في مدارس تلك الدول، نيابة تعدت حدود الأصالة، غير معذورين ولا مقتصرين على مسألة دون مسألة، فهؤلاء النواب عن الأعداء (أي المثقفين من المسلمين بثقافة أجنبية خاضعين لها) أشد من الأعداء». «موقف العقل» (٣٤٦/٤).

* مدى صحة تخويل حكومات المسلمين حرية وضع القوانين :

«إن من الناس... (من) يخول حكومات المسلمين حرية تامة في وضع القوانين، ويدعي أنه لا يوجد قانون يسنونه أو عمل يعملونه إلا ويسعه الإسلام؛ لأنه دين عام خالد، وهو مذهب الأستاذ فريد وجدي بك، الذي لا يرى حتى في أعمال مصطفى كمال (أتاتورك) منافاة لدين الإسلام. وهذا الرأي أسوأ من فصل الدين عن السياسة لكونه فصلاً وإنكاراً للفصل معاً. ففيه فصل ومكر وفيه القضاء على الإسلام باسم الإسلام. وقد قال انكلهارد، من سفراء فرنسا في تركيا، وفي مقدمة كتابه «تركيا والتنظيمات» (نُشر عام ١٨٨٢م): «كان الغرض العام من التنظيمات «حركة تغريب الدولة العثمانية» هو تقريب الهيئة الاجتماعية الإسلامية إلى الهيئات الاجتماعية المسيحية التي عاشت منذ قرون، بعيدة عنها معنى وسياسة. وكان السبب الحقيقي (في هذا البعد عن الهيئة الدولية الأوروبية) في هذا الانفراد هو الدين».

وفي الحقيقة (ما زال الكلام لانكلهارد) إن الإسلام الذي كان مؤسس الحكومة العثمانية، بقي حاكماً مطلقاً فوق الحكومة... ولكون تشكيلات (أي منظمات ومؤسسات) الأمة (العثمانية) اشتبكت بالعقائد الدينية، بحيث لا يمكن تفريق بعضها عن بعض، كانت تشكيلات الأمة (أي مؤسسات الأمة

العثمانية إدارياً واجتماعياً واقتصادياً وغير ذلك) لا تقبل التغيير كالعقائد الدينية، فوجب... إما إزالة الحائل (أي الإسلام) أو تخفيف وطأته. ومعناه إما أن تحول الحكومة من الروحانية (يقصد الدينية التشريعية) إلى الدنيوية (أي العلمانية) بتخليصها من تأثير القوانين الدينية كما وقع في العالم المسيحي، وإما أن تخلص بالتدرج من الحدود والقيود الدينية عن طريق تفسير العقائد الأساسية تفسيراً موسعاً.

وللاحتراز (ما زال الكلام لانكلهارد) من الحالات الموجبة لاشتمزاز شعب جاهل متعصب (أي خوفاً من حدوث رد فعل لدى الشعب العثماني المسلم)... كانت الحكومة العثمانية (عندما سيطر على أمورها دعاة التغريب من الماسون الأتراك... ممثلي الثقافة الغربية في البلاد العثمانية) قد اختارت الشق الثاني (أي التخلص التدريجي من الأحكام الشرعية الإسلامية). (انتهى كلام انكلهارد).

وهذه الكلمة (الكلام هنا لشيخ الإسلام مصطفى صبري) المنقولة من كتاب انكلهارد... تعلن ما كان يضمه المتفرنجون الأتراك أن يفعلوه في الآونة الأخيرة بدين المسلمين، ثم ظهر مع الانقلاب الكمالي اللاديني. وما يضمه المتفرنجون العرب في مصر وغيرها ولم يظهر تمامه بعد. «موقف العقل» (٣٤٨/٤).

* فصل الدين عن السياسة والمثقف العربي:

□ يقول شيخ الإسلام مصطفى صبري:

«إن فصل الدين عن السياسة كان أول من أثاره مبدئياً وجاهد بالدعوة إليه الأستاذ علي عبدالرازق بك (باشا)، حيث أَلَفَ فيه كتاباً سماه: «الإسلام وأصول الحكم» ونشره، وكان يومئذٍ قاضي المنصورة الشرعي. فأدى نشر هذا

الكتاب إلى قطع صلته بالأزهر. وإن كان مبدأ الفصل قد عمل به في مصر وقطع شأواً من العمل؛ مبتدئاً من يوم تجريد الوزارة المصرية من العضو الشرعي المسمّى شيخ الإسلام؛ والذي يكون جميع الحلّ والعقد الصادر عن مجلس الوزراء موقوفاً على موافقته، ويولي كرسية في المجلس مقعد الرئيس متعيّناً للنيابة عنه عند غيابه، ومقامه مرجع المحاكم الشرعية فضلاً عن المفتين، بل محاكم البلاد كلها، غير محكمة الجزاء والتجارة حيث يكون القاضي الشرعي رئيس محكمة الحقوق أيضاً العاملة بقوانين الشريعة الإسلامية. اطّلت (الكلام لشيخ الإسلام) على كتاب الأستاذ علي عبدالرازق، «الإسلام وأصول الحكم»... على ترجمته إلى التركية من المسرعين الترك إلى استغلاله في أغراضهم اللا دينية قبل مجيئي إلى مصر من تركيا الغربية (في اليونان)، وكنا نصدر فيه مع ولدي إبراهيم صبري، (أستاذ اللغتين التركية والفارسية في جامعة الإسكندرية، شاعر وأديب وعالم جليل، تلقى كاتب السطور العلم على يديه بكلية الآداب بجامعة عين شمس بالقاهرة عام ١٩٧٢م، ثم درّس في جامعات ليبيا ولبنان) جريدة باللغة التركية سمّيناها يارين (الغد)، نشرتُ فيها كتاباً عن الإمامة الكبرى مجزئاً على أعداد الجريدة، ضمّته الرد على كتاب الأستاذ (علي عبدالرازق)... نقداً (حيث إنّه) أريد بنشره بمصر تبرير ما فعله مصطفى كمال في تركيا من إلغاء الخلافة الإسلامية وإقامة حكومة أنقرة اللا دينية. تباً لحكومة مبتدعة لا يكمن الدفاع عنها إلاّ بالطعن في خلافة أبي بكر وإنكار ما في حكومته من الصبغة الدينية كما فعله الأستاذ قاضي المنصورة (علي عبدالرازق) «موقف» (٣٧٥/٤).

* فصل الدين عن الدولة والأزهر:

هاجم شيخ الإسلام مصطفى صبري الأزهر بعنف وشدة، أما السبب

في هذا، فإنه - أي الشيخ - كان يظن أن الأزهر سيسانده كأحد دعاة الفكرة الإسلامية أمام محاولات الشيخ في شرح علمانية النظام الكمالي، واستنهاض الشيخ لهمم المسلمين بعد إلغاء الخلافة، فإذا بالأزهر يعلن تأييده لانتقالات مصطفى كمال (أتاتورك).

في العدد ٣٩٦ من مجلة الرسالة ظهرت مقالة بعنوان «أسبوع في تاريخ الأزهر»، فيها يقول عن الشيخ الأكبر إمام الأزهر الشيخ المراغي، يقول المقال: «كان من المبادئ الجليلة التي سمعناها من فضيلة الإمام المراغي من أن الدين في كتاب الله غير الفقه. وأن من الإسراف في التعبير أن يقال عن الأحكام التي استنبطها الفقهاء وفرعوا عليها واختلفوا فيها، وتمسكوا بها حيناً ورجعوا عنها حيناً أنها أحكام الدين، فإنما الدين هو الشريعة التي أوصى الله بها الأنبياء جميعاً، أما القوانين المنظمة للتعامل والمحقة للعدل والدافعة للحرص فهي آراء الفقهاء مستمدة من أصولها الشرعية، تختلف باختلاف العصور والاستعدادات، وتبعاً لاختلاف الأمم ومقتضيات الحياة فيها، وتبعاً لاختلاف البيانات والظروف. ولو جاز أن يكون الدين هو الفقه مع ما ترى من اختلاف الفقهاء بعضهم مع بعض وتفنيد كل آراء مخالفه وعدّها باطلة، لحقت عليه كلمة الله: ﴿إِنَّ الدِّينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْياً لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾».

□ يقول شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي في رده على هذا: «لا دين في الأزهر باعتراف فضيلة شيخ الأزهر وإمامه، بمعنى لا علم يدرس فيه وفي كلياته يصح أن يسمّى علم الدين، ولا صحة لما اشتهر عند الناس من كون الأزهر معهداً دينياً - بل كونه أكبر معاهد العالم الإسلامي الدينية - ولا لما تواطأ عليه المسلمون، من اعتبار ما في كتب الفقه من الأحكام والقوانين أحكام الشريعة الإسلامية وقوانينها؛ فتكون ما يسمونه الشريعة الإسلامية

شريعة عندية لأناس يسمّون الفقهاء... إن ما قاله شيخ الأزهر (الأستاذ الأكبر الإمام المراغي) اعتداء عظيم... على أئمة الإسلام أصحاب المذاهب المشهورة في الفقه مثل الإمام أبي حنيفة ومالك الشافعي وابن حنبل رضي الله عنهم... (٢٠٩/٤)، لا بدّ وأن تكون (٣٠٩) «إن لقول الأستاذ الإمام (المراغي) مغزى لم يبح به قائله، وقد خفي على محبذيه ومنكره، وسأبديه أنا... يحاول الأستاذ الأكبر المراغي بقوله المنقول من قبل ترويح آخر آمال لهم (دعاة الفكرة الغربية) وتمزيق آخر أوصال للإسلام: وهو فصل الدين عن الحكومة، فقد رام أن يتوصل إليه بفصل الدين عن الفقه وقطع صلته به. فكأنه يقول: إن الفقه ينطوي على قوانين سنّها الأئمة والمجتهدون وهي قوانين زمنية لا دينية. وخلاصة ادعاء فصل الدين عن السياسة قد وقع من زمان قديم في الإسلام؛ منذ اتخاذ الحكومات الإسلامية آراء أئمة الفقه التي لا صلة لها بالدين، قوانين معمول بها في بلاد الإسلام، فلهذا يجوز لنا أن نهملها ونسن بدلاً منها قوانين أخرى أوفق لزماننا وسياستنا، ولا نكون إن فعلنا ذلك بدلنا ديننا إلى دين غير الإسلام، أو فصلنا الدين عن السياسة أوّل مرّة... وكان الأولى بالأستاذ الأكبر أن لا يتوسل إلى ترويح مبدئه بالاعتداء على الفقه، وإخراج أقوال الفقهاء أئمة الإسلام من الدين، بل يقيهم في مقاماتهم المسلمة دينياً؛ ويقول ونحن نجتهد ونضع القوانين الجديدة مستمدين (ذلك) من الأصول الشرعية، فتكون آراؤنا أيضاً فقهاً ودينياً كما كانت آراؤهم. لكنه لم يفعل.

(إن) مقصود الإمام المراغي... هو فصل الدين عن السياسة وتخليص الحكومات في سن القوانين عن التقييد بقيود الشرع الإسلامي «موقف العقل» (٢٠٨ - ٢١٥).

«... ثم إن هذه الفكرة من الأستاذ الإمام فكرة تنزيل الفقهاء أئمة

الدين الواضعين للقوانين الشرعية، منزلة واضعي القوانين الزمنية غير المتقيدين في وضعها بالقيود الدينية، تشبه ما فعله الكتاب العصريون بمصر من تنزيل الأنبياء إلى منازل العباقر؛ منكرين لهم النبوة الميتافيزيقية والمعجزات الخارقة لسنن الكون» «موقف العقل» (٤/٢١٨، ٣١٨).

* حكومة الشيخين وعلي عبدالرازق :

«واليوم أقول (الكلام لشيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي) في كتابي هذا: ليس لأحد من عقلاء الشرق والغرب شك في كون حكومة أبي بكر وعمر مثلاً أعلى للحاكم الصالح العادل الذي يراعي حقوق الأمة ويسعى في مصالحها أكمل مراعاة مسعاة... وكنا نحن المسلمين نحمل كمال حكومة الشيخين في الصلاح والفلاح على اهتمامها بأحكام الإسلام، وعلى كمال اقتفائهما بآثار النبي ﷺ، وحتى أن أبا بكر حارب لتنفيذ قانون إسلامي يجعل في مال الغني حقاً معلوماً للفقير. وبالاختصار كنا نعرف سر أفضلية حكومتي الشيخين من فضل الدين... لكن الأستاذ (علي عبدالرازق مؤلف كتاب الإسلام وأصول الحكم) يحاول في قطع صلة فضائلهما الظاهرة الباهرة بالإسلام؛ أن لا يعترف بفضل الدين الإسلامي في سمو حكم هذين الرجلين العظيمين الذي يشهد العالم بكونهما مقال الحكم السامي الإنساني» «موقف» (٤/٣٧٥).

«فالأستاذ (علي عبدالرازق) إذن كاتب دعاية وبطل رواية لا يمثل أمثالها إلا المبشرون أعداء الإسلام وأعداء مفاخره... فالأولى بسعادة الأستاذ (علي عبدالرازق) على كلا المعنيين للسعادة أن يتعجل في التأهب لذلك الموقف (أي عند الاحتكام إلى الله في المحشر) بتوبة علنية يسمعا قراء كتابه الإسلام ونظام الحكم معترفة (أي التوبة) بكونه مخطئاً في تأليفه، وإني (أي شيخ الإسلام مصطفى صبري) مخطئه الصائل عليه وصديقه الحقيقي، يسرني أن

أنفعه بخطيئتي لتعمير آخرته» . . . «موقف العقل» (٤/٣٧٦)»^(١) .

* الإمام المجدد سليمان حلمي^(٢) وحفاظه على الهوية الإسلامية لتركيا أيام

أتاتورك :

الإمام سليمان حلمي من الشخصيات النادرة في عالمنا الإسلامي، فهو شخص متميز في إسلامه، متميز في إرشاده، متميز في شجاعته، عمل في خدمة الإسلام طوال حياته التي بلغت إحدى وسبعين عاماً. ومن المؤسف أن هذا العالم والمرشد لم يعرفه الناس حق المعرفة وقد اشتهر كثيرون غيره كانوا أقل منه بكثير، سواء من وجهته الإسلامية الصحيحة أو الاشتغال بمنصب الإرشاد، أو من ناحية الأثر الإسلامي الذي تركه في قلوب تلامذته ومحبيه. ولهذا السبب فإنه من الشرف أن أقدم للعالم الإسلامي ما تيسر لي عن التعريف به، ولن يكون حق المعرفة به ولكنه بعض الاجتهاد لفتح المجال بعد ذلك لكتابات أخرى أكثر تعريفاً وأكثر عمقاً لشخصه وحياته وأعماله التي لا تزال تعيش بين أبنائه حتى يومنا هذا.

١ - حياته: (١٨٨٨م - ١٩٥٩م) :

الإمام سليمان حلمي من طبقة العلماء الممتازين، جده هو (الحافظ قيقاق)، أسرته تنتسب إلى الجد الأكبر (إدريس بك) الذي ينتسب لرسول الله ﷺ وكان السلطان الفاتح في ذلك الوقت يبحث عن من ينسب إليه رسول الله ﷺ ولا يزال على قيد الحياة، وحينما وجد (إدريس بك) زوجه

(١) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» للدكتور محمد حرب (ص ٣١١ - ٣٣٠) - دار القلم دمشق.

(٢) نقلاً عن «العثمانيون في التاريخ والحضارة» للدكتور محمد حرب (ص ٣٩٤ - ٤٢٢)، وكتاب «الإسلاميون وتركيا العلمانية» لهدي درويش.

أخته ونصبه خاناً أي أميراً على منطقة (الطونا) (الدانوب) ولذلك نجد أن لقبه طوناخان، وكلفه بجباية الضرائب. وبقي إدريس بك في منصبه هذا وخلفه من بعده أحفاده حتى جاء (عثمان بك) والد سليمان أفندي، وقد كانوا جميعاً من أهل العلم وأزباب القلب^(١) ومن هنا يرجع وجه الشبه الكبير الذي كان بين سليمان حلمي وبين جده السلطان محمد الفاتح.

أبو سليمان أفندي هو عثمان أفندي الذي درس في إستانبول وعين مدرساً في مدرسة (ساطرلي). رأى عثمان أفندي (والد سليمان حلمي) في منامه وكان قطعة من جسده تخرج منه وتصعد إلى السماء وتثير ما حولها. وعندما استيقظ عثمان أفندي من نومه سأل عن تفسير هذه الرؤية فقبل له إنها تعبر عن أنه «سيأتي له ولد صالح ينشر الإسلام في العالم».

ثم تزوج عثمان أفندي وأنجب أربعة من الذكور هم: فهمي، وسليمان حلمي، وإبراهيم، وخليل. وأخذ يراقبهم لمعرفة من منهم سوف تتحقق رؤيته عليه.

* المراحل الأولى من حياة سليمان حلمي :

ولد سليمان بقرية (فرحاتلر) التابعة (لسليسترة) عام ١٨٨٨م (في بلغاريا اليوم) دخل سليمان حلمي مدرسة (ساطرلي) بسليسترة مع باقي إخوته، وقد كان والده عثمان أفندي مدرساً فيها.

لاحظ عثمان أن سليمان ولده يتميز عن باقي إخوته بالذكاء والفهم وقابليته للتعليم والزهد، فتوجه عثمان إليه يخصه بالحب والرعاية والنصح، وكان يعامله باحترام وهو لا يزال صبيّاً صغيراً في سنواته الأولى، وكان يقول له: «تفضل يا بني يا سليمان أفندي» وكان سليمان أفندي يشعر بالحنين

(١) «ماذا قالوا عن المجدد الكبير» لمصطفى أريقان - جريدة أفق، رقم (٤٧٧).

الشديد بمعاملة والده له بهذا الاحترام حيث كان صبياً صغيراً، لكن والده كان يجد فيه النور الذي رآه في المنام».

أتم سليمان حلمي دراسته الابتدائية في مدرسة (ساطرلي)، والإعدادية في مدرسة (سيلسترة) وحتى يتمكن من تحصيل علوم عصره أرسله والده إلى إستانبول مركز العلم والحضارة، وقد زوده والده بثلاث نصائح هي:

١ - أن يكون مقتصداً ولا يبذر ماله.

٢ - أن يبذل جهده ليتمكن من علم الأصول.

٣ - أن يدرس علم المنطق جيداً حتى يقوى في علمه.

وعمل سليمان حلمي بنصائح والده فاهتم بدراسة علم الأصول والمنطق وتخصص فيهما. وحينما وصل سليمان إلى إستانبول زار قبر السلطان محمد الفاتح قريبه بالمصاهرة من جهة جده الأكبر إدريس بك. وهناك التحق سليمان حلمي بمدرسة (الفتاح) بإستانبول، وقد ارتضى أن يسكن الدور أسفل الأرض حيث لا ضوء ولا نافذة، وقد رضي بهذا المكان حباً في الدراسة والعلم، وكان يدرس على يد الشيخ (أحمد أفندي البفراوي) الذي أحبه كثيراً وقربه إليه. وقد شد سليمان حلمي انتباه الجميع لفرط ذكائه وحبه للدراسة ولشدة إعجاب الإمام بسليمان حلمي أراد أن يزوجه ابنته لكن القدر الإلهي كان غير ذلك حيث إنها توفيت إثر وقوعها في بئر.

تزوج سليمان أفندي في إستانبول من امرأة صالحة تدعى (خديجة) وبعد تخرج سليمان حلمي من مدرسة الفاتح التحق بمدرسة (دار الخلافة العالية) سنة ١٩١٣ وتخرج منها وكان من الأوائل ونجح في امتحان مدرسة القضاء وكان ترتيبه الأول، وعين قاضياً بقسطموني لكنه لم يطلب تعيينه قاضياً، وحينما علم والده نبأ تخرجه من الحقوق بالدرجة الأولى أرسل له برقية يقول له فيها: «يا سليمان، اعلم أنني لم أرسلك إلى إستانبول لتكون

في النار» وكان والده هنا يذكره بحديث رسول الله ﷺ «قاضيان في النار، وقاض في الجنة»^(١) ، فلم يكن يريد لابنه أن يتولى منصب القضاء، وقد كان رد سليمان حلمي في هذا الأمر أنه لم يكن يطلب منصب القضاء بل هدفه هو بلوغ مرحلة الكمال بالعلوم الدينية والدنيوية، ولقد أسعد والده جوابه هذا.

كان سليمان حلمي يبذل جهداً كبيراً من أجل تحصيل العلوم والبلوغ لهدفه الذي يتوق إليه، كان يقاوم النوم في عينيه حتى نرقتا، وكان يحتسي المزيد من القهوة ليقراً المزيد من الكتب ولا يغلب عليه النعاس. وفي ليالي الشتاء الباردة كان يتناول كمية من الثلج ويلقيها بين قميصه وظهره حتى يظل مستيقظاً ولا يضيع لحظة من عمره دون دراسة.

واصل سليمان حلمي دراسته حتى نال مرتبة كبير المدرسين في فروع التفسير والحديث والفقهاء. ثم تخرج من (مدرسة السليمانية) بإستانبول فرع التفسير والحديث عام ١٩١٩م كما حصل على شهادة (مدرسة القضاء) فأصبح مدرساً عاماً^(٢) ، وكان صاحب اليد الطولى في علم الحقوق لكنه لم يقبل منصب القاضي، درس سليمان أفندي القانون الروماني، والقانون

(١) ونص الحديث: عن بريدة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «القضاة ثلاثة واحد في الجنة واثنان في النار»، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق ففضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار» زواه أبو داود والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم «الترغيب والترهيب» (ج ٣)، كتاب القضاء، (ص ٣١٣). وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٣٢٢)، و«الإرواء» رقم (٢٦٠٣).

(٢) المدرس العام يوازي مرتبة الأستاذ في الجامعة، وكان لها الحق بمنح إجازة علمية (أجازتنامه) لتلامذته بعد اجتيازهم للامتحانات التي يعقدها لهم والتي تعطيم حقاً للتدريس بعد الحصول عليها.

البحري والتجاري والقانون الدولي المقارن مع الشريعة الإسلامية في كلية السليمانية. قام بالتدريس عام ١٩٢١م لكن حياته التدريسية لم تستمر طويلاً حيث انتهت بإغلاق المدارس الدينية؛ حسب القانون الذي صدر في عهد أتاتورك عام ١٩٢٤م.

* صفات الإمام سليمان حلمي: «نخدم الدين والإسلام ونقبل أن نكون مكان الأحمية في سبيله»:

كان سيداً بلباسه النظيف البسيط، وقور، ويدعو من يراه لأول مرة أن يحترمه ويعظمه، كان يقابل من يضايقه بابتسامة ومحبة وطيبة قلب، كان يطعم رجال الشرطة الذين كانوا يأتون لتفتيش منزله ويأمر أهل بيته بحسن ضيافتهم. كان يفطر مع رجال الشرطة الذين يأتون للقبض عليه إذا كان يوم صيام فكانوا ينضمون لصفوفه ويصبحون من تلامذته. كان شديد العطف والشفقة خاصة على أبنائه الطلبة حتى أنه إذا مرض أحدهم كان يذهب به إلى الطبيب بنفسه.

كان يواجه الشدائد بوقار وصبر ويقين، لم يعرف اليأس يوماً، لم يهدف يوماً إلى تحقيق غاية أو منصب دنيوي ويقول: «نخدم الدين والإسلام ونقبل أن نكون مكان الأحمية في سبيله»، كان ينفق كل ما يتقاضاه من راتبه على تلامذته. كان عابداً مؤمناً، يتهجّد الليل، ولا يفوته صلاة الضحى صلاة الأوابين، كان يقرأ قبل وبعد صلاة الفجر أوراده وأذكاره.

كان مرشداً كاملاً، وعالمًا عاملاً، ومجدداً وإماماً.

كان عذب الحديث لا يتكلم فيما لا حاجة له، يتحاشى الإكثار من تناول الطعام.

□ يقول الكاتب والأديب نجيب فاضل عن سليمان أفندي: «تعرفت على سليمان أفندي عام ١٩٤٦م ومن النظرة الأولى أدركت أنني أمام مثقف

وعالم حقيقي طاف كثيراً من البلاد ومفكر مسلم».

أما رؤية المراقب السابق لدار إفتاء إستانبول ويدعى (مناسترلي سليمان) فهي أن سليمان أفندي حينما يتناول تفسير مسألة فهو يستند في أحاديثه على القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، «دائماً يقرأ اللغة العربية كان مدرساً عثمانياً بكل ما تحمله الكلمة من معان».

أما تلميذه «محمد امره» وهو مفت سابق فيحكي عن أستاذه قائلاً: لقد تصدى أستاذه للظلم الذي وقع عليه في حياته بالعلم والحلم، وكان يدعو بالخير والصلاح لمن ظلمه.

* نشاط سليمان حلمي بعد حياته الدراسية والظروف التي أحاطت به :

لم يمهل القدر سليمان حلمي أفندي من مواصلة خدماته الدينية بصورة علنية ورسمية عن طريق المدارس. وقد كان يعمل ويخدم في وقت تسود الدولة الفوضى والاضطرابات. وقد وقع الانقلاب العثماني عام ١٩٠٩م وهو ما يزال طالباً في المدرسة. فكان من معارضي الانقلاب ومن مؤيدي الخلافة وكان يرفض كل ما له علاقة بالتغريب.

ومن الغريب أن في ظرف خمس سنوات من حصول سليمان حلمي على إجازة التدريس، حدثت في حياة تركيا أحداث فيصليية هي: تكوين مجلس الأمة الكبير، وإلغاء السلطنة وانتهاء الدولة العثمانية من الوجود ونفي السلطان محمد وحيد الدين، وإعلان الجمهورية وتنفيذ قانون توحيد التدريس أو توحيد المدارس وجعلها كلها تحت سلطة واحدة.

وحينما قدم واصف بك عضو مجلس الأمة التركي عن (صاروخان) ومجموعة من زملائه قانوناً إلى مجلس الأمة يقضي بإلغاء المدارس الدينية على كل مستوياتها، وكذلك كل مؤسسات التعليم الديني في البلاد وجعل التدريس والمدارس كلها تابعة للدولة ولسياستها (العلمانية) عام ١٩٢٤م،

كانت جمعية المدرسين الدينيين في البلاد تضم ٥٢٠ مدرساً، وكان يعني هذا القانون فصل كل هؤلاء المدرسين. وأرادت الدولة أن تعينهم في أماكن ووظائف أخرى هم أكبر علمياً من مستواها مثل أئمة في المساجد أو وعاظاً، وأرادت إحالة بعضهم إلى التقاعد. واستجاب أعضاء هذه الجمعية إلى الأمر الواقع إلا سليمان حلمي فقد أحس أن هذا معناه أن يفقد الأتراك العلوم الدينية والعلوم القرآنية.

واصل سليمان حلمي خدماته الإسلامية والتعليمية فعمل واعظاً في مساجد السلطان أحمد والسليمانية والجامع الجديد وشهزاده باشى وقاسم باشا وكثير من المساجد الأخرى ولم يخل مسجد في إستانبول من خطب الإمام سليمان حلمي ومواعظه.

□ في هذه الأثناء حذر سليمان حلمي زملاءه المدرسين من خوفهم من الحكومة واستسلامهم للأمر الواقع فدعاهم وخطب فيهم قائلاً: «إخواني المدرسين.. إنكم هذا اليوم ضمانة الدين في هذا البلد فعددتنا خمسمائة تقريباً. فلو قام كل واحد منا بتعليم أمور الدين لثلاثة أشخاص في البيوت لأمكننا أن نربي ألفاً وخمسمائة شخص تربية دينية إسلامية. فيمد الله بهم من عمر الإسلام خمسين عاماً على الأقل وهو عمل جيل أو جيلين». وكان يحثهم على ألا يخشوا في الله لومة لائم^(١).

□ فاقنع البعض وبعثوا برقية إلى الحكومة قالوا فيها:

«نعلم أن دولتنا خرجت من الحرب قبل وقت قصير وشعبنا فقير والدولة لا تتحمل المصاريف»، إننا مستعدون لتعليم أبنائنا العلوم الدينية بلا

(١) مجلة كينج اقامي، العدد الخاص عن سليمان حلمي طوناخان، عدد رقم ٢٧، إستانبول، ١٩٩٥م، (ص ١٧).

مقابل فأجابتهم حكومة أنقره قائلة: «لقد تم قبول قانون توحيد المدارس وكل عمل يخالف هذا القانون يستوجب العقوبة الشديدة».

فقرر المدرسون عند ذلك أن التدريس غير ممكن في ذلك الوقت. وفي هذه اللحظة قرر سليمان حلمي العمل بمفرده رغم المخاطر والعقبات فأول ما قام به، هو تدريس الطلبة خفية، حيث اعتبر نفسه مسئولاً أمام الله في تعليم دين الإسلام للطلابين له وكان يقول: أنه يخشى يوماً يسأله الله فيه ويقول له: يا سليمان ماذا فعلت بالعلم الذي أعطيتك؟ هل أعطيتك العلم لتدفعه في الأرض؟ فماذا أجيب؟ وكان ينتقد العلماء في عصره ويقول: كيف يدعي هؤلاء بأنهم ورثة الأنبياء وهم عاجزون عن تعليم أولادهم. وكان سليمان حلمي يبحث عن أحد يعلمه فلا يجده؛ لأن الناس كانت تخشى الحكومة فبدأ بتعليم ابنته في البيت على أن تقوم بتعليم زوجيهما وأولادهما فتتفان نفسيهما وأسرتهما.

□ الوسائل التي لجأ إليها سليمان حلمي لجمع الطلبة:

ولقد واجه الإمام سليمان حلمي صعوبات كبيرة في جمع الطلبة وتعليمهم لكن ما لبثوا أن انجذبوا إليه وارتبطوا به ارتباطاً وثيقاً حيث كان يشعل في قلوبهم حب الدراسة.

كان إذا مرض أحد تلامذته يذهب به إلى الطبيب بنفسه. وكان يدفع الإمام سليمان حلمي أجراً لطلبة على تعليمهم وذلك من أجل تشجيعهم لخدمة الإسلام. وقد استحدث هذه الطريقة - صرف أجر للطلاب - وظل ملتزماً بها.

كان حتى عماته يحل مشاكل تلامذته ويعددهم إعداداً نفسياً ومعنوياً. كان أباً رحيماً وأستاذاً مريباً. وكان يشجع تلامذته على تعلم دين الله ويقول لهم: إن دين الله شرف لا يعلوه شرف في الدنيا والآخرة. وكان الطلبة

يأتون إليه من قرى الأناضول للدراسة وهم في زي الفقراء فيعودون إلى أهلهم وكانهم من أغنياء إستانبول.

* الوسائل التي اتخذها سليمان حلمي لتعليم تلاميذه:

أما الوسائل التي اتخذها الإمام سليمان حلمي لتعليم أبنائه:

□ تبديل المكان باستمرار:

كان الإمام سليمان حلمي يعطي الدرس لطلبته فكان يدرس يوماً في غرفة المؤذن في جامع شهرزاده باشي ويوماً آخر في بيت أحد أتباعه في أحد أحياء إستانبول. كما كان يجمعهم في أقبية المباني التاريخية القديمة. وقد لجأ الإمام إلى تعليم الطلاب في الأدوار السفلية من المباني ويقول لهم: «المهم أن تنجح دعوتنا ولا نهتم بالمناصب، ونقبل أن يصبح مكاننا مكان الأحذية في المساجد». وكان يدرس لهم كل يوم في مكان مختلف عن سابقه ويقول لهم: «علمتكم ونقلتكم من مكان إلى مكان كالقطة التي تنقل صغارها، ولم يكن الإمام يتقاضى شيئاً نظير عمله وكان يعيش على الكفاف»^(١).

□ استئجار المزارع:

كان الإمام سليمان حلمي يستأجر مزرعة (قاباقجا) ويخبئ طلابه في زي العمال يزرعون الأرض في الصباح ويبدءون درسه في المساء وحينما كانت تكتشف الشرطة مكانهم كانوا يحملون كتبهم ويذهبون إلى مكان آخر.

□ إرسال طلابه خارج البلاد وإعدادهم للدعوة:

كان ينصح تلامذته بالذهاب خارج البلاد فيفتحون دور القرآن ويعلمون

(١) هدى درويش، جريدة الأحرار، «الشيخ سليمان حلمي وإحياء الإسلام في تركيا»، عدد

أولاد البلد الذي يذهبون إليه وكان يوصيهم بقوله: «اذهبوا إلى مناطقكم وافتحوا دور القرآن والمسكن للطلاب هناك وعلّموا أولاد أمة محمد ﷺ كتاب الله ودينه. فإذا قمتم بما أقول فأنا داع لكم وإلا: فإني ممسك بخناقكم».

* موقف الإمام سليمان حلمي تجاه الحكومة:

شهدت تركيا في العهد الجمهوري عدة إجراءات اتخذها مصطفى كمال أتاتورك لإزالة كل أثر إسلامي أو تراث قديم للدولة العثمانية وتترك كل ما هو عثماني أو عربي، وذلك لإزالة الصلة التي تربط بين الإسلام والدولة، والوصول إلى الهدف المطلوب ألا وهو فصل الدين عن الدولة.

كان الإمام سليمان حلمي من بين علماء الدولة المسلمين الذين رفضوا إجراءات الحكومة وكل عالم كان له أسلوبه وطريقته، إلا أن الإمام سليمان حلمي اتجه بكلية نحو دراسة القرآن الكريم وتحفيظه واتخذ الوسيلة الوحيدة لإنقاذ المسلمين من ضياع إسلامهم وثقافتهم التي تربوا عليها قبل ذلك. وقد كان الإمام سليمان حلمي أهلاً لتدريس العلوم الدينية، واختار التدريس للطلبة على الرغم من الضغوط التي كانت تمارسها الحكومة آنذاك في وقت كان الناس يخشون نطق كلمة التوحيد، فقد كان الجو الإرهابي سائداً حتى أن الناس منعت من أداء أركان الإسلام أو ختم القرآن أو الصلاة وكان المسلمون يخفون إسلامهم.

□ وقد تحدث وزير الداخلية التركية في إحدى جلسات مجلس الأمة الكبير قائلاً:

«إن الأديان مؤسسات انتهت مهامها ولم تستطع أن تجد لها عضوية أو

حياة».

وقد حدث أن طالب أحد النواب البرلمانيين تطبيق الدروس الدينية

كعمل مضاد لخطر الشيوعية. فما كان من (رجب بكار) رئيس الوزراء في ذلك الوقت إلا أن قال له: «إن هذا الأمر يعني التداوي بسم آخر قاتل مثل سم الشيوعية». وقد اعتبر رئيس الوزراء أن تدريس العلوم الدينية الإسلامية هي سم قاتل.

وفي ٣ مارس ١٩٢٤ صدر قانون يقضي بإحالة كافة المؤسسات التعليمية التابعة للوزارات المختلفة إلى وزارة التعليم القومي وهو قانون توحيد المدارس الذي يهدف إلى تركيز السيطرة العلمية في سلطة واحدة.

وكان الإمام سليمان حلمي ضد إلحاق مدارس الأئمة والخطباء بوزارة التعليم الوطني، وعارض ربطها برئاسة الشؤون الدينية.

وقد أغلق مجلس الأمة الكبير عدد ٤٦٥ مدرسة علمية، و٢٩ مدرسة من مدارس الأئمة والخطباء.

وكانت الحكومة تنزل أقصى العقوبة على من يتولى مهمة تدريس الدين بصفة غير رسمية.

وقد أدت هذه الإجراءات إلى بطالة نحو ٥٢٠ مدرساً أجبروا على التقاعد، وقد استسلم أكثرهم للأمر الواقع على الرغم من تنبيه الإمام سليمان لهم بأن يعلموا أبناء المسلمين، ولو تركوا هذا الأمر فسوف يسألوا أمام الله عليه، ولكن للأسف لم يجد صدى فقام بالجهاد في هذا الأمر بمفرده. وكان ذلك العهد هو عهد الحزب الواحد وكان التدريس يقابل بأقصى عقوبة.

وقد أعلن المدرسون وقتذاك، أن التدريس لم يعد وسيلة للكسب قائلين «فلنودع هذه المهنة» إلا أن سليمان حلمي أجابهم غاضباً: «أن التدريس ليس سلة خبز، فهي تبليغ كتاب الله وستة نبيه ﷺ للناس». وهكذا بدأ كفاح سليمان حلمي في خدمة الدين.

وقد تحدث الإمام سليمان حلمي عن هذه الفترة قائلاً: «لم أجد من

أدرس له. وقد جاء يوم تمنيت أن أدفع للطالب راتب نائب كي أدرس له، لكن لم أجد ذلك الطالب، كانوا يخافون، وصرت أخاف من زوال هذه العلوم من على وجه الأرض. فبدأت بتدريس بناتي على أن يعلمن أحفادي ثم بعد ذلك خلق الله الأسباب، وبدأت أدرس للكهول وبعد ذلك جاء الشباب».

وكانت تعقد الجلسات لتداول المسائل الدينية، وكانت تجمع المحامي والتاجر والشيخ والخطاط وتشكل حلقات الدرس، وكانت الشرطة تتعقبهم فتقوم باعتقالهم واستجوابهم وتعذيبهم واضطهادهم، فكانت كل ما تكتشف الشرطة وجودهم في مكان ينتقلون إلى مكان آخر، وكان الإمام سليمان حلمي يقول: «ليس التعب يضمننا ولا الإزعاج يثنينا، سنسارع إلى نداء التعلم والتعليم والخدمة حتى وإن أدى بنا إلى الموت».

أما بخصوص ثورة الحروف وتغييرها من العربية إلى التركية فلم يؤيدها سليمان أفندي بل انزعج منها كثيراً فقد عبر عنها بقوله:

«إن أضر ما يكون بالإسلام والإيمان والعادات والتراث والصناعة والتجارة والزراعة أن تلغى الحروف الإسلامية على هذا النحو الذي شاهدناه». وتغيير الحروف كان يعني قطع صلة الإنسان بماضيه وثقافته وترك الكتب العلمية والفكرية التي لا تقدر بثمن على الرفوف نهباً للغبار أو التلف، والأسوأ من هذا هو فقدان الهوية الأصلية».

وفي هذه الفترة قامت أحداث كثيرة أثارت حفيظة المسلمين حيث كانت الشرطة تقوم بتعليق العلماء على أعواد المشاقق كما أحرقت المصاحف والكتب الدينية ودفنت بعضها في الأرض. وفي ذكرى تأسيس الجمهورية العاشرة قامت الشرطة بجمع المصاحف والكتب الدينية ووضعها على الإبل ليشدها رجل يرتدي زي أعزابي يقوم بجرها نحو الجزيرة العربية وقد علقت

على رقاب الجمال لافتة تحمل عبارات تقول: «جاءت من الصحراء ولتعد إلى الصحراء» و«جاءت من العرب فلتذهب إلى العرب» وغيرها من العبارات الاستفزازية. وحولوا الأذان إلى اللغة التركية. ولم يجد الناس من يصلي بهم الجنازة أو صلاة العيدين. فاختبأ عوام المسلمين من الناس خوفاً أو جهلاً.

* موقف الحكومة من الإمام سليمان حلمي والمصاعب التي واجهها في سبيل دعوته:

كان الإمام سليمان حلمي يخاطب رئيس الوزراء عدنان مندريس في مواعظه ويقول له: «يا مندريس افتح آيا صوفيا، وليكن هذا الشرف من نصيبك» لكن مندريس لا يسمع هذا الخطاب أو يسمع فلا يفعل شيئاً. وقد سبق الإمام سليمان حلمي إلى سجن كوتاهية في مؤامرة دبرت له في (بروسة) وكان مضطهداً من قبل الحكومة أيما اضطهاد حتى بعد موته، فعند دفنه قال نامق كديك وزير داخلية حكومة الحزب الديمقراطي التي يرأسها مندريس: «لن نسمح بنقله إلى الجهة المقابلة، سيدفن في حفرة حفرها رجال الشرطة بمقبرة قراجه أحمد» وكانت الحكومة قد رفضت طلبه بدفنه بجوار جده السلطان محمد الفاتح على الرغم من حصوله على كافة الأذونات لأجل هذا الغرض.

وعلى الرغم من معارضة الإمام سليمان حلمي للحكومة ورئيس وزرائها عدنان مندريس، إلا أنه لم يفكر في تكوين أي تنظيم سياسي، وكان طلابه يصوتون في الانتخابات ومنهم من ترشح للنيابة ورئاسة البلدية، ويعبر عن هذا قول الإمام سليمان: «ظاهرنّا مع الخلق، باطننا مع الحق».

لكن في الوقت نفسه كانت له مواقفه تجاه قضايا المسلمين في العالم،

ففي الجزائر كان لسليمان حلمي موقفه الحاسم مع مسلمي الجزائر الذين كانوا يكافحون لنيل استقلالهم من الاحتلال الفرنسي، فقد نادى تركيا بمؤازرة مسلمي الجزائر ضد الفرنسيين، ومن خلال خطبة له في المسجد قال فيها:

«يجب علينا أن ندعو لإخواننا الجزائريين، فنكون بذلك عونًا لهم، إن مسلمي الجزائر ساعدونا في حرب الاستقلال وتبرعت النساء الجزائريات بحليهن وأساورهن وخواتهن» وقد لقي خطابه هذا صدىً واسعاً لدى مسلمي الجزائر، وبسبب مقولته هذه في حق الجزائريين لنيل استقلالهم فقد تعرض لمساءلة الشرطة والتحقيق معه. وقد جاء في دفاعه عن نفسه في هذا التحقيق ما يلي على حد قول سليمان حلمي: «من خلال تعرضي في الحديث عن حروب الجزائر ذكرت أن إخواننا الجزائريين قدموا لنا مساعدات خلال الأيام العصيبة من حرب الاستقلال التي خضناها في الأناضول، وإننا مدينون لهم بمساعدتهم بالدعاء. لقد رفعت يدي بالضراعة قائلاً: اللهم انصر إخواننا في الدين على الفرنسيين الظالمين لكني لم أتطرق إلى موضوع قيام الصحافة بالدعوة إلى تقديم مساعدات سواء مالية أو غيرها، ولم أتحدث إلى الصحفيين في هذا الأمر». وهكذا نرى أن دعاء سليمان حلمي للمسلمين كان يؤدي إلى سلسلة من التحقيقات واستدعاءات الشرطة له.

وقد تعرض الإمام سليمان حلمي للاعتقال أول مرة عام ١٩٣٩م حيث أخذته الشرطة من منزله واعتقلته ثلاثة أيام، تعرض خلالها للتعذيب داخل زنزانه، ثم اقتيد إلى محكمة الجنايات.

ثم أقيل من عمله في الوعظ لأنه تكلم كلاماً يتعارض مع مبادئ العلمانية التي اتخذتها الدولة، وكان ذلك ثم أعيد إلى عمله مرة أخرى عام ١٩٥٠م وذلك بعد سلسلة من التحقيقات.

وفي عهد (عصمت إينونو) اعتقل مرة أخرى وألقي في زنزانه لمدة

ثمانية أيام تعرض خلالها لأنواع من العذاب، حيث كانت زنزانتة تضاء بمصاييح شديدة القوة تمنعه من النوم أو مجرد النظر، وكانت الأرض ترش بصفائح المياه التي لا تعد ولا تحصى؛ وذلك كي يصاب بأمراض الرطوبة وبالفعل فقد أصيب بالروماتيزم. وبعد معاناة حكمت المحكمة ببراءته من التهم الموجهة إليه.

وفي عام ١٩٣٦م علمت الشرطة باستتجاره مزرعة (خالد باشا) ليقوم بالتدريس فيها لطلابه، فاضطر لتغيير المكان حتى إنه أخذ طلابه وصعد بهم إلى قمة جبل يسمى (قوش قايا) بجبال سترانجه، ولكن الشرطة لحقت به مرة أخرى هناك فقبضت عليه واقتادته إلى المركز لاستجوابه. كان الإمام سليمان مراقباً مراقبة مستمرة من قبل رجال الشرطة، وقد حدث في يوم من أيام رمضان أن أخذ الإمام الشريطي المكلف بمراقبته إلى منزله وقال له: «يا ولدي إنني أعلم أنك صائم فلننظر معاً ثم تعود إلى عملك مرة أخرى»، وحينما اعترضت زوجته على ذلك قال لها: «إنه موظف يقوم بما تمليه عليه وظيفته»، وقد أثر هذا الموقف في نفس الشريطي تأثيراً قوياً حتى أنه التحق بطلاب الإمام وأصبح من أتباعه.

وفي عهد الحزب الديمقراطي دبرت مؤامرة للنيل من سليمان حلمي، وقد دبرت من قبل (جلال بايار) رئيس الحزب الديمقراطي مع (عصمت إينونو) واشترك في التخطيط لها كل من (نامق كديك) وزير الداخلية (وأحمد إحسان غورصوي) نائب كوتاهية وصهر (جلال بايار)، كما اشترك في تنفيذها عدد من الولاة والبيروقراطيين ورجال الشرطة السرية. وعرفت هذه المؤامرة (بأحداث منمن). وكانت أحداث هذه المؤامرة هي: أنه في يوم الجمعة توجه بعض الرجال إلى المسجد الكبير وأخذ أحدهم السيف من يد الخطيب وصرخ: «أنا المهدي» وصار آخرون يهتفون: «جاء مهدينا» فعمت

الفوضى وأخذ شرطي يطلق النار في الهواء فتفرقت الجموع وانفضت صلاة الجمعة في ذلك الوقت، وصدرت الصحف في اليوم التالي معلنة: «ظهور الرجعية»، وتم القبض على أتباع الإمام سليمان واعتقلوا الإمام سليمان حلمي وزوج ابنته (كمال قاجار) وسيقوا إلى سجن كوتاهية حيث بقي الإمام سليمان هناك مدة تسعة وخمسين يوماً، ثم حكمت المحكمة ببراءته من هذه التهمة. وبعد الحكم قال سليمان حلمي لهيئة المحكمة: «أشكركم لأنكم أحيتموني من الإعدام التدريجي». وقد أثرت هذه الأحداث على الإمام سليمان تأثيراً قوياً، حتى أنه عبر عن هذه الفترة التي قضاها في سجن كوتاهية بقوله: «لم أر الشمس في النهار ولا النجوم في الليل طوال فترة شهرين، لكنني أحمد الله ولا أشتكي لأن كل هذا في سبيله». وقد طلب منه أبناؤه أن يستريح بعد هذه الفترة التي عانى فيها العذاب خلال شهرين، لكنه رفض طلبهم قائلاً لهم: «يا أبنائي، سنعوض - إن شاء الله - ما فاتنا خلال هذين الشهرين»، وقد ضحى الإمام سليمان بصحته وحياته من أجل خدمة الإسلام والمسلمين^(١).

* مدارس الإمام سليمان حلمي:

قامت الحكومة عام ١٩٤٩م بفتح المدارس الدينية وذلك نتيجة لضغط المسلمين، وبعد وصول الحزب الديمقراطي الحكم عام ١٩٥٠م بدأت النشاطات الإسلامية تتطور، وتحقق حلم الإمام سليمان حلمي وصار التعليم يدرس في مدارس رسمية بعد أن كان التعليم يقتصر على غرف المؤذنين، وفي المزارع، وعلى رءوس الجبال، وفي الأدوار السفلية من العمائر. كان يعلم الناس وقت لم يكن هناك إمام المسجد وكان الموتى ينتظرون من يدفنهم،

(١) جريدة مللي غازته، ذكريات مع سليمان أفندي، إستانبول، ١٩٩٢م، (ص ٣).

وكانت نشاطات سليمان حلمي تحت المراقبة والتفتيش المستمر. ويرجع تاريخ افتتاح أول مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم التابعة لجامعة الإمام سليمان حلمي إلى عام ١٩٥١م. وكان هذا بشكل غير رسمي، أما أول مدرسة لتحفيظ القرآن على منهج الإمام سليمان فقد كان رسمياً عام ١٩٥٢م. وبافتتاح هذه المدرسة صار يرسل طلابه المتفوقين إلى الأناضول، ويطلب منهم أن يفتحوا مدارس هناك ويقوموا بمهمة التدريس فيها، وكان يتابع نشاط طلابه في فتح المدارس على خريطة تبين له كافة الأماكن التي فتحت فيها هذه المدارس.

وقد وجه تعليمه إلى الناشئين لتدريس القرآن وحفظه، فتتكون النواة وتتوارث الأجيال تعليمه فيضمن استمرار الإسلام ودوامه في القلوب.

وقد كان الإمام سليمان حلمي شديد الحرص على افتتاح مدارس القرآن في الأناضول، وإذا سمع خبر افتتاح مدرسة من المدارس في أي مكان كان يقوم ويسجد شكراً لله. وكانت رئاسة الشؤون الدينية تقيم مسابقات للوعظ والإفتاء، كان الإمام سليمان يرسل طلابه للاشتراك في هذه المسابقات، فكان طلابه هم الذين يتفوقون على باقي الشباب على الرغم من صعوبة الأسئلة في الفقه وعلم الكلام والمنطق والتفسير والنحو والصرف والموارث والحديث. وحينما كانت اللجنة الفاحصة تسأل أحد المتفوقين وتقول له: من الذي علمك؟ فكان الجواب: سليمان أفندي! عندئذ أراد رئيس الشؤون الدينية وكبار الرسميين فيها في ذلك الوقت زيارة الإمام سليمان حلمي ورؤية ذلك المعلم الفذ الذي خرج على يديه هؤلاء المتفوقين».

وقد تخرج طلاب من أبناء الإمام سليمان شغلوا مناصب هامة في الإفتاء والوعظ لدى رئاسة الشؤون الدينية، ومنهم (حسني يلماز) والذي كان مفتياً لمدينة (باليكسیر) وعمره ثمانية عشر عاماً.

وقد جاء في عناوين الصحف خبر يقول: «تعيين أصغر مفتٍ

لبالكيسير» وهو أحد أبناء الإمام سليمان حلمي.

□ وجاء وصف هذه المدارس على حد قول الأستاذ نجيب فاضل، الكاتب والشاعر والمفكر الإسلامي الشهير: «عرفني سليمان أفندي على هؤلاء الطلبة فدهشت لأمرهم كمن يدهش من العثور على كثر في حديقته، كنت أظن أن عمل هذه المدارس هو التكرار والحفظ، لكنني رأيت أن هذه المدارس بأيدي مسئولين أطهار، هم مهرة في تعيين هدفهم وتشخيص مشاكل مجتمعهم، ويمكن أن أقول إنه لا توجد في تركيا مؤسسة مثلها في الوحدة والحجم. والرباط الذي يربط هؤلاء الأشخاص هو الشريعة، والمدارس القرآنية هذه تستمد قوتها من هذه الرابطة، وإنني إذ اعتبرها أنقى وأصفى العروق في الجيل الإيماني الجديد فمرجعه هو هذا الرباط».

وكان نجيب فاضل يقول أيضاً: «من المؤسف أن بعض العناصر التابعة لرئاسة الشؤون الدينية كانوا يشعرون بالضيق من هؤلاء الشباب، فعملوا على إبعادهم عن المؤسسات التابعة للشؤون الدينية فاضطر بعضهم إلى الاستقالة».

وقد عارضهم نجيب فاضل بقوله: «إن الذين يتناولون على المجموعة المعروفة في مجال التعليم الديني بالسليمانيين ويعرقلون نشاطاتهم، ما هم إلا ردود أفعال ناجمة من البعد عن الحقيقة ومن الحسد وعدم الثقة بالنفس».

كانت هذه المدارس منتشرة في كل مدينة وكل قرية وكل حي، وهي على قدر كبير من النظام والانتظام والرابطة الأخوية بين الطلبة.

ومن الأمور التي أدهشت الجميع في هذه المدارس هي طريقة تعليم العلوم القرآنية في فترة قصيرة وعلى أكمل وجه. وكان منهج الإمام سليمان حلمي في التدريس يختلف عن مناهج المدارس الأخرى، وكانت تتلخص في التطبيق الذي يساعد على تنشيط الطالب تنشيطاً مستمراً، وكانت طريقة الإمام سليمان في التدريس أن يجعل الطالب يقرأ الدرس بنفسه، وتكون

مهمة المدرس هي إكمال نواقص الطالب، فيكتسب الطالب ثقة بنفسه، وتكون المادة أكثر رسوخاً في الذهن.

كان سليمان أفندي يقوم بالتدريس لطلابه من أمهات الكتب العربية في المدارس العثمانية، وكان يقوم بتعليم الإسلام باللغة العربية التي هي المصدر الأصلي للعلوم الإسلامية، ولم يصرف وقته في تأليف الكتب حتى يتمكن من قضاء كل وقته في تعليم طلابه الإسلام وخدمة الإسلام.

□ وقد سئل عن الأسباب التي جعلته يتحاشى تأليف الكتب فأجاب:

«نحن نعلم ما نعلمه للأجيال فتقوم هذه الأجيال بتأليف الكتب، نحن نعد الآثار التي تؤلف الكتب، وقد رأيت بعض الكتب التي لا تقدر بثمن دفنت في التراب وتلفت، فخير لنا أن نربي طلاباً يفهمون الكتب العلمية ويفهمونها لغيرهم، فينقلون العلوم من السطور إلى الصدور».

وهناك سبب آخر لعدم تأليفه الكتب هو أنه خشي على طلابه من أن ينصرفوا إلى قراءة كتبه ويفضلونها على قراءة القرآن، فيهجرون القرآن ولهذا صرف النظر عن الكتابة.

أحيا الإمام سليمان حلمي الإيمان والعقيدة والعبادة، وأضاف إلى منهج التدريس كتب المتون.

نجح الإمام سليمان حلمي في تدريس الكتب التي تحتاج إلى خمسة عشر عاماً واختصرها إلى خمس سنوات، وسبب هذا النجاح هو صفاته المعنوية وإخلاصه في خدمة الدين.

وقص أحد محبيه ويدعى «الحاج علي شكر» كيفية تدريس الإمام سليمان حلمي الدروس لطلابه وطريقه شرحه قائلاً:

«ذهبنا في أحد الأيام مع الحاج مصطفى أفندي القونوي إلى مدرسة القرآن في قصيقلبي، وأثناء الحديث مع فضيلة الإمام سليمان نادى أحد تلامذته قائلاً له: هيا اقرأ يا ولدي، فبدأ الطالب يقرأ نصاً من الكتاب وصار

يشرح ما يقرأ بقدر فهمه بينما كان الإمام يكمل نقص الطالب، وبعد إجابة الطالب صار الإمام يشرح الدرس بطريقة أسهل وأسرع ثم يشجع الطالب للقراءة مرة أخرى، وبينما الطالب يقرأ يقول له الإمام:

«اقرأ يا بني، انتبه للضمير... ستقرأ من الباب... لا تنس نائب الفاعل... فأعجبنا بطريقة تدريسه حتى وددت أن أقرأ الدروس بين يديه على الرغم من كبر سني».

كان الطالب يشترك في الدرس والأستاذ يكمل النواقص فيتخلص الطالب من الخجل والخوف، كما أن تنبيهات الإمام وتذكيره له ببعض النقاط كان حافظاً له لتثبيت معلوماته.

وكان كتابه المطبوع الوحيد هو «ترتيب جديد وطريقة حديثة في تعليم قراءة حروف وحركات القرآن الكريم» وقد اختصر هذا الكتاب تعليم قراءة القرآن من شهور إلى أيام، فكان يقول: «الآن وقت السرعة وليس وقت إطالة التدريس»، ويستعاض عن الحفظ بفهم خلاصة الدرس، وكان طلابه يقرءون الدرس قبل أن يدرسوه أمام شيخهم.

وكان يعتمد في تدريسه على «الحب» فكان يحب طلابه ويحبونه ويحبون تعليمه ويقبلون عليه بالحب والشوق لأحاديثه، فالحب جعل الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ١٠ - ١٢ عاماً يعتلون المناير والمنصات، وبالحب ضمن استمرارهم زغم الشدائد والعقبات، كان يحرص على ألا يدخل الملل القلوب، فكانت دروسه يتخللها الحديث عن ذكرياته وأحاديثه العذبة، فلا يتعب طلابه ويشعرون بالراحة والاستمتاع بالدرس.

كان يعلم طلابه طريقة الحديث واللباس، فكان مريباً، يقول في حق طلابه: «إن أبنائي يأتون نحوي وأرجلهم تجر نعالمهم، ويعودون وهم أسياد من أسياد إستانبول» كان طلابه يحبونه أكثر مما يحبون آباءهم وأمهاتهم، وقد

سئل يوماً عن سر هذا الحب الذي بينه وبين طلابه فأجاب قائلاً: «الأب والأم هما السبب الظاهري في مجيئهم إلى الدنيا، بينما نحن نجتاز بهم عالم البرزخ والحشر والصراط لنوصلهم إلى الجنة والجمال الإلهي»، وكان هذا جانب من جانبه الروحي مع طلابه، كان طلابه يصعدون منابر المساجد يلقون الخطب ويلقون دروس الوعظ فيشعرون بالثقة في النفس، وكانوا طلاباً ومعلمين في آن واحد، وفي شهر رمضان كان الإمام سليمان يرسلهم إلى مختلف البلاد يقومون بدور الوعظ والإرشاد، وكان يأمرهم بزيارة مفتي كل بلد يذهبون إليها يطلبون منه الإذن بالوعظ، فينشرون العلم الذي تعلموه وينشرون العلوم الإسلامية.

والكتب التي كان يدرسها الإمام سليمان أفندي في مدارسه هي: «الأمثلة، والبناء، والعوامل، والمقصود، والإظهار، والمراح، والكافية» وغيرها من علوم الأدوات بالإضافة إلى مجموعة من المتون: «الأمالي، وعقائد النسفي، والمنار، وإيساغوجي والشمسية، وشرح العقائد، وحاشيته للقسطلي، والسيرة النبوية، وأصول الحديث، وكتب الأحاديث والتفسير والفرائض».

وجميع هذه الكتب كانت تدرس في المدارس الدينية قديماً، وكان جميع الطلبة ينجحون ويتفوقون، وقد استحدث الإمام سليمان أفندي طريقه إحياء المدارس التي كانت تمثل التعليم الديني العثماني، ولا يزال طلابه يسرون على مناهجه حتى الآن، ولم تتوقف طريقه تدريسه بوفاته بل بثها في أتباعه، فحافظوا عليها واستمروا فيها متذكّرين تعاليمه ووصاياهم ويسرون على طريقه وأسلوبه، حتى إن عدد ما ينسب إليه من مدارس القرآن يزيد الآن عن ثلاثة آلاف مدرسة.

وعندما قرب موعد رحيله وشعر بدنو أجله تحدث في آخر خطبة له

أمام مائتين من طلابه قال فيها: «يا أبنائي، لا يلهكم القلق على معيشتكم فالمعيشة مال الدنيا، والمعيشة مضطرة للحاق بمن ارتبطوا بالله، يا أبنائي، إن لنا في هذه الدنيا هدف واحد هو شحن قلوب أبناء الأمة المحمدية بالفيوض المحمدية، هذه هي مهمتكم: التعليم.. التعليم، يا أبنائي إنكم محظوظون لأنكم تتلقون العلم حياً عن حي، وستستمررون في القيام بهذه المهمات؛ فإذا بقيتم مواظبين عليها فستجدوني من الداعين لكم، فإذا لم تنقلوا العلم الذي تلقيتموه منا لغيركم ولم تشحنوهم به، فاعلموا بأن أصابعي العشرة ستأخذ بخناقكم يوم القيامة، وإذا لم تقوموا بهذه الخدمات فبأي وجه ستقابلون الله وتقابلون رسول الله وتقابلوني.. يا أبنائي إياكم والفرقة والخلاف، أنتم مأمورون بنشر نور الله».

وودعهم وكأنه يراهم للمرة الأخيرة، وقال لهم: «سنكون معاً في عالم البرزخ».

ولا يفوتنا هنا في الحديث عن هذه المدارس أن نذكر تقييم المفكر والكاتب نجيب فاضل لهذه المدارس، وقد جاء على النحو التالي:

- المدارس القرآنية هي الوعاء الذي يصنع بداخله الجيل الإيماني الجديد وهدفها علمي وروحي بحت.

- في هذه المدارس يدرس كتاب الله ويعلم للناس ويشحن الضمير بالحق، وليس في هذه المدارس سياسة بل علم وتشوق.

- في هذه المدارس يتم تعلم أحكام الشريعة مع اليقين بأنها أوامر من الله.

- حرارة الشعور بالوجد تجاه الإسلام وحب الله ورسوله في هذه المدارس مثل حرارة أفران الصهر التي يحرص أصحابها على عدم انطفاء نارها.

- المدارس القرآنية باعتبارها مادة أنارتها روح معينة هي مؤسسات أنجزها سليمان أفندي وأتباعه.

- إننا نعتبر طلاب مدارس القرآن الذين بلغ عددهم مائة ألف - والعدد الآن أكثر من هذا - أرض غراس بكر تنتج الجليل المنتظر.

- نحن مصممون على أن نحول أمر الذين ينطقون بكلمة سوء واحدة ضد الهوية السامية الواضحة لمدارس القرآن إلى سيفنا الذي يعرف الكفر أوصافه جيداً.

وهذه المدارس منتشرة الآن في كل مدينة وكل قرية وكل حي، وهي على مستوى عالٍ من النظافة والانتظام والرابطة الأخوية بين الطلبة.

✽ ملاحظات على برنامج تلامذة سليمان حلمي أفندي:

١ - يدرس الطالب الحديث والتفسير في كل مرحلة ابتداءً من المرحلة الثالثة ويستمر في الرابعة والتكاملية على حسب مستوى الطلاب.

٢ - كل مرحلة عبارة عن عام كامل.

٣ - يعقد اختبار في نهاية كل عام لكي ينتقل الطالب من مرحلة إلى مرحلة أو من عام إلى عام آخر؛ فإذا نجح ينتقل إلى المرحلة الأعلى وإذا رسب يعيد الدراسة كاملة.

٤ - يستمر التعليم في مدارس الإمام سليمان حلمي طوال العام، بمعنى أن العام الدراسي عندهم أحد عشر شهراً والشهر الباقي هو شهر رمضان حيث تعطل الدراسة فيه.

٥ - يقوم الطلبة في شهر رمضان بنوع من الدراسة العملية فيتم توزيعهم على المساجد في القرى والمدن دعاة وأئمة ووعاظاً حتى يتعودوا على مهام

الدعوة الإسلامية بعد تخرجهم .

٦ - يشمل البرنامج بعض المواد الأخرى مثل علم الميراث أي علم الفرائض وبعض الأمور العلمية الأخرى .

٧ - يطبق هذا البرنامج على البنات في مدارس البنات التابعة للإمام سليمان حلمي .

ومن نصائحه العامة لطلابه قوله: « لا يلهكم القلق على معيشتكم، فالمعيشة مال الدنيا، ومال الدنيا مضطر لأن يلحق بالذين ارتبطوا بالله» .
ومن آخر وصاياه لهم أيضاً: «أنتم مأمورون لله، مأمورون لرسوله، مأمورون لدينه، مأمورون لكتابه ومأمورون بنشر نور الله» .

وشعر تلامذته أنهم مسئولون أمام الله في تعليم أمور الإسلام، فحتى بعد وفاة الإمام سليمان لم ينفرد عقد هذه الجماعة، بل هم مستمرين في تأدية خدماتهم للدين والإسلام بنفس القوة التي بدءوا بها سواء داخل تركيا أو خارجها .

* أعمال الإمام سليمان حلمي أفندي :

لم يهتم الإمام سليمان بتأليف الكتب كما ذكرنا من قبل لأنه كان يهيمه تعليم أبنائه، فلا يشغل نفسه بعمل حتى لا يضيع لحظة دون أن يعلم فيها طلابه، فكانت كتبه قليلة المعروف منها:

١ - حروف القرآن وتشكيله: وهو أسلوب جديد وطريقة حديثة لتعلم قراءة القراءة الكريم، ويتكون من ست صفحات، وقد سهل هذا على الطلاب عملية تعلم القرآن وحفظه .

٢ - رسالة كبريت أحمر: وهي رسالة تتضمن السلوك الذي يجب اتباعه في سلوك المسلم .

٣ - رسالة الرسائل: «بعض المسائل المهمة» وهو كتاب يتحدث عن الصحة وآدابها.

* وفاة الإمام سليمان حلمي ١٦ سبتمبر عام ١٩٥٩م «سيخافون من موتنا كما يخافون من حياتنا»:

لم يقف مرض السكر الذي كان يعاني منه الإمام سليمان حلمي حائلاً دون تأدية خدماته لطلابه، وقد كان يسافر يومياً متنقلاً عبر أربع وسائل للمواصلات للذهاب لطلابه والتدريس لهم، وظل على هذا الحال مضحياً بالنفس والصحة والمال في سبيل أولاده والوصول بهم إلى مقصده، وفي ١٦ سبتمبر عام ١٩٥٩م رحل الإمام سليمان حلمي إلى دار البقاء وقت صلاة المغرب.

طلب رئيس مجلس الأمة في ذلك الوقت «إبراهيم كيراز أوغلو» بدفنه قرب ضريح السلطان «محمد الفاتح» جده نسباً، فوافق رئيس الوزراء بالسماح بدفنه قرب السلطان، وفي اليوم التالي توجهت الجموع من كل مكان لحضور مراسم الجنازة، واجتمعت جموع أخرى في جامع الفاتح انتظاراً لنعشه، وحينما حمل الآلاف من محبيه نعشه للذهاب إلى مسجد جده الفاتح منعت الشرطة السماح بدفنه في هذا المكان وقطع الطريق على الموكب، وتم دفنه في مقبرة حفرها له رجال الشرطة في «قراجا أحمد».

وكان السبب في منع دفنه بجانب قبر الفاتح هو «نامق كديك» وزير الداخلية في ذلك الوقت حيث قال وقتها: لن نسمح بنقله إلى الجهة المقابلة، سيدفن في حفرة حفرها رجال الشرطة بمقبرة «قراجا أحمد»، وقد قال الإمام سليمان يوماً: «سيخافون من موتنا كما يخافون من حياتنا»، وقد رأى أحد أتباعه في منامه الإمام يقول له: «حاولتم كثيراً أن تدفنوني بجانب الفاتح

ولكن هناك حكم كثيرة لا ندركها بعقلنا».

وظل الآلاف يترددون على قبره بمقبرة «قراجا أحمد» حتى يومنا هذا، ويعتبرونه قدوتهم في الدنيا بروحه بينهم».

تلك هي دعوة الإمام سليمان حلمي طوناخان إلى الأمة الإسلامية من أجل الحفاظ على روح الإسلام في ظل الحفاظ على القرآن الكريم من خلال لغته العربية.

ويقف المسلمون الآن في تركيا ثمرة جهاده وكفاحه في سبيل إحياء الإسلام وفي سبيل الأمة الإسلامية، بعد انتشار القرآن الكريم في بلاد كان مقدراً فيها - حسب إرادة البشر - أن يقضى على كتاب الله وعلى اللغة العربية والعلوم الإسلامية فيها.

هدى درويش

من كتابها «الإسلاميون وتركيا العلمانية»

القاهرة ١٩٩٨ م.

* الشيخ عاطف الاسكيليبي:

صفحة مضيئة في تاريخ تركيا، إعدامه بسبب تحريمه لبس القبعة.. ورؤيته لرسول الله ﷺ مناماً قبل الحكم عليه بساعات.

* حياته وفكره:

حياته:

اسمه محمد عاطف، ويطلقون عليه عاطف أفندي، أو عاطف خوجه وكلاهما يعني عالم الدين.

ولد الشيخ عاطف الاسكيليبي عام ١٨٧٦ في قرية طوبخانه التابعة لاسكيليبي في الأناضول من أسرة عريقة في العلم، عريقة في النسب، كان تحصيله الأولي في قريته، أما في عامي ١٨٩١ - ١٨٩٢م فقد تلقى بداية علومه الدينية في اسكيليبي نفسها، ومن ثم انتقل إلى إستانبول حيث كان وصوله إليها في إبريل عام ١٨٩٣م، أنهى دراسته الدينية وقد بلغ من العمر ٢٦ عاماً، وفي عام ١٩٠٢م حصل على إجازته العلمية، وفي نفس هذا العام دخل امتحان التقدم لكلية الإلهيات التي كانت تابعة لجامعة إستانبول، فكان ترتيبه الثاني على المتقدمين، وفي عام ١٩٠٥م تخرج في هذه الكلية وعين معلماً بدرجة (مدرس عام) في جامع الفاتح، وبذلك أُتيح له التصدي لإلقاء الدروس الدينية من فوق كرسي الوعاظ هناك، وبالتالي بدأ الشيخ عاطف أفندي في التدريس.

كما كان يكتب المقالات الدينية والشرعية في مجلتي «بيان الحق» و«صراط مستقيم» أشهر المجلات الإسلامية في الدولة العثمانية.

وعندما أجبرت جمعية الاتحاد والترقي عام ١٩٠٨م السلطان عبد الحميد الثاني على إعلان المشروطية على أسس النظم الغربية، بدأ عهد الاتحاد والترقي وبدأت معه آلام الشيخ عاطف أفندي، فأبعدته الجمعية عن إستانبول، إلى سينوب، ثم إلى جوروم، ثم إلى بوغازليان وإلى سنقرلو (من بلاد الأناضول) ثم أطلق سراحه بعد نفي أربع سنوات.

وعندما حدثت الانتخابات في عهد الاتحاد والترقي اختاره أهل جوروم نائباً عنهم، فانتهاز الفرصة لينتقد حكم الاتحاد والترقي، وكان أن أصبح مديراً عاماً للمدرسة الابتدائية الداخلية بإستانبول، فلم يسكت وظل مداوماً على نشر المقالات الدينية لتوعية المسلمين بأوضاعهم، فأكثر من الكتابة في مجلة «محفل» وركز على التوعية بأسس الفقه الإسلامي باعتبار أنها روح الشريعة

الإسلامية.

كان الشيخ عاطف أفندي، مقصد المسلمين الذين كانوا يفدون من كل جهات العالم إلى إستانبول، باعتبارها مركز الخلافة الإسلامية، من اليابان، ومن العراق ومن القرم وغيرها، يستفتون الشيخ عاطف أفندي في أمور دينهم، ولم يكن يرد قاصداً إلا بعد أن يكرمه، فزاد هذا العلم الغزير والكرم، احترام الشيخ في قلوب المسلمين.

وعندما احتل اليونانيون أزمير في الحرب العالمية الثانية، كانت جمعية «تعالى إسلام» (أي: رفعة الإسلام) التي أسسها الشيخ عاطف أفندي، أول من احتج لدفع المعتدي.

قام الشيخ عاطف أفندي بتدريس مادة التفسير في القسم العالي في مدرسة دار الخلافة، ومادة حكمة التشريع في مدرسة القضاة بإستانبول، كما اشترك في دروس مجلس السلطان (حضور درسلري) وهي مناظرات علمية يقوم بها العلماء في حضور السلطان العثماني.

واستمر الشيخ في وظيفته مديراً للمدرسة الابتدائية ومدرساً حتى عام ١٩٢٤م، أما بعد هذا التاريخ فقد اقتصرته مهامه على التدريس فقط في جامع الفاتح مدرساً واعظاً.

كانت الثورة التي قادها مصطفى كمال أتاتورك قد ألغت التعليم الديني في ١٥ فبراير عام ١٩٢٤م، وقد اتخذ كمال هذا القرار في مجلس من قادة الجيش والأركان، ومعه قرارين آخرين، والقرارات الثلاثة كانت كالآتي:

١ - إلغاء الخلافة.

٢ - إلغاء وزارة الأوقاف والأمور الشرعية.

٣ - توحيد التعليم.

وفي ٣ مارس عام ١٩٢٤م تم تنفيذ قرار مجلس الأمة التركي بإلغاء الخلافة وطرد كل أفراد آل عثمان خارج البلاد، ونفّذ هذا القرار في ليلة الموافقة عليه (انظر: مضبطة خمسين عامًا من الجمهورية، إستانبول ١٩٧٣م).

أما في عام ١٩٢٥م فقد صدر قانون الملابس في تركيا، والذي أبدل الطربوش بالقبّعة.

قبل صدور هذا القانون بعام أو أربعة أشهر كان الشيخ عاطف أفندي قد أصدر رسالة في «تقليد الفرنجة والقبّعة».

في اليوم التالي صدرت الصحف التركية بالعنوان التالي: «تنفيذ حكم الإعدام في الشيخ عاطف الاسكيليبي، مؤلف الكتب الرجعية»، ولما أرادت زوجته التأكد من خبر إعدامه، أرسلت برقية إلى مدير سجن أنقرة، فجاءها الجواب كالتالي: «مات الشيخ عاطف أفندي».

يعقب على هذا الرد المقتضب، الكاتب الإسلامي الشاب المؤرخ صادق آل بايراق بقوله: «لم يستطيعوا أن يقولوا قتلناه... ذلك أنهم كانوا يخافون... كانوا يخافون حتى من جسده بعد موته».

* فكر الشيخ عاطف أفندي:

يمكن استقراء فكر عاطف أفندي من خلال مقالاته ورسالاته، وكتبه وخطبه، ويمكن وضع خطوط فكره العريضة على النحو التالي:

اتباع أهل السنة والجماعة:

□ يقول عاطف أفندي في مرآة الإسلام: «مذهب أهل السنة والجماعة هو الحق، وما عدا هذا باطل، واعتقاد أهل السنة والجماعة هو الطريق الحق المستقيم؛ والذي بيّنه جناب الله في القرآن الكريم، والذي ذكره الرسول

عليه السلام بأحاديثه الشريفة، وليس في اعتقاد من اتبع هذا، أي اعوجاج . . .»

* تعريف الخليفة:

□ يقول عاطف أفندي:

«الخليفة، هو خلف لسيدنا الرسول ﷺ، مهمته النظر في أعمال الناس الدينية والدنيوية، وهو الرئيس العام الذي يدير هذه الأعمال، واختيار الخليفة واجب على كل المسلمين، ويشترط أن يتوفر في الخليفة أن يكون مسلماً حراً، ذكراً بالغاً، عاقلاً قادراً على إدارة أمور الأمة، وعلى الحفاظ على البلاد وعلى تنفيذ أحكام الدين . . . ويصبح الشخص الذي تتوفر فيه هذه الشروط خليفة، بقبول علماء الأمة وعقلائها له خليفة للرسول وحاكماً على الناس . وواجب على عموم المسلمين وغير المسلمين الذين يقبلون التبعية للحكومة الإسلامية إطاعة أوامر الخليفة التي تتفق والشريعة الإسلامية، وأن يكونوا جنوداً وأن يدفعوا الضرائب وأن لا يعصونه ولا يقومون ضده، أما الذين لا يخضعون لأوامره المتفقة والشريعة والذين لا يكونون جنوداً ولا يدفعون الضرائب، يكونون عصاة مذنبين، ولكن تنفيذ أوامره التي تخالف الشريعة فحرام». «طريق الإسلام» (ص ٧٧ - ٧٩)، عن صادق آل بايراق، معركة الدين في تركيا، إستانبول ١٩٧٥م، (ص ٥١٦).

* واجبات الشعب تجاه الخلافة:

يذكر عاطف أفندي واجبات الناس تجاه الخلافة في عشر واجبات

كالآتي:

- ١- إطاعة أوامر الخليفة وعماله إذا وافقت الشريعة.
- ٢- دفع الضرائب الواجب دفعها للحكومة شرعاً مثل العشر والخراج،

وزكاة الأموال الظاهرة في حينها.

٣- أداء الخدمة العسكرية.

٤- معاونة الحكومة في كل ما هو حق، مالا وبدناً وفكراً ولساناً وقلماً.

٥- بجانب عدم القيام ضد الخليفة، فالواجب صيانة الخليفة وحمایته من أصحاب الفساد ومن فتن أصحاب الفتنة، وكذلك من مؤامرات أعدائه.

٦- تحويل قلوب عموم التبعية (الشعب) خاصة هؤلاء الذين ينفرون من الخليفة، من العدااء له إلى واجبه وطاعته.

٧- إخبار الخليفة بظلم موظفيه وعامليه وبمعاملاتهم السيئة.

٨- إيقاظ الخليفة إذا أغفل، ومنعه من الظلم، وإرشاده إلى طريق الحق والعدل بتصحيح خطئه، ومنعه من ارتكاب المعصية.

٩- إظهار الإحترام اللائق للخليفة والدعاء له بصلاح أمره.

١٠- تقديم النصح للخليفة سراً أو علانية.

عاطف أفندي؛ «طريق الإسلام»، إستانبول ١٩٢٢م، عن صادق آل بايراق، «معركة الدين» (ص ٢١٦).

* وجوب البيعة للخليفة:

□ يقول عاطف أفندي في ذلك: «إن بيعة المسلمين للخليفة أمر واجب، وهو ثابت بالعقل والشرع، والدليل الشرعي في هذا، هو إجماع الصحابة والتابعين واتفقهم عليه، ففي يوم وفاة سيدنا الرسول صلوات الله وسلامه عليه، اجتمع الصحابة - رضوان الله عليهم - قبل دفنه ﷺ في المكان الذي أطلق عليه سقيفة بني ساعدة، وتشاوروا في أمر بيعة الخليفة

وبايعوا سيدنا الصديق رضي الله عنه، بعد أن اتفقت كل آراء الأمة على أنه أحق وأليق الجميع لمقام الخلافة، وقد استمر الوضع على هذه الشاكلة أيضاً في عهد الصحابة وعهد التابعين من بعد. وبناء على ذلك؛ فإن وجوب تعيين الخليفة ثابت بإجماع الأمة بطريق الأدلة الشرعية. «شريعة الحضارة» نقلاً عن صادق آل بايراق، «السائرون والمنفيون في سبيل الشريعة» (ص ٣٩)، إستانبول ١٩٧٩ م.

* ضرورة وجود الخلافة القوية:

في هذا يقول عاطف أفندي: «... وحيث إن الغاية الأساسية في الخلافة، هي تنفيذ أحكام الشريعة وتنظيم شؤون الأمة، ولأن هذا يستلزم الاعتماد على القوة والسلطة؛ فإن الأصل في شروط الخلافة والذي يتقدم على كل الشروط هو: القدرة والقوة» المرجع السابق، (ص ٤٠).

* مسئولية الأمة تجاه الشرع:

حث عاطف أفندي الأمة على التحرر من أنواع الأسر، بقوله: «أيتها الأمة! إذا كنتم تريدون التخلص من الظلم، إذا كنتم تريدون التحرر كلية من الأسر، فأكسبوا أنفسكم القدرة على الإبقاء بواجباتكم الشرعية، ثوروا ضد ظلم الظالم، بأي شكل كان، ثوروا ضد كل عمل مخالف للدين يقوم به فرد أو تقوم به حكومة». نفس المرجع (ص ٤١).

* مسئولية الأمة تجاه العدو الغاصب:

في مقالة له بعنوان «الجهاد» نشرها في «بيان الحق»، قال عاطف أفندي موجهاً حديثه للأمة المسلمة: «إن الأمة المسلمة سواء كانت في منطقة الروملي (أوروبا الشرقية، وكانت تابعة للدولة العثمانية) أو في الولايات الأخرى، أو

حتى في الشرق أو الغرب، إذا أظهرت هذه الأمة التكاسل في الحرب ضد العدو الغاصب، سواء كان هذا التكاسل بدنياً أو مالياً، وإذا ما تسببت هذه الأمة (في أي مكان هي فيه) في هزيمة الحكومة الإسلامية أو تسببت في انهيارها كلية؛ فإن أفراد هذه الأمة المسلمة جميعاً آثمون قد ارتكبوا بذلك الذنب الكبير، مثل ذلك: مثل قتل النفس، وأكل لحم الخنزير وشرب الخمر وارتكاب الزنا، وتكون الأمة كلها قد عصت شريعة الله. المرجع السابق (ص ٣٨).

* مثل المتبرع بثمن مسمار في مدمرة حرب إسلامية:

□ يقول الشيخ عاطف أفندي في مقالة له بعنوان «القوات البرية والبحرية في نظر الشريعة» نشرها في جريدة «صراط مستقيم» في ١٠ سبتمبر عام ١٩١٠م ما نصه: «لو أن شخصاً دفع عشر عملات (بارة) من النقود مساعدة للأسطول؛ ونتج عن هذه المساعدة مسمار في مدمرة اشترتها (الدولة الإسلامية أو صنعتها لحسابها) وتم دفع هذه المدمرة إلى الحرب، وكان المسمار (موضوع الحديث) فيها؛ فإن للشخص المتبرع بالمبلغ المذكور أجره وثوابه دائماً سواء في حياته أو بعد موته، وكما لو كان اشترك بالفعل في الحرب». عاطف أفندي «القوات البرية والبحرية في نظر الشريعة»، مجلة «صراط مستقيم» (٢٣٧٧/٥) سبتمبر ١٩١٠م، ١٣٢٦هـ نقلاً عن صادق آل بايراق، المرجع السابق (ص ٣٦).

* الحجاب والمرأة المسلمة:

للشيخ عاطف أفندي رسالة في تستر المرأة المسلمة وحجابها بعنوان «التستر الشرعي» يقول فيها:

١ - المرأة مجبرة على الاشتغال بالأعمال المنزلية وتربية الأطفال، فهذا

من وظائفها الأساسية.

٢ - ضرورة منع ما يفسد سعادة العائلة من أسباب الكدر والوهم والوقوع في الشبهات، ذلك الذي يحدث عند رؤية رجل عفيف وشريف لعائلته وهي تختلط برجال أجنب عنها، فيأخذ منه الشك مأخذاً، ويتولد من هذا السبب حدوث النفور بين الرجل وأهله.

٣ - ضمان سعادة الأسرة في إطار العفة والشرف بمنع زيادة سوء الخلق ومنع الفواحش وظهورها.

لذلك يجب منع الذين يعملون للإخلال بهذا قولاً وكتابةً وفعلاً ومعاقبتهم، كذلك الأمر للذين لا يراعون الحجاب من الناس، إن هذا من الواجبات الدينية للإداريين (المسؤولين) الذين تكون مهمتهم حكم الناس.

أما الذين يبدون - من هؤلاء - تسامحاً أو إهمالاً فإنهم يكونون مسئولين أمام الله لأنهم لم يوفوا بواجباتهم الشرعية وهم بذلك يستحقون العذاب الإلهي والجزاء السيئ، وإنه لفرض على كل مسلم، كل حسب قدرته تنفيذ أوامر الدين ونواهيه، بدفاعه وبمواجهة الذين يعملون على إزالة شعار من شعار الإسلام أو أركانه أو لغوها». محمد عاطف أفندي «تستر شرعي» (ص ١ - ١٦). إستانبول ١٩٢٣م نقلاً عن «معركة الدين في تركيا» لصادق آل بايراق إستانبول ١٩٧٥م.

* أعمال عاطف أفندي :

يورد نجيب فاضل في كتابه «المظلومون من الإسلاميين في العهد الأخير» إستانبول ١٩٧٧م، أثناء حديثه عن عاطف أفندي، قائمة بأعماله أوردها بالتالي كالاتي: (ملاحظة أن عاطف أفندي لم يكتب إلا بالتركية):

١ - «مرأة الإسلام».

- ٢- «طريق الإسلام».
- ٣- «دعوة الإسلام».
- ٤- «المسكرات في دين الإسلام».
- ٥- «القوات البرية والبحرية في نظر الشريعة».
- ٦- «الحجاب الشرعي».
- ٧- «حضارة الشريعة».
- ٨- «تقليد الفرنجة والقبة» وهو الكتاب الذي شُنق بسببه.

* معاناته واستشهاده:

بدأت معاناة عاطف أفندي مع تسلط حزب الاتحاد والترقي على أمور الحكم في الدولة العثمانية، كان الاتحاد والترقي مقدمة لنتيجة أسفرت عنها عملية تغريب الدولة العثمانية، ففكر الاتحاد والترقي فكر منافٍ للفكر الإسلامي، كان الاتحاد والترقي بحكم سيطرة خلايا الحركة الماسونية عليه، والتدعيم اليهودي العالمي له شيئاً مخالفاً تماماً له ألفه سير حركة الفكر الإسلامي والجامعة الإسلامية.

في عام ١٩٠٨م فرض الاتحاديون الحكم المشروطي على عبدالحميد، وفي عام ١٩٠٩م خلعوه، ثم أرادت قيادات حزب الاتحاد والترقي تصفية قائد جيش الحركة الذي أتى بالحزب إلى السلطة، وهو محمود شوكت باشا، فدبرّت له وهو قائد من قوادها العسكريين، مؤامرة أودت بحياته.

ولأن الشيخ عاطف أفندي كان من أبرز علماء الدولة العثمانية؛ ولأن القيادة الحزبية للاتحاد والترقي كانت مصابة بداء «حساسية الدين» (وهذا التعبير لنجيب فاضل) فقد تم القبض على عاطف أفندي بحجة الاشتباه

بعلاقته بالمؤامرة .

نفى الاتحاديون عاطف أفندي إلى قلعة سينوب ثم جوروم، ثم بوغازليان ثم سنقولو، وعند الإفراج عنه عاد إلى إستانبول .

عين - كما سبق القول - مديراً للمدرسة الابتدائية الداخلية، فأخذ اسمه يبرز ويرتفع في وقت قصير، وأصبحت المدرسة بفضل فعالية مديرها نموذجاً يحتذى وطالت شهرة الشيخ عاطف وأخذ اسماً عالمياً طيباً كعالم ورع .

* أخلاق الشيخ :

وبجانب هذه الشهرة الطائفة، كان خلق الشيخ عاطف أفندي مرآة لإسلامه . . كان دؤوباً على مداومة تحصيل العلم، وكان متواضعاً، ذات مرة دعاه السلطان وحيد الدين سلطان الدولة العثمانية وخليفة المسلمين إلى طعام الإفطار في رمضان في قصر الحكم، قَبِلَ الشيخ دعوة أمير المؤمنين، وأعجب السلطان وحيد الدين بعلم الشيخ عاطف أفندي، مما لاحظته المجتمعون على مائدة الإفطار، وعندما أراد السلطان وحيد الدين أن يظهر تقديره لعاطف أفندي بتقديم هدية راجياً منه أن يتقبلها، قال الشيخ عاطف بأدب جم: «أستسمحكم ألا تعودوني على تلقي الإحسان» .

وكما كان السلطان يحب عاطف أفندي، فكذلك كان عامة الناس، ذات يوم أراد فراش متقاعد أن يعبر عن حبه تجاه عاطف أفندي؛ فقدم له هدية عبارة عن صينية بقلادة عملها خصيصاً هذا الفراش العجوز المتقاعد، لم يستطع الشيخ قبول هدية الرجل، ولكن كان على الشيخ أن يطيب خاطره، فقال له: سامحني، لأنني لم أستطع قبول هديتك . . سامحني؛ فإن مهنتي والقضية التي أعمل لها حساسة للدرجة التي لا أستطيع معها تحمل مثقال وطأة المنفعة المادية .

* رسالة «تقليد الفرنجة والقبعة»:

كتب الشيخ عاطف أفندي رسالته المشهورة «تقليد الفرنجة والقبعة»، أوضح فيها أن على الأمة الإسلامية ألا تقلد الغرب تقليدًا أعمى يأخذ بالسطحيات، وأن على المسلمين الأخذ بما ينفعهم فقط في المدنية الغربية، وأن على المسلمين أن يطوّروا أنفسهم دون التنازل عن أخلاقهم ومقدساتهم، ولا تفريط في الأخلاق الإسلامية، لا تنازل عن الدين في سبيل التطور المادي، لا تقليد للغرب.

والرسالة تنتقد المسلمين الذين يجارون الغرب على عمى ودون تبصر، وتأخذ عدم لبس القبعة مثلاً لقوله «لا» الاعتراضية على التغريب؛ ولأن الشيخ عاطف أفندي كان معروفًا بعلمه وتقواه، فقد استمع له الناس.

بعد ذلك بعام وأربعة أشهر، وبالضبط في ٢٥/١/١٩٢٥م، وافق مجلس الأمة التركي على قانون ارتداء القبعة تمثلاً بالغرب.

* قانون ارتداء القبعة في مصدرين:

اعتمد هنا في الفقرة على نقلين من مصدرين كمالين:

أولهما: «تاريخ الانقلاب التركي» وهو كتاب مقرر على طلاب المدارس العسكرية بالجيش التركي، وأصدرته مطبعة هيئة أركان حرب الجيش التركي بأنقرة عام ١٩٧٣م.

□ يقول الكتاب: «.. بتطور الزمن أصبح الطربوش زياً إسلامياً، بل صار رمزاً للرابطة العثمانية.. وكان لا بد أن يحصل المجتمع التركي على شكل حضاري.. كان تحول المواطنين الذين يعيشون في دولة علمانية ويرتدون زياً دينياً يتضاد مع واقع الحركة الحضارية للمجتمع التركي الحديث.. كان الطربوش رمز الدولة الإسلامية، فكان من الضروري الإطاحة

بالطربوش من على رأس الشعب التركي، وبهذا يتحقق أمران، الأول: علمنة الزي؛ والثاني: ارتداء المواطن التركي زيًا يشبه فيه شعوب العالم المتحضر، كما كان من الضروري على رجال الدين الذين يرتدون زيهم أن يرتدوه في أماكن العبادة فقط. كانت المشكلة تتمثل في أن يخضع الشعب زيّه للحياة العلمانية، وفي إبعاد رموز الحياة الدينية عن الحياة اليومية، وكانت هذه هي فكرة أتاتورك... (ص ١٦٣).

المصدر الثاني: كتاب «الذئب الأغبر مصطفى كمال» لمؤلفه (ه.س. أرسترونج) والمؤلف كان ضابطًا إنجليزيًا عمل ملحقًا حربيًا لبريطانيا في تركيا، وكان على اتصال مباشر بالأتراك عامة وبمصطفى كمال أتاتورك خاصة. القاهرة، دار الهلال ١٩٥٢م.

□ يقول أرسترونج: «صار عليه الآن (أي: على مصطفى كمال أتاتورك) أن يغير عقول الشعب بأسره، بأفكارهم القديمة، وعاداتهم وأزيائهم، وأساليب حياتهم، وأدق الدقائق التي تربطهم بنشأتهم الشرقية وماضيهم... كانت هذه المهمة أصعب بكثير من إعادة بناء الكيان السياسي للدولة، أو على حد تعبيره (أي: تعبير أتاتورك): «لقد قهرت العدو، وقهرت الدولة، فهل أستطيع أن أقهر الشعب؟».

ورأى (أي: أتاتورك) أن يتخلص من الطربوش، رمز الدولة العثمانية، وكان يعلم أنه سيلقى مقاومة عنيفة من الشعب، الذي سيشعر أنه قد طعن في شعاره القومي، فأثر أن يصل إلى هدفه بالتدريج... بدأ بأن فرض على حرسه الخاص ارتداء القبعة، فلما لم يعترض أحد، عمم القبعة في الجيش كله، وبث في صفوفه من يشرح للجنود فضليتها على الطربوش في حماية الرأس من الشمس والمطر... فلما لم يحتج الجيش ظهر هو (أي: أتاتورك) مرتدياً قبعة من القش! وبدا يبشر بنظريته قائلاً: «إذا أردنا أن نكون شعباً

متمدناً فينبغي أن نرتدي ثياب المتمدنين الدولية، أما الطربوش فهو رمز الجهل! ولكن الجماهير أبت أن تجاربه أو تقلده في «بدعته» وحتى الأفراد القليلين الذين تبعوه، عادوا فنكصوا أمام ازدراء الناس وتهكمهم! وعندئذ أحسّ الغازي أنه فشل في إقناع الأتراك برأيه، فلم يجد بداً من أن يفرضه عليهم بالقوة! وهكذا أصدرت «الجمعية الوطنية» (أي: مجلس الأمة التركي) بناء على طلبه (أي: أتاتورك) قانوناً يحرم ارتداء الطربوش ويعاقب من يرتديه، وبعد يومين من إصداره انتشر رجال البوليس في الشوارع الرئيسية في جميع المدن والقرى وأخذوا يصادرون الطرايش من فوق رؤوس المارة، وكل من قاوم أو اشتكى كان مصيره الحبس!.. وسرت في البلاد موجة من الغضب والسخط، ورجمت الجماهير في كثير من البلاد ممثلي الحكومة بالأحجار، مدفوعة بتحريض من رجال الدين المتورين الذين ألقوا في روع الناس أن هذه البدعة مخالفة لتعاليم الإسلام، وأن القرآن والسنة يحرمان ارتداء القبعة!.. وفي الجمعية الوطنية (أي: مجلس الأمة التركي) نفسها وقف الجنرال نور الدين باشا يحتج على هذه البدعة الجديدة!..

عندئذ انقلب (أتاتورك) إلى مستبد غاشم، لسان حاله «أن الثورات يجب أن تبنى على الدم، وإلا انهارت ولم تدم!» وبدأ فأقصى نور الدين باشا من الجمعية وأرسل «محاكم الاستقلال» إلى الأقاليم لتحكم على مئات من «المتمردين» بالشنق والرمي بالرصاص والسجن!.. ولكي يوطد مصطفى كمال هذا التقليد في أذهان العالم الخارجي أرسل مندوباً إلى المؤتمر الإسلامي المنعقد في مكة، مرتدياً قبعة! وكان المؤتمر يضم ممثلين لجميع دول العالم الإسلامية. ولم يجد المؤتمرين بداً من احترام المندوب وقبعته تقديراً لمصطفى كمال. «الذئب الأغبر» (ص ٢١٢ - ٢١٤) القاهرة يوليو ١٩٥٢ م.

* المقبوض عليهم في سبيل القبعة :

تم القبض على كثير من علماء الدين الأتراك منهم: سليمان خوجة العشاقى، وصالح أفندي الغيتانى مدير مدرسة الأئمة والخطباء فى عشاق، وأحمد أفندي البوزقيرلى، ودورمش خوجة السلطنىوى، والشيخ المتصوف شرف الدين الداغستانى، وغيرهم، أتى بهم رجال الحكومة من جميع أنحاء تركيا من «ريزه» (اسم مدينة فى بلاد اللاز بشمال تركيا) ومن «أرضروم»، و«كيراسون»، و«سينواس» وغيرها من مدن الأناضول إلى أنقرة العاصمة التركية، كما قبضت السلطات على الشيخ عاطف أفندي أيضاً.

وفى ٢٦ يناير ١٩٢٦م، قدم عاطف أفندي لأول مرة أمام «محكمة الاستقلال» فهو الذى كتب ضد القبعة قبل أن يصدر قانون تغيير الأزياء ولبس القبعة بسنة وأربعة أشهر.

* عاطف أفندي وأحداث القبعة :

كان لا بد من القول أنه فى يوم الخميس ٢١ يناير عام ١٩٢٦م حدثت ثورة فى مدينة كيراسون التركية وسميت باسم «ثورة القبعة» لأنها كانت ضد قانون القبعة الذى أصدره مجلس الأمة التركى، والمفهوم أن لكتاب عاطف أفندي عن تقليد الفرنجة والقبعة أثراً فى هذا الحادث.

وفى كيراسون أيضاً وقعت حادثة سميت «حادثة كيراسون» قام فيها شخص غريب مختل العقل، وقف فى وسط الشارع وأعلن بصوت عال أنه لن يمتثل لقانون لبس القبعة ولن يلبسها. قبضت الشرطة عليه وسألوه:

- لماذا لم تلبس القبعة؟ فأجاب بقوله:

- لأنى أرسلت إلى عاطف أفندي خطاباً بشأن ارتداء القبعة فأجابنى بأن

الشريعة لا تسمح بارتدائها، وأن في ارتدائها الكفر، لذلك قررت أن لا أرتديها.

□ هنا يقول الكاتب التركي نجيب فاضل في كتابه «المظلومون من الإسلاميين في العهد الأخير» - عند تعرضه لهذه الحادثة - أن لم يسأل أحد من رجال الشرطة هذا الرجل؛ إذا كان أخذ بكلام عاطف أفندي، فلماذا يصيح بهذا الشكل المقتعل وسط الشارع، ويقول: إنه لن يلبس القبعة؟! لم يسأله أحد هل أحسن بحاجة إلى هذا الصياح المبالغ فيه؟! وهل قال له الشيخ أن يصيح هكذا؟! ولما سألت الشرطة الرجل عن خطاب عاطف أفندي الخاص بهذا، قال: إنه فقده!

تقوم السلطات بالقبض على عاطف أفندي وترسله إلى محكمة كيراسون أولاً ثم إلى محكمة الاستقلال بأنقرة.

□ يقول نجيب فاضل في كتابه المذكور عن حادثة كيراسون هذه: «إن هذا الحادث مدبر... أسوأ وأحقر أنواع التدبير».

سألوا عاطف أفندي عن صحة إرساله خطاب إلى هذا الرجل، فأوضح الشيخ إلى محكمة كيراسون أن هذا كذب، فلم يكتب لهذا الرجل شيئاً بل لم يتلق منه أي خطاب.

مثل أمام محكمة الاستقلال في مسألة قضية القبعة - ضمن الكثير من الماثلين - النائب البرلماني السابق لمدينة مرعش - واسمه حبيب - الذي ذكر للمحكمة؛ أن أهل مرعش متمسكون بدينهم، والقبعة تجرح شعورهم الديني، وأنه نفسه لم يجد وقت صدور قانون القبعة، قبعة في أي مكان في مرعش ليرتديها في فورة مدينة مرعش ضد قانون القبعة، حكمت المحكمة على سبعة أشخاص بالإعدام، وبعديد من الأحكام الأخرى على بعض المواطنين، بلغت ما بين السجن خمسة عشر عاماً إلى ثلاث سنوات سجنًا.

* الإعدام للشيخ بدلاً من ٣ سنوات سجن :

في ٢٦ يناير ١٩٢٦م: عاطف أفندي أمام محكمة الاستقلال المدعي العام يطلب للشيخ السجن ثلاث سنوات على الأقل.
القاضي يطلب من الشيخ إعداد دفاعه ليقراه على المحكمة في الغد.
الشيخ يبدأ في كتابة دفاعه، يغفو أثناء الكتابة يستيقظ بعد هذه الإغفاءة، وعلى وجهه حضور، وفي أساريره سكون، يمزق الورقة التي كان يكتب فيها دفاعه ولم يكن أتمه بعد، ويقول للقاضي في اليوم التالي رداً على سؤال من المحكمة: «لا حاجة لي يا سيدي إلى الدفاع فمن الواضح تماماً أنني لم أرتكب ذنباً يوجب الدفاع»، وكان القرار بعد ساعة واحدة، كان القرار: الإعدام.

* رؤيا صادقة :

أما لماذا مزق الشيخ عاطف أفندي ورقة دفاعه، ولماذا كان موقفاً من أن الحكم عليه سيكون الإعدام، وليس ثلاث سنوات كما كان يطلب المدعي العام، فيقصها نجيب فاضل في كتابه «المظلومون من الإسلاميين في العهد الأخير»:

«حدثني بهذا الشيخ طاهر المولوي بنفسه (الذي كان يحاكم أمام نفس المحكمة التي أصدرت حكم الإعدام على عاطف أفندي، كان ذلك في عام ١٩٣٢م عندما التقيت بطاهر المولوي في مكتبة رائف قراديز في سوق الكتب في حي بايزيد بإستانبول).

جلس عاطف أفندي (في السجن) بعد صلاة العشاء وأخذ يكتب دفاعه عن نفسه (والذي طلبه منه القاضي).. أغفى الشيخ عاطف أفندي قليلاً بعد أيام طويلة لم يذق فيها طعم النوم.. أغفى وفي يده ورقة دفاعه الذي لم

يكمله.. نوم عاطف أفندي لم يستمر طويلاً، وفجأة فتح عاطف أفندي عينيه وارتسمت على وجهه ابتسامة عميقة ورقيقة عجيبة.

□ الشيخ طاهر المولوي يسأل: ماذا حدث يا فضيلة الشيخ؟ لماذا استيقظت سريعاً؟

- قال الشيخ: حصل المراد من النوم؟

- يعني؟!

- يعني رأيت الرؤيا التي كنت أنتظرها.

- ماذا رأيت؟

- اعتدل الشيخ عاطف أفندي، لآك ورقة دفاعه بيده، وقال:

- رأيت في رؤيائي، فخر الكائنات (سيدنا محمد ﷺ) يقول لي: يا

عاطف أتشغل نفسك بالدفاع عن نفسك ولا تريد الالتحاق بنا؟!

- قال طاهر المولوي للشيخ: وماذا تفسر هذا؟

- قال عاطف أفندي: سيعدمونني، وسألتحق بحبيب الله ﷺ.

- طاهر المولوي: لا شك قط في صدق هذه الرؤيا.. إلا أن المدعي

العمومي لم يطلب لك إلا السجن ثلاث سنوات!

- سترى أنهم سيعدمونني، ولا أفهم إلا أن الأمر يأتي من أكبر

الأبواب.

- ليس لدي ما أقوله.

- صحيح! ولم يعد للكلام جدوى! وها هي ذي الورقة التي كتبت فيها

دفاعي ولم أكملها بعد.. أمزقها!.

وفي اليوم التالي حكمت المحكمة بالإعدام على عاطف أفندي على أن

ينفذ هذا الحكم فوراً فنفذ في فجر اليوم التالي.

* أحمد نعيم بابان زاده داعية الفكرة الإسلامية والمدافع عنها أمام الفكرة القومية، قال عنه شاعر الإسلام محمد عاكف: «إن أحمد نعيم بك هو أكثر الناس الذين أحببتهم بعد الصحابة»:

منذ عهد التنظيمات العثمانية، أي: في بدايات النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أصيب العالم الإسلامي بمقدمات غزو الفكرة الأوربية المتمثلة في القومية، تطور هذا الفكر بواسطة منظمات مدسوسة على الدولة العثمانية، وجودها في بلاد المسلمين وجذورها في أوروبا، نمت هذه الفكرة وازداد أتباعها وعلى رأسهم هؤلاء الذين تعلموا في الغرب فأخذهم بريقه. وقد تمثل انتصار الفكرة الغربية في الدولة العثمانية، بقيام الدولة القومية التركية بقيادة مصطفى كمال أتاتورك؛ الذي اتخذ مثاله الأعلى في الغرب رافضاً إسلامية البلاد الشرقية.

لا بد من القول هنا أنه قد سبق هذه المرحلة، مرحلة إعلان الأيديولوجية الطورانية، سياسة للدولة العثمانية بعد أن استولت عليها - عنوة - جمعية الاتحاد والترقي، إلا أن الوعي الإسلامي العام بجانب نفور القوميات الأخرى الموجودة في الدولة العثمانية مثل القوميتين العربية والكردية من مبدأ الاتحاديين، وهو الجامعة الطورانية (وحدة أترك العالم) بجانب عوامل أخرى أدت إلى فشل الجامعة الطورانية، بل وقد تسببت هذه الفكرة في تدمير الدولة العثمانية.

وفي أثناء اقتحام الغرب الفكري لفكرة المسلمين، ولد أحمد نعيم بابان زاده في بغداد، وأحمد نعيم ينتمي إلى أسرة بابان زاده البغدادية، وأحمد نعيم هذا هو الذي عُرف فيما بعد كواحد من رجال العلم المسلمين النابهين ذوي السمعة الإسلامية الطيبة، عُرف بعمق الفكر وقوة الحجج وسلامة

المنطق، يجمع بين الثقافتين الشرقية والغربية، لكن شهرته طبقت الآفاق عندما دافع عن الفكرة الإسلامية في مواجهة القوميين (الجدد والقدامى) في الدولة العثمانية، ثم في تركيا بعد انهيار الدولة، وهو الذي أخطر القوميين حتى لا يستغلوا الإسلام في الدعاية للقومية وكسب مزيد من الأنصار.

أمضى أحمد نعيم فترة دراسته الابتدائية في بغداد، ثم انتقل إلى مدارس إستانبول حيث استمر في إتمام بقية مراحل الدراسة التي تُوِّجت بأستاذيته في الجامعة.

منذ شبابه كان يجيد اللغة العربية، وكانت معرفة العربية ميزة تفتح أمام المثقفين العثمانيين الطريق إلى الوظائف المحترمة، فقد التحق أحمد نعيم في البدء بوزارة الخارجية العثمانية بوظيفة مترجم، وقد كانت وظيفة مرموقة، ثم عمل أستاذًا للغة العربية في نفس المدرسة التي تخرج فيها وهي غالاطه سراي.

وبين عامي ١٩١١م - ١٩١٣م، عمل أحمد نعيم مديرًا للتدريس العالي في وزارة المعارف، وأثناء تأديته لهذه الوظيفة عمل عضوًا في غرفة التأليف والترجمة التابعة لوزارة المعارف أيضًا.

كما بدأ أحمد نعيم بك في عام ١٩١١م في إلقاء دروسه في كلية الآداب (شعبة الإلهيات) في دار الفنون (الجامعة) بإستانبول، وأخذ يلقي في هذه الكلية دروس الفلسفة والمنطق والأخلاق، واستمر في ذلك حتى عام ١٩٢٣، كان في أثنائها أيضًا مديرًا للجامعة.

وأثناء ذلك كان يكتب في الصحف والمجلات داعيًا إلى الفكرة الإسلامية مدافعًا عنها، وكان هذا أثناء اشتداد المعارك بين أنصار الفكرة الإسلامية وأنصار الفكرة القومية، وكان طبيعيًا أن تنتقل هذه المعارك إلى الجامعة بين الأساتذة الإسلاميين وبين الأساتذة القوميين.

يجدر الملاحظة هنا أن أحمد نعيم بك وجد في العمل السياسي ما يلائم دعوته، فنجدته عام ١٩١٩م، وقد أصبح عضواً بمجلس الأعيان واستمر في عضويته هذه لمدة ثلاث سنوات، وعندما انتهى مجلس «المبعوثان العثماني» عاد أحمد نعيم بك عام ١٩٢٢م إلى الجامعة مرة أخرى، واستمر في وظيفة الأستاذية والكتابة أيضاً، إلى أن أطاح به القوميون الخالص بعد أن كسبوا المعركة السياسية وسيطروا على البلاد وأعلنوا مبادئ الأيديولوجية الكمالية، وقد اتخذ الكماليون عدة قرارات منها: عدم السماح للمطالبين بتحكيم الشريعة الإسلامية، بالكتابة ولا بالكلام، وكان فضل أحمد نعيم بك من الجامعة في أول يوليو ١٩٣٢م.

أحمد نعيم بك أجاد اللغة العربية إجادته للغة العثمانية وعرف الفارسية، كما أنه لكي يعرف تطور الفكر الغربي، درس اللغة الفرنسية حتى يجد الفرصة ليدرس العرب مصدر الفكرة القومية.

لذلك اتسمت كتابات أحمد نعيم بك بالجدية وحازت الاحترام، وقد كان يعقد المقارنة دائماً في كتاباته بين مفكري الشرق الإسلامي وبين مفكري الغرب مبيّناً في دراسات جادة مدى أهمية الفكر الإسلامي في الحفاظ على وحدة المسلمين، وخطورة استمرار الفكر الغربي في الشرق الأوسط في تفتيت وحدة المسلمين، وقد كانت خطورة الفكر الغربي متمثلة في الفكر القومي الذي أسماه المسلمون العثمانيون في ذلك الوقت «داء الفرنجية» أو «علة الغرب».

اشتهر من عائلة بابان زاده في ذلك الوقت اثنان: أحمد نعيم بك، وكان إسلامي النزعة إسلامي الاتجاه، وإسماعيل حقي بابان زاده، وهذا ارتقى إلى درجة وزير للمعارف، وكان فكراً مضاداً لأخيه أحمد نعيم، فقد كان إسماعيل حقي من دعاة الفكر القومي، كان كردياً يدعو للفكرة القومية

الكردية، وكان صاحب مكانة كبيرة بين رجال الاتحاد والترقي، أما أحمد نعيم بك، فقد وجد أن من الذل الدعوة إلى القومية، أبي: إلى عصبية قومية في الوقت الذي ننعم فيه بالإسلام.

تخرج على يد أحمد نعيم بك عدة آلاف من الطلاب طوال ثلاثين عامًا، كان قريباً من تلامذته، لم يكن يبخل عليهم بالوقت ولا بالجهد في سبيل إعدادهم فكرياً وعلمياً.

وعندما ظهرت الحركة الكمالية في تركيا، كان معنى ذلك أن تطورت فكرة الطورانية (فكرة تجمع أترك العالم في دولة واحدة) إلى فكرة الدولة القومية المحدودة التي أعلن مصطفى كمال أتاتورك حدودها بالدولة التي دافع الأتراك عنها، وحملوا السلاح دفاعاً عن حدودها، وأراقوا دماءهم في سبيلها وهي دولة تركيا الحالية.

هؤلاء الكماليون تمكنوا من الانتصار بفكرتهم القومية العلمانية، انتصروا وكان لا بد بالضرورة - من وجهة مصالحهم الأيديولوجية - من تصفية المفكرين الداعين للإسلام مفهوماً للدولة، وشملت التصفية فيما شملت الأستاذ أحمد نعيم بك، إذ أنه كان في كل محاضراته وكتاباته يفضل الفكرة الإسلامية، على الفكرة القومية الواردة.

تم إبعاد أحمد نعيم بك عن الجامعة، وعن كل وسائل الاتصال الجماهيري، فأصابه الحزن والكمد، إن ما كان يزعم أحمد نعيم بك هو انحسار القوة عن الفكر الإسلامي الذي وهب نفسه للدفاع عنه، حز في نفسه استيلاء المعارضين للفكرة الإسلامية على إدارة البلاد، إذ أن النتيجة كانت تقول: إن الإسلاميين قد خسروا المعركة.

فصلوا أحمد نعيم بك عن الجامعة في منتصف عام ١٩٣٣م، ومات في منتصف عام ١٩٣٤م، كان أحمد نعيم بك يكره حب الظهور، ولم يعط

أحدًا الفرصة لمدحه، فقد كان يكره هذا، قال عنه معاصروه: إنه لم يداخله الغرور ولا الرياء، كما كان سمحًا، قال عنه مدحت جمال إينانج ألب في كتابه المسمي «أحمد نعيم المدرّس» (المدرس في اللغة العثمانية بمعنى أستاذ الجامعة أي: بروفييسور) إنه: «كان لأحمد نعيم بك قلبًا محمديًا».

كان لوفاة أحمد نعيم بك أثر كبير في نفوس الذين تلقوا عنه «الفكرة الإسلامية» وفي نفوس الذين قرأوا له، بل بلغ الأمر في ذلك أنه عندما سمع شاعر الإسلام محمد عاكف بوفاة أحمد نعيم (داعية الفكرة الإسلامية والمدافع عنها أمام فكرة القومية) أن قال: «حسبت ساعتها أن بيتي قد خرب وأنني واقع تحت أنقاضه».

كان شاعر الإسلام محمد عاكف على حق عندما قال: «إن أحمد نعيم بك هو أكثر الناس الذين أحببتهم بعد الصحابة» ذلك لأن أحمد نعيم بك كان من أشد الناس تأثيرًا في المثقفين الذين تكتلوا أمام قوى الفكر القومي المتعصب الذي غرقت فيه البلاد العثمانية في أوائل القرن العشرين، رثاه الشاعر التركي علي رضا قوش أضالي بقوله:

آه لقد رحل عنا أحمد نعيم بك.

وهو منبع العلم والعرفان.

كما رثاه العالم المسلم المشهور محمد حمدي المالي بقوله:

ذهب نعيم إلى ربه؛

عبر السجود.

* أعماله:

أولاً: المقالات:

لأحمد نعيم بك مقالات كثيرة نشرها في مجلة «ثروت فنون» وهي مجلة ظهرت في أواخر عهد السلطان عبد الحميد، تهتم بالأدب والأدباء، بها

ترجمات من اللغات الغربية وخاصة الفرنسية، أما أحمد نعيم بك فقد كان له سلسلة مقالات في هذه المجلة تحت عنوان «بدائع العرب» قدم فيها للقارئ العثماني ترجمات مختارة من الأدب العربي إلى اللغة التركية، كما كتب المقالات حول هذه المترجمات والشروح.

كما كتب أحمد نعيم بك المقالات في جريدة طنين وفي مجلة كلية الآداب بجامعة إستانبول.

ثم كتب في مجلة «صراط مستقيم» التي كانت تصدر في إستانبول مجلة «الصراط المستقيم» التي أخذت في الظهور منذ عام ١٩٠٨م، وهي مجلة أقامها المسلمون العثمانيون يردون من خلالها غائلة الفكر القومي الذي كان قد استولى على عقول الشباب العثماني، خاصة صغار ضباط الجيش قبيل انهيار دولة آل عثمان، وكتب في مجلة «سبيل الرشاد» وهي امتداد طبيعي للصراط المستقيم.

وقد عرض أحمد نعيم بك على المجلة رسالة أرسلها لها، عرض أن يكتب فيها، وقال فيما قال: «سلام عليكم، إنني أطلع في أوقات فراغي بحب وشوق ولذة مجلتكم الغراء...» وبعد أن أبان أحمد نعيم بك في رسالته إلى المجلة أنه يقدر خدمات المجلة في وقت تمر فيه أمة محمد بالظلم والجهل، «وإنني أقدر مدى توفيق المجلة في تلقين حقائق الإسلام للأذهان الفاسدة، وتبعث من جديد الأحاسيس الدينية في القلوب الميتة، وأن المجلة لها سبق في نفخ شعور الإحياء الإسلامي من جديد في البلاد».

ثم أفصح أحمد نعيم بك عن تصوره لخدماته في مجال الإحياء الديني عن طريق المجلة، في قوله: «إن رأيي المتواضع أن أهم خطوة يمكن أن تخطوها في هذا المجال هو التفسير والحديث، وإنني أعتبر أن على الرغم من خدماتكم الجليلة في المجلة، إلا أننا لم نر فيها شيئاً خاصاً بالحديث

الشريف، فالكتاب والسنة هما أهم منبعين في ديننا، وأنه ينبغي عليكم أن تفتحوا قسماً لكل منها بين أعمدة الصراط المستقيم، ومن هذا المنطلق أقول لكم إنه برغم عدم حيازتي لقدرة عميقة في مجال التفسير ولا في مجال الحديث النبوي، ومع رغبتني في خدمة المسلمين، فعلى الأقل يمكنني تقديم خدماتي في هذين المجالين عن طريق الترجمة من العربية.

وأني لأثق أنني عندما أجد الفرصة لترجمة الكتاب المبارك المسمى بالتجريد الصريح وهو الذي رتبته الزبيدي عن البخاري باختصار، أثق أنني إذا ترجمت هذا الكتاب المبارك على حلقات وأرسلت ذلك إليكم فلن ترفضوه. وقد كان هذا العرض من داعية إسلامي عميق الفكر عظيم التواضع، مسارع للخدمة الإسلامية، كسب وأي كسب لمجلة الصراط المستقيم، التي كانت صاحبة نفوذ عظيم في قلوب المسلمين، بدأ أحمد نعيم بك في نشر «التجريد» في الصراط المستقيم، ثم أخذ بعد ذلك في شرح حديث نبوي في كل عدد من أعداد المجلة.

□ وقالت مجلة الصراط المستقيم في عرفانها بفضل أحمد نعيم بك: «إننا نشكر باسم جميع العالم الإسلامي، الأخ أحمد نعيم بك، فقد أخذ على عاتقه هذه الخدمة السامية المقدسة المفيدة».

ثانياً: المؤلفات:

- ١- تمرينات: وهو كتاب مدرسي في صرف اللغة العربية، عبارة عن تطبيقات على رسالة كتبها جميل الناظر بمدرسة غالاظه سراي.
- ٢- دروس الفلسفة.

٣- علم النفس: وهو ترجمة كتاب بسيكولوجي، لجورج فونس جريف

إلى التركية.

- ٤ - ما هو علم الفلسفة؟ وهو ترجمة عن بول جانيت إلى التركية .
 ٥ - ترجمة الأربعين حديثاً من العربية إلى التركية .
 ٦ - قضية القومية: وهو كتاب في دحض الفكرة القومية، حتى أن بعضهم نشره بعد ذلك بالحروف اللاتينية التركية تحت عنوان «الإسلام يمنع العرقية» .

٧ - أسس الأخلاق الإسلامية .

٨ - ترجمة «التجريد الصريح» مختصر البخاري، لم يكمل إذ لم يصدر منه إلا جزءان . الجزء الأول عبارة عن تأليفه، ويختص بدراسة علم الحديث والأصول، وهذا الجزء من الكتاب الوحيد الذي يمكن اعتباره ووصفه بأنه أكثر الكتب المنشورة حتى الآن في علم الحديث تكاملاً وعلمية، كما وصفه ناشر كتاب بعنوان «الإسلام بخطوطه العريضة» لأحمد نعيم بابان زاده، نشر دار جيغيز بإستانبول عام ١٩٧٥م، وقد طبعت إدارة الشؤون الدينية بأنقرة هذا الكتاب عام ١٩٢٨م .

* رؤية في الإسلام والعصبية القومية :

نترجم هنا عن أحمد نعيم بك بعض كتاباته في موضوعين، هما «بعض الأمور التي يسرت انتشار الإسلام»، و«قضية القومية في الإسلام» .

* بعض الأمور التي يسرت انتشار الإسلام :

□ ستحدث هنا عن بعض الوسائل التي يسرت انتشار الإسلام، وهي :

١ - الاتحاد والإيمان الخالص :

كان العرب - وهم أول من دخلوا في دين الله أفواجاً ونشروه - كانوا يعيشون على هيئة قبائل مختلفة، كانوا يتلاعبون بحياة بعضهم بعضاً وهم تحت تأثير فكرة الثأر وفكرة الحصول على الغنائم، فجمعهم فيض الإسلام

حول كلمة واحدة، كما أن هذا الفيض الإسلامي قد حوّل هذه القبائل المتفرقة إلى قوة مجتمعة. ثم دفعتهم الغيرة الدينية والقوى المعنوية إلى التضحية والفداء. فلم يعد ينسحب أو يفكر في التقهقر عن مكانه بين المجاهدين أي فرد منهم، حتى في أخرج مواقف القتال وأدقها. لقد كان يعلم حتى أجهل الجاهلين منهم أن كل ميت في سبيل الدين شهيد، وكل من يحيا فهو غاز، وأن أي إنسان يلقي بنفسه في المخاطر لن يموت إذا لم يكن ذلك مكتوباً، وأن الأجل إذا حان وقته فلا يمكن أن يوقفه شيء. ولأن هذه الفكرة العلوية لم يكن لها وجود عند هؤلاء الذين يحاربون المسلمين، فقد كان شرف النصر في كل معركة من نصيب المجاهدين المسلمين.

٢- تحمّل الشدائد، والبساطة:

كان العرب قوم بدو. نشأوا وكانت لهم القدرة على تحمّل الصعاب نتيجة التربية التي تمنحها الصحراء، قليلاً يأكلون وقليلاً يشربون وقليلاً يلبسون، ورغم هذا فقد كانوا يسيرون كثيراً. كانت لهم المقدرة الفائقة على السهر وتحمّل التعب والمشاق، ولهذا السبب كانت جيوشهم بسيطة، فيها خفة الحركة وقلة الحمل والأثقال، وكانوا يستطيعون ييسر وسهولة تغيير المكان.

٣- العسكرية والفروسية والإقدام:

كان العرب يجيدون ركوب الخيل بمهارة فائقة. كما كانوا يجيدون استخدام السلاح استخداماً يفضلون فيه العجم والروم. كما أنهم بالفطرة قوم شجعان يفخرون بالشجاعة ويستقبلون الموت - إذا لزم الأمر - بشجاعة وإقدام، ويعتبرون الفرار من العدو عيباً، وأي عيب.

٤- العبقرية النادرة:

ظهر عباقرة عديدون، خاصة في الفترات الأولى من الإسلام، حيث كان وجودهم مصاحباً للجيش الإسلامية، وعن طريقهم أحرز الإسلام

تقدمه .

ظهر أصحاب العزم والنية الصادقة والصلاح والتقوى، مثل سيدنا أبي بكر وسيدنا عمر رضي الله عنهما، وظهر أيضاً أرباب الشجاعة والبطولة مثل سيدنا علي، وسيدنا حمزة رضي الله عنهما، وظهر القادة مثل خالد بن الوليد، وسعد بن أبي وقاص، وأبو عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهما . . . وظهر السياسيون أمثال عمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة، وزياد بن أبيه رضي الله عنهما . أسهم كل هؤلاء من العظماء في إعداد هذه الفترة من فترات التاريخ الإسلامي. وبعدهم ظهرت شخصيات إسلامية تعقبت خطأ هؤلاء وساروا على منوالهم.

٥ - السياسة في الفتوح:

دخل المجاهدون المسلمون - عندما كانوا يعملون على نشر الإسلام - في الأراضي التي يشكّل العرب فيها الأغلبية الكبيرة من شعوبها، مثل مناطق الشام والعراق.

وبعد أن ضمن الفاتحون ولاء هذه الشعوب، استمروا في التقدم واهتموا أيما اهتمام بوجود رابط دائم بينهم وبين مركز الخلافة.

٦ - انتشار العدالة:

في الوقت الذي كانت الشعوب الخاضعة لكل من إيران وروما تئن تحت وطأة ظلم وضغط هاتين الحكومتين، كان العرب ينشرون العدل في الأراضي التي دخلوها. كانوا يعطون الرعايا الحرية، وكانوا يساوون في الحقوق بين الأمير وبين البدوي الفقير. كانوا يتفقدون بدقة متناهية أوامر سيدنا أبي بكر الصديق التي تحث على عدم الغدر، وعلى البعد عن خداع أهل البلاد المفتوحة، وعلى عدم ربط أذرع الأسير، وعلى عدم تعذيب أحد، وعلى عدم قتل الأطفال والنساء والشيوخ، وعلى عدم قطع النخيل والأشجار المثمرة،

وعلى عدم ذبح الحيوانات كالأغنام والماشية والجمال عبثاً، وعلى عدم التعرض للرهبان الزاهدين في الدنيا الذين انسحبوا إلى أديرتهم.

وعندما وجد الإيرانيون والرومان كل هذا، أخذوا يفتحون أبواب مدنهم بلا حرب أحياناً، وبصدام خفيف أحياناً أخرى، لمجاهدي الإسلام، وينضمون بذلك إلى موكب العدالة الذين يدخلونه حديثاً بعد أن ذاقوا مساوئ الحكومات السابقة.

بهذا الذي عددتنا وبغيره، ومن قبل بفضل العون الإلهي الذي غذى هذه الأسباب؛ إذا بنور الإسلام - ولما لم يمض بعد قرن واحد منذ ظهوره - قد امتد إلى داخل فرنسا ماراً بحدود الهند والصين في الشرق والأندلس من الغرب بعد أن أزاع بصر حكومتي إيران وروما.
أحمد نعيم: «كنل جزكيلر يله إسلام».

* قضية القومية في الإسلام:

بدأت قضية القومية، أو بمعنى آخر العصبية القومية والجنسية بين المسلمين أن تكون إحدى المسائل الحيوية في البلاد العثمانية ابتداء من عهد المشروطة.

وهذه القضية بدعة أجنبية مهلكة؛ بالدرجة التي أرى فيها - أنا العبد العاجز - أنه يمكن أن نطلق عليها اسم: داء السل في جسم الأمة الإسلامية، كما أنها بدعة مضرّة استعرتناها من أوروبا بدافع من الجهل، والواقع الفعلي أن القومية تعتبر من أعظم مصائبنا التي تشد الانتباه، وأكثر ما يشد الانتباه في ذلك أننا لا نأخذ عن أوروبا إلا ما عندها، وأننا لا نطبق هنا الأمور الطيبة في أوروبا إلا إذا أفسدت.

القضية القومية مذمومة ومرفوضة شرعاً، وهي بالتعبير الشرعي دعوى

الجاهلية، وهي أفضع ضربة لقوام الأمة الإسلامية ولبقائها ولرفاه المسلمين ولسعادتهم.

إن المعنى الذي أخذه هؤلاء الذين يمسكون في أيديهم براية العصبية القومية، معنى منافع للوطنية ولحب الوطن، والمصيبة العظمى التي حلت بإخواننا الألبانيين الذين جروا وهرعوا خلف السعادة القومية والسراب المغفل، ليعتبر درس عبرة فظيع علينا استيعابه.

إن نفس الأسباب تولد نفس النتائج، وبناء على هذه القاعدة الطبيعية والمعقولة فإننا إذا داومنا السير في هذا السبيل، فإن هذه المصيبة ستحل بنا إن آجلاً أو عاجلاً، وبهذا الاطراد ستصبح هذه الديار، وهي آخر ملجأ للأمة الإسلامية (يقصد المؤلف بذلك: الدولة العثمانية) يمكن أن تنقلب - معاذ الله تعالى - إلى ديار للكفر مثل ألبانيا.

إننا نرى زعماء الفكرة القومية ينقسمون إلى مجموعتين:

الأولى: القوميون الخالص.

الثانية: القوميون الإسلاميين.

ونحن نرى (أي: المؤلف أحمد نعيم بك) أن المجموعة الأولى تريد أن تلقح الأذهان وبوضوح، بفكرة الإلحاد، أما الفكرة الثانية (أي: القوميون الإسلاميون) فأصحابها لا يريدون أن يضحوا أبداً بأي من الفكرتين: الإسلامية والقومية.

هؤلاء (القوميون الإسلاميون) يتحدثون عن ضعف العنصر التركي وأنه يحتاج إلى العون والمساعدة، لكنهم لا يريدون أن يجرحوا الشعور بالجامعة الإسلامية، إنهم يعتبرون أن هذه الجامعة لازمة لأمرين: أولهما عدم انفصال العناصر الأخرى الإسلامية عن الدولة، وأيضاً يسر تربية وارتقاء الأتراك. لكنهم يخطئون في نقطة، فهم يقولون: «إن الجامعة التركية تقوي الجامعة

الإسلامية، وإن دعوى العصبية ليست مغايرة للدين الإسلامي، وإن الفكرتين لا تزاحم كلاهما الأخرى بالعكس؛ فإن كلاً منهما تكمل الأخرى وكلاً منهما تسهل حصول الأخرى، وإنما نستطيع عن طريق الحمية الوطنية القومية أن نقرب إلى الإسلام العديد من الشباب المحروم - بكل أسف - من الإيمان ومن الإسلام». يقول القوميون الإسلاميون هذا ويقيّمون بجانب الإيمان الديني «إيماناً قومياً».

ولقد التقيت ببعض أشخاص من هذه المجموعة، لا أشك أدنى شك في تمسكهم بالإيمان والإسلام، وهؤلاء يعتقدون جداً بأن الشعور الإسلامي لا يصاب بأي ضرر كان إذا ما حدث التفاخر بالقومية، بل بالعكس، - والقول لهم - فإن الإنسان الذي يفعل هذا يصل إلى درجة من الرقيّ عظيمة إذا افتخر بشعور الاعتزاز المصاحب للكيان، حتى ولو كان هذا الشعور قائماً تجاه الأقوام الأخرى ولو كانت مسلمة.

□ تقول هذه الشخصيات التي أتحدّث عنها: «وما حيلتنا إذا لم نقل بهذا وأبطلنا الحديث عنه؟! فإن العنصر التركي سيتعرّض للزوال. الألبانيون والعرب قاموا بالدعوة إلى هذه المسألة (القومية) قبل أن نفعل (نحن الأتراك) هذا الأمر، إننا الآن في موقف الدفاع عن النفس، فإذا ترتّب على دفاعنا هذا ضرر وقع على المسلمين فإن الذنب في هذه الحالة ليس ذنبنا نحن. إن الذنب إنما يتحمّله أول من بدأ هذه المسألة وقال بها. والبادئ أظلم».

وإذا سألتنا هؤلاء الذين يدعون إلى القومية العربية: «لماذا تدعون إلى القومية؟ فإنهم يبحثون عن ألف وسيلة ووسيلة ليقولوا إنهم على حق وإنهم في موقف الدفاع ويكررون - مثلهم في مثل هذا إخواننا الأتراك - القول بأن البادئ أظلم».

□ لسنا هنا في مجال البحث عن: مَنْ ظَلَمَ مَنْ؟! لأننا نرى في كل من

الطرفين أمراً منكراً يخالف الشريعة ولا يتفق مع روح الإسلام. وبموجب الحديث الشريف: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، فإننا نرى أنفسنا مكلفين بمساعدة الجميع، بمعنى أننا مكلفون بالدعوة إلى طريق الحق والصواب.

بناء على ذلك، نقول لإخواننا (الأتراك) القوميين الإسلاميين إن التركي يحتاج العون، وهو مفتقر لهمة إرشاداتكم، وهذا لا ينكره أحد، وليس من الحق أن ندع التركي بعد ذلك عرضة لمتاعب تؤدي إلى ضرره، ولا أن ندعه عرضة لحالة لا يستطيع معها التفكير في سعادة دنياه وآخرته. والرقي بأحواله الاجتماعية وتدعيم قوته الاستحصالية، وتقوية معنوياته، وتنمية ملكاته الفاضلة وإزالة ملكاته الرديئة؛ لأمر جدير حقاً بالتقدير، وهذا أمر مقبول عند الله وعند الناس.. ولكن عليكم ألا تجتازوا حدّ الجواز في أي وقت من الأوقات وتفاخروا بدعوى الجاهلية وبالأنساب وبالأباء الأقدمين.. وعليكم دائماً ألا تغفلوا (عندما تخاطبون التركي) عن مخاطبته بكلمة: «يا مسلم!» بدلاً من كلمة: «يا تركي!». حدثوه دائماً عن الإسلام ولا تحدثوه عن القومية التركية. وعندما تريدون أن تضربوا على أوتار همته الحساسة لا تضربوا هذه الأوتار باسم العنصر التركي وإنما باسم الإسلام. لا تفصلوا تاريخ الترك عن تاريخ الإسلام.

راجعوا أنفسكم قليلاً وفكروا بإنصاف. إنكم تجرون خلف هذه الدعوى القومية وهي دعوى فارغة. احسبوا جيداً وراجعوا جيداً الخدمات التي قمتم بها للأتراك. ماذا أضفتم لأدبهم أو لقواعدهم اللسانية أو لقاموسهم أو لعلومهم وفنونهم أو لتجارتهم وزراعتهم!!؟

ماذا أكسبتم الأتراك غير دعوى أنانية جافة، وغير إفساد علاقتهم بإخوانهم الآخرين من الشعوب الأخرى التي كانت تستظل براية الدولة العثمانية. إن عموم الناس لا يفهمون جيداً ماذا تريدون قوله. إن عموم

الناس لا يعلمون أيضاً ماذا يفعلون. إنكم قلمتم لهم إن أجدادهم، هم قدماء الأتراك، فأمنوا بما قلمتم لهم، حتى الذين لم يبقَ منهم أي ارتباط بالعنصر التركي غير اللغة بعد أن اختلطت دماء الأقباط المختلفة على مدى ألف سنة، حتى أن كثيرين منهم يظنون أنفسهم أنهم أولاد وأحفاد هؤلاء المشركين القدماء، ولم يفكروا لحظة أن القومية التركية للكثير منهم شيء عارض تماماً، ذلك لأن ارتباطهم بالقومية التركية لم يأتِ إلا نتيجة للغة التركية التي تعلموها فيما بعد. وهؤلاء يقسمون - وهذا حدّ الغاية في الجنون - بكلٍ من: «أرض جنكيز المقدسة» و«قانون جنكيز المقدس».

إنه لأمر جدير بالاهتمام حقاً أن يعرف الكثير من الدعاة للقومية، أي جنس وعصبيّة ينتمي إليها البطن الثالث لهم، وما إذا كان هذا البطن تركياً أم من جنس آخر غير تركي.

إنكم أيها القوميون تعملون لإحياء الأساطير الخرافية التي مرّت عليها آلاف السنين، مع أن مثل هذا العمل سيميّ - ولا شك - في الإخوة المسلمين الآخرين إحساس الانفصال ويسبب لهم الانزعاج.

أيها الإخوة القوميون الإسلاميون! ها أنتم ترون أنه مهما عملتم بحسن نية فليس من الممكن أن تنالوا مقصودكم بالطرق التي نهى الله عنها.

إن الهدف ذو الغايتين لن يجدي شيئاً. وأتباعكم، هل سيستمون إلى القومية التركية أكثر من الإسلام؟ أم إلى الإسلام أكثر؟ إذا قلمتم فليتموا إلى الغايتين في درجة واحدة، فلن يكون هذا ممكناً. لذلك أستحلفكم بالله أن تصرّوا على أن يولي الأتراك وجوههم نحو الكعبة، وإلا يحولوها إلى طوران. لا توصوا أحداً بأن يولي وجهه شطر الاثنتين، ذلك لأن الجهتين تضادّ كل منهما الأخرى ولا يمكن رؤية كلاهما في وقت واحد. فإما أن يتجه الأتراك نحو الكعبة - كما هم كذلك منذ ألف عام - ويتركون طوران

خلفهم، أو ينظرون إلى طوران فينسون بعد ذلك الكعبة. أما الذين ينظرون تارة إلى هنا وأخرى إلى هناك فيدخلون في زمرة: ﴿مذنبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾ ومعروفةٌ حدود الخير الذي يمكن أن يأتي من المذنبين في الفكر.

في هذه الحالة دعوكم من هذا الخيال الأجوف الذي يجمع الضدين.. ذلك لأنه من المحال التواجد تحت لواء الإسلام، وتحت لواء الجاهلية في وقت واحد.

إن معرفة قانون جنكيز والتعرف على وطن إيلخان، وذكر دولة الجيش الذهبي (من الدول التركية القديمة) لا يهمننا في شيء، فلا فخر بالشرك الذي حدث في الماضي. إن الذي يلزمنا معرفته هو: الشرع المحمدي والوطن الإسلامي ومعرفة المجاهدين المسلمين، شرف العنصر لا قيمة له أمام شرف الإسلام، فماذا بعد الحق إلا الضلال.

هذه نصيحتنا للقوميين الإسلاميين. وهذا أيضاً عين ما نقوله لإخواننا العرب الذي بهر هوى العصبية أعينهم.

أحمد نعيم: «إسلامه دعواي قوميت»

دار الخلافة، توسيع طباعت مطبعة سي ١٣٣٢هـ^(١).

* شاعر الإسلام محمد عاكف ممثل الأدب الديني التركي في القرن

العشرين وعنوان الجامعة الإسلامية وجهاده وردده على شعراء المادية:

ولد محمد عاكف في إستانبول عام ١٨٧٣م من أب أرناؤوطي (ألباني) مهاجر في إستانبول، وأم بخارية مهاجرة ضمن أسرتها إلى تركيا أيضاً. وكان

(١) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص ٣٤٨ - ٣٦٨).

(١) خُدع عاكف في أتاتورك ثم استبان له أمره فيما بعد

والده محمد طاهر أفندي، عالماً دينياً يعمل أستاذاً في مدرسة جامع الفاتح بإستانبول.

درس عاكف دراسة منتظمة في إستانبول: الكتاب والابتدائية والثانوية ثم القسم العالي في المدرسة. وبجانب هذه الدراسة المنتظمة تلقى عاكف في المنزل دراسة خاصة في اللغة العربية التي يجيدها إجادته للتركية، ثم درس اللغتين الفرنسية والفارسية، ولعب والده دوراً كبيراً في إتقانه اللغة العربية.

* عاكف يجاهد بالفكرة وبالقلم وبالخطابة :

عندما سقطت مدينة إزمير التركية في أيدي قوات المهاجمين اليونانيين في ١٥ مايو ١٩١٩م كتب محمد عاكف في سبيل الرشاد (العدد ٤٣٧ عام ١٩١٩م)، قائلاً: إن الأتراك المسلمين الذين لم يعرفوا الضيم ولم يفقدوا استقلالهم منذ القرون الطوال لا يستطيع اليونانيون إجبارهم على حياة المذلة. وفي أواخر مايو من نفس العام، وبينما القوات اليونانية تتجه نحو أيواليق للاستيلاء عليها، فإذا بهذه القوات وقد أخذت تجابه حركة مقاومة شعبية مسلحة نجحت في صددهم. وكان هذا أول مظاهر حرب الاستقلال التركية التي انتهت بطرد قوات الحلفاء من تركيا، هذه الحركة حمست عاكفاً، فاتجه مسرعاً إلى مدينة (باليق أسير)؛ ليحث الشعب على مواصلة النضال، فألقى الخطب في الجوامع، وكتب في سبيل الرشاد، ثم طبع سراً ترجمة تركية قام بها صهره عمر رضا طوغرول لكتاب ألفه العالم الهندي حسين قضاوي؛ يهاجم به الإنكليز. وكان الإنكليز وقتها يحتلون إستانبول. وفي عام ١٩٢٠م استقال محمد عاكف من أمانة دار الحكمة الإسلامية لانشغاله بالمعركة. وعندما أعلن الحلفاء في ١٦ مارس ١٩٢٠م احتلالهم رسمياً لإستانبول، ترك عاكف إستانبول واتجه للأناضول ليلتحق بالحركة الشعبية الوطنية المقاومة للاحتلال الأوروبي. وصل عاكف في أنقرة، وفي ٢٣ مايو

من نفس العام ١٩٢٢م أصدر أتاتورك قراراً بإنشاء مجلس الأمة التركي الكبير، فاشترك عاكف في هذا المجال نائباً عن مدينة بوردوز. ولما قام أهل قونية بتمرد ضد حكومة مصطفى كمال، قامت حكومة أنقرة بإرسال شاعر الإسلام محمد عاكف ليهدي من روعهم ولينصحهم بالعدول عن الثورة^(١)، وفي هذا دليل على اعتراف تركيا بأهمية محمد عاكف. ومن قونية اتجه عاكف إلى قسطنطيني حيث أخذ يعظ الشعب ويشير حماسه ونخوته وذلك من جامع نصر الله، وكذلك ليصدر مجلة سبيل الرشاد بعد أن نقلها من إستانبول حتى لا تكون تحت تأثير الإنكليز.

وجد محمد عاكف اهتماماً شعبياً بالغاً بوعظه وإرشاده وخطبه في مدينة قسطنطيني، لذلك أخذ في زيارة البلاد الأخرى في الأناضول من صغيرة وكبيرة لبعث روح المقاومة في الشعب. وقد أصدر عاكف في خطبه هذه رسائل أخذ يوزعها في قرى الأناضول ومراكزهم. ثم عاد في يناير ١٩٢١م إلى أنقرة.

* عاكف: مؤمن لا يهتز:

ثم جاء عام ١٩٢١م بهزائم كثيرة للحركة الوطنية الاستقلالية، بانتصار الجيوش اليونانية على المواقع التركية، وسقوط مدينة أفيون ثم مدينة كوتاهية في شهر يوليو، ثم مدينة أسكيشهر في أول شهر أغسطس وأخذت جيوش اليونان تتقدم صوب أنقرة العاصمة الشعبية.

في هذا الوقت العصيب أعلن عاكف أنه لن يبرح العاصمة أنقرة، وظلّ حيث هو ينشر البيانات على الناس ليعيد السكينة إلى الشعب وكذلك ليحثه على العمل والمقاومة..

(١) خُدع عاكف في أتاتورك ثم استبان له أمره فيما بعد

ولما أعلنت وزارة المعارف التركية عن مسابقة لتأليف نشيد الاستقلال دُعي إليها كل الشعراء الأتراك، واشترك فيها ٧٢٤ شاعراً لم ينجح منهم أحد. ولم يكن عاكف قد اشترك فيها؛ لأن المسابقة كانت تنص على مكافأة مالية للشاعر الذي ينجح. ولما قام وزير المعارف وهو حمد الله صبحي، بإلغاء بند هذه المكافأة من الإعلان، استطاع الوزير بذلك أن يقنع شاعر الإسلام، بتأليف النشيد، وبالتالي ظهر أقوى نشيد في حياة تركيا وهو نشيد الاستقلال. وكان نشيداً هاماً، صدق عليه مجلس الأمة التركي الكبير في ٢٥ مارس عام ١٩٢١م، بعد أن قرأه وزير المعارف بنفسه وأثار وقتها حماساً منقطع النظير في مجلس الأمة.

وأقدم هنا ترجمة لبعض هذا النشيد الهام.

لا تخف!

فلن ينطفئ أوار هذا العلم؛

هذ العلم الأحمر السابح في الشفق؛

حتى يخمد آخر موقد في بلادي.

نجم شعبي: هم هذا العلم.

إنه ملكي أنا. إنه لي ولأمتي.

يا أيها الهلال!

لا تقطب جيبك هكذا،

فأرواحنا.. فداءً لك.

دع هذا الوجوم وابتسم!

ابتسم لشعبي البطل؛

حتى تحل لك دماؤنا.

دماؤنا هذي مبدولة في سبيلك .
 أما الاستقلال : فإنه حق لشعبي
 شعبي هذا المؤمن الذي يعبد الله .
 عشتُ حرّاً منذ الأزل . . . وسأحيا حرّاً إلى الأبد .
 أيُّ مجنون هذا الذي يتصور ،
 إنه يكبلني بالقيود .
 فأنا السيل الهادر أحطم قيودي لأنطلق .

وفي عام ١٩٢٢م ، انتخب عاكف عضواً بهيئة التأليفات الإسلامية التي
 أنشأتها وزارة الشرعية التركية ، وكلفته الحكومة التركية بترجمة معاني القرآن
 الكريم إلى اللغة التركية .

وعندما ظهرت نتيجة حرب الاستقلال التركية الباهرة على قوات
 اليونانيين ، ويطرد قوات الحلفاء من البلاد ، مما جعل تركيا تصبح محط أنظار
 المسلمين . أخذ محمد عاكف في الأمل الكبير بأن هذا الانتصار سيعيد وحدة
 المسلمين مرة أخرى ، ويكتب للجامعة الإسلامية التحقق . وكانت فرحة شاعر
 الإسلام ، فرحة كبرى كبر أمله .

* خيبة أمل عاكف في أتاتورك :

إلا أن أمله ذهب هباء ، وصدّم شاعر الإسلام . صدم لأنه عمل مع
 الحركة الوطنية الاستقلالية بكل جهده مؤملاً في أن انتصارها معناه انتصار
 الإسلام والجامعة الإسلامية . خاصة أن أتاتورك كان أثناء الحرب الوطنية في
 سبيل الاستقلال يقترب كثيراً من علماء الدين يزورهم ويستمع إليهم ،
 ويتشاور معهم ويفيد منهم ، فإذا ما تم الانتصار لأتاتورك ورفاقه ، أخذوا
 يتعدون تماماً عن طريق الجامعة الإسلامية ، واتخذوا الغرب مثلاً أعلى لهم ،

فأعلنوا رسمياً: علمانية الدولة، وألغوا السلطنة ثم ألغوا الخلافة، وأبطلوا وزارة الشرعية والأوقاف وأغلقوا المدارس الدينية، وفرضوا لبس القبعة، وغيروا الحروف العربية إلى حروف لاتينية، وضيّقوا على الإسلاميين، وأعلنوا أنّ الإسلام تخلف وأن الغرب تقدّم^(١).

□ وبعدهما رأى محمد عاكف ما فعله أتاتورك بتركيا كانت الصدمة شديدة عليه، فلم ير في وجوده في بلاده فائدة فهاجر إلى مصر في شتاء ١٩٢٥م.

وفي مصر أقام عامين ضيقاً على الأمير عباس حليم باشا في حلوان بالقرب من القاهرة، وهي الآن ضمن حدود القاهرة الكبرى. بعد ذلك أرسل عاكف في طلب أسرته من تركيا، ولما جاءت سكن في منزل مستقل، وأخذ في تدريس اللغتين الفارسية والتركية في الجامعة المصرية - جامعة القاهرة الآن - واستمر في وظيفته هذه إلى أن أدركه الموت عام ١٩٣٦م.

لما أحسّ بدنو أجله طلب الرجوع إلى إستانبول فرجع. وفي ٢٧ ديسمبر ١٩٣٦م توفي شاعر الإسلام الذائع الصيت في تركيا محمد عاكف، ودفن في مقبرة باب أدرنه بجوار زميل جهاده أحمد نعيم بابان زاده.

ونظراً لأن عاكف كان أدار ظهره للحكم الكمالي، ولم يرضَ بإجراءاته

(١) لسوف يذكر التاريخ ما فعله هذا القزم المارق بالإسلام والمسلمين وهدمه لثوابت هذا الدين وخيائنه للإسلام ويكفي قراءة «صحوة الرجل المريض» أو «الرجل الصنم» ليعرف الناس من هو أتاتورك.. وفرح الغرب الشديد به ففي ٣٠ نوفمبر ١٩٧٩ كان المقال الرئيسي في جريدة مليت التركية «البابا يصرح في أنقرة بقوله: «إنني أول بابا في التاريخ ينحني بإجلال واحترام أمام قبر أتاتورك»!!! وذلك في أثناء زيارة البابا جون بول الثاني بابا روما لتركيا ووصوله إلى أنقرة في ٢٨ نوفمبر ١٩٧٩.. ويترك البابا مستقبله أمام الطائرة ليسجد ويقبل الأرض. كانت هذه هي أول مرة تطأ فيها قدم البابا أرضاً مسلمة.

المضادة للإسلام والجامعة الإسلامية. فلم تهتم الدوائر الرسمية ولا أجهزة الإعلام التركية بوفاته، ولم تشيع جنازته بالمكانة اللائقة به.

إلا أن الشباب المسلم في تركيا تبني ما دعا إليه عاكف، ومن ثم أصبح اسم محمد عاكف شاعر الإسلام رمز الحركة الإسلامية في تركيا، وعنواناً من عناوين فكرة الجامعة الإسلامية. ومحمد عاكف كما تقول الأستاذة نجلاء بك أولجاي، أستاذة الأدب الإسلامي: «لا شك أن عاكف هو ممثل الأدب الديني في القرن العشرين، وأنه يعد شخصية قائمة بذاتها في داخل نطاق هذا الأدب الإسلامي، فعاكف يأخذ من القرآن الكريم ليتجه إلى مجتمعه داعياً ومصلحاً.

□ ولقد قام محمد عاكف بترجمة معاني القرآن الكريم إلى التركية أودعها عند صديقه الشيخ محمد إحسان عبدالعزيز، إلا أن الأستاذ إبراهيم صبري ابن شيخ الإسلام مصطفى صبري قام بإعدامها خوفاً من أن يفتن المسلمون في تركيا بأسلوبها فيتخذونها بديلاً عن قراءة القرآن الكريم ذاته!!^(١).

* ديوان «الصفحات» لمحمد عاكف:

جمع عاكف أشعاره كلها في ديوان واحد يضم سبعة أجزاء، الديوان عنوانه الصفحات. أما الأجزاء فهي كالتالي:

الأول: الصفحات. صدر عام ١٩١١م وقصائده عبارة عن قصص شعرية اجتماعية وقصص تاريخية شعرية، مثل قصة سيدنا عمر والعجوز - قصة ديرواس - ويضم هذا الجزء أيضاً قصصاً شعرية من حياة عاكف نفسها

(١) انظر «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص ٢٩٧ - ٢٩٨).

مثل قصة سيفي بابا.

الثاني: من كرسي الوعظ بالسليمانية: وهذا الجزء عبارة عن منظومة طويلة بطلها عبدالرشيد إبراهيم، وهو رحالة مسلم من أترك الشرق صدر عام ١٩١٢م.

الثالث: أصوات الحق: وهو شروح بالشعر لثمانى آيات قرآنية، وشرح شعري لحديث شريف. و صدر عام ١٩١٣م.

الرابع: من كرسي الوعظ في جامع الفاتح: و صدر عام ١٩١٤م. عبارة عن قصيدة واحدة طويلة وعظية. تناول فيها عاكف موضوعات شتى تشغل بال العالم الإسلامي.

الخامس: خواطر: صدر عام ١٩١٧م. وهي خواطر عاكف عن رحلاته في مصر والحجاز ونجد وبرلين. مع بعض قصائد هي شروح شعرية لبعض آيات من القرآن الكريم.

السادس: عاصم: و صدر عام ١٩٢٤م. وهو قصة منظومة واحدة على شكل محاورة. وأراد عاكف فيها الإشارة إلى الجيل الجديد من المسلمين الذي يأمل الشاعر الداعية فيه، ورمز إليه بشخصية عاصم.

السابع: الظلال: و صدر عام ١٩٣٣م من مصر. ويضم أشعاراً دينية. وهو مترجم إلى اللغة العربية، و صدر في مصر أيضاً، ومترجمه الأستاذ إبراهيم صبري.

* فكر شاعر الإسلام محمد عاكف:

□ ويمكن تقديم صورة فكر شاعر الإسلام محمد عاكف في الإطار

التالي:

١ - وجوب اتخاذ القرآن الكريم مصدراً أصلياً للحركة، وبالتالي ترك

الخرافات والبدع، وتقويم الإسلام على أنه نظام حياتي ينظم حياة المجتمع، وأنّ القرآن:

«لم ينزل ليقراً على القبور

ولا ليستخرج منه الفال».

أما عن مهمتنا تجاه القرآن الكريم فيقول عاكف:

«يجب أن نستلهم القرآن مباشرة

يجب أن نجعل إدراك العصر يقول بالإسلام».

٢ - وجوب أخذ المسلمين بالتكنولوجيا الغربية . . وفي هذا يقول:

«خذوا علوم الغرب، خذوا فنونه

وأعطوا مساعيكم أقصى سرعتها

انتبهوا لعلوم الغرب

لأنّ الحياة بدونها مستحيل

ولأنّ ليس للفنون ولا للعلوم جنسية».

٣ - وجوب معاداة الفكرة القومية:

وقد كانت موجة القومية تهب على الدولة العثمانية في محاولة لتفتيت

عناصرها، وقد انتهت هذه المحاولة فيما بعد بالفعل إلى نفس النتيجة التي

هبت عليها هذه الموجة.

يقول عاكف في نثره:

«إنّ قضية العرقية قضية فاسدة لا يؤخذ بها، وهي بالتعبير الديني

جاهلية».

كما يوجّه عاكف أشعاره إلى بني جلدته من الألبانيين عندما طالبوا

بالانفصال عن الدولة العثمانية؛ بحجة أنهم قومية مختلفة غير الترك، وغير

العرب، وغير القوميات الأخرى التي تحيا في إطار الدولة العثمانية.

□ يقول عاكف:

«أين ما كنتم عليه من مليّة الإسلام؟!

وما هي هذه القومية؟!

وماذا لو اعتصمتم بإسلامكم؟!

وما هي هذه «القومية الألبانية»؟!

ألها مكان في شريعتنا الإسلامية؟!

أن تقدّم قومك: كفرٌ، وليس له معنى آخر.

أهناك (في الإسلام) تفضيلٌ لعربي على تركي؟!

أو للآزي على شركسي أو كردي.

أو إيراني على صيني؟!

هل في الإسلام عناصر أو قوميات؟! ما هذا الهراء!

إن الرسول يلعن فكر «القومية».

والتفرقة بين المسلمين، لأكبر عدوٍّ لروح نبينا».

٤ - التحذير من الغرب والدعوة لمعاداته:

□ يقول شاعر الإسلام محمد عاكف:

«تسلط كابوس الغرب الدامي وغشى البصر

وعطل فكر الإسلام، وعطل ساعده منذ قرون».

□ وعن الصليبيين الغربيين واتخاذهم المدينة ستاراً لقهر الشرق

الإسلامي يقول عاكف:

«ابصقوا على وجه هؤلاء الصليبيين عديمي الحياء

ابصقوا على كلماتهم الخائنة

ابصقوا على الكائن المهرج الذين يسمونه بالمدينة
ابصقوا على ضمير العصر المقنع! ابصقوا».

٥ - الأخذ بالعلم التطبيقي وترك الجهل:

□ يقول شاعر الإسلام محمد عاكف في تركيا:

«وأسفاه على علم يضع مخنوقاً في النظريات.

قيمة العلم: قيمة عملية تطبيقية».

□ وعن الفرق الذي بين «الذي يعلم» و«الذي لا يعلم»، وهل

يتساويان؟! يقول عاكف:

«لا يمكن، فبالطبع: واحد منهما إنسان والآخر حيوان، ولا بد أن تعزم

الامة على التخلص من السبة المسماة بالجهل».

٦ - الأخذ بالحذر دائماً من روسيا ومعاداة الروس:

فروسيا كانت تحرض الشعوب غير المسلمة في الدولة العثمانية على

الاستقلال عن الدولة، وذلك عن طريق إثارة هذه الشعوب وتحريضها على

القيام بثورات مستمرة ترهق بها الدولة، ثم تقوم روسيا بعد ذلك بالضغط

على الدولة العثمانية بالحروب، لكي تعطي الدولة لهذه الشعوب الصغيرة

استقلالها، فإذا استقلت هذه الشعوب ابتلعها روسيا. مثال ذلك: شعب

بلغاريا الذي ثار كثيراً ضد الدولة العثمانية، فلما استقل هذا الشعب قامت

روسيا بتعيين أمير روسي حاكماً عليه، وأخذ جنرالات روسيا يديرون شأن

بلغاريا عقب استقلالها عن العثمانيين.

□ ومن جهة أخرى كانت روسيا تضطهد المسلمين الواقعين تحت حكمها

يقول عاكف:

«ضغوط روسيا شديدة»

أهناك من طريق آخر لتجنب الظلم؟».

□ ويعيب على أوروبا المتحضرة سكوتها على اضطهاد روسيا للمسلمين

فيها، فيقول:

«لماذا لا تعي أوروبا المتحضرة

أن كل عقل يحاول التفكير (في روسيا) مصيره: السحق».

٧ - احتقار أصحاب القلم الذين لا يلتزمون بالإسلام:

□ يقول عاكف في نثره:

«يجب على الأدباء أن يكونوا على أدب. ولا أدب إلا في التأدب بأدب

الإسلام».

٨ - بث الأمل في عودة نهضة الأمة الإسلامية من جديد في نفوس

المسلمين، فيقول:

«لم يلقون الأمل، وإلا، فإن هذا الدين

قد نشر على الكائنات ظلاله الخضراء.

وصوت الحق قد خنق صوت الضلال.».

□ كما يقول:

«ما دام وعد الله لنا هو الحق

فإن فجر الشرق الأزلي، سيشرق».

□ ويقول:

«المؤمن لا يقع في اليأس، ولو قيد ذرة».

«اليأس مستنقع قدر

ولو وقعت فيه لاخترقت،

فاعتصم بالأمل».

٩ - التأكيد على ضرورة يقظة المسلمين ووعيهم، وضرورة تحركهم.

يقول عاكف :

«كفى يا معشر المسلمين
باللَّه أَلَا صَحْوَتُمْ مِنْ نَوْمِكُمْ
يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ هَبُوا مِنْ نَوْمِكُمْ
فَسَوْفَ تَغْرِبُ هَذِهِ الشَّمْسُ
اسْتَيْقِظُوا فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَحِلَّ لَيْلُ النَّدَمِ
بَعْدَ ذَلِكَ ، مِنْ سَيُوقِظْكُمْ؟!
أَصُورُ إِسْرَافِيلَ?!»

١٠ - الدعوة إلى العودة إلى بساطة الإسلام الأولى : يقول عاكف :

«فلتناول فترة قريبة من نشأة الإسلام
يا له من تقدّم مدهش ، يا لها من سرعة خارقة
أبّدت الإنسانية يوماً معجزة كهذه المعجزة!
الذين عاشوا على الفطرة
الذين غرقوا عندما استقرت الوحشية والغلظة
في قلوبهم وأعماقهم ،
والذين كانوا يثدّون بناتهم
أحياء في رمال الصحراء .»

.....

«انظروا! كيف صاروا في ثلاثين عاماً!!
ملكوا الأرض بتقدم ثلاثين ألف عام.»

.....

«فليرجع المسلمون لصدر الإسلام.»

١١ - المناذاة بضرورة وحدة عناصر المسلمين. يقول شاعر الجامعة الإسلامية عاكف:

«لن يحيا التركي، بدون العربي
وكل من يقول بعكس هذا، فهو أبله.
فالتركي بالنسبة للعربي
عينه اليمنى وساعده الأيمن.»

.....
«لندفن الفرقة في قبر النسيان».

١٣ - المناذاة بفهم الإسلام على حقيقته. يقول شاعرنا المفكر محمد عاكف:

«يعني: أن لم يبق للإسلام في المسلمين إلا الاسم،
يعني: أن هذا هو السبب في الخسران بين المسلمين اليوم.»

* أقوال عن عاكف:

يصفه المفكر الإسلامي سزائي قراقوج بقوله: «نقطة انطلاق عاكف كانت الإسلام، وفي ضوء من الإسلام بذل عاكف جهده، وفي ضوء من الإسلام، أبان عاكف على الملأ الظروف الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية التي كبّلت المجتمع الإسلامي؛ في عهد انهيار الدولة العثمانية الإسلامية التي ظلت قائمة ستمائة عام. وعندما أبان عاكف جراح الأمة الإسلامية أبان في نفس الوقت أيضاً الدواء. والدواء الذي شخصه عاكف لأمة هو: الإسلام وإحياء مبادئه بروح شابة سواء في داخلنا أم في خارجنا، ثم التزّين بقوى العصر التكتيكية والمادية».

يواصل سزائي قراقوج قوله ففي وصف عاكف: «أخذ عاكف يشرح

الحقائق للمثقفين العثمانيين في أوائل هذا القرن العشرين، عن طريق أشعاره التي بلغت صيغاً بعيداً في طول البلاد وعرضها، وعن طريق مقالاته المؤثرة، وأيضاً عن طريق الوعظ بالدروس الدينية التي كان يلقيها في الجوامع، وكذلك عن طريق ترجمة أعمال المفكرين الإسلاميين إلى اللغة التركية».

«كان عاكف يبرز المصائب التي كان يمكن أن تحدث في المجتمع الإسلامي إذا أدار هذا العالم ظهره للإسلام وللجامعة الإسلامية. ورسم عاكف اللوحة المادية والمعنوية لفرنا، منتقداً الفكر الغربي الذي كان يهاجمنا».

«قال عاكف هذا، قبل أن تصبح هذه الأفكار وقائع تأخذ شكلها الرسمي وتفرض نفسها على البلاد فرضاً».

□ وعنه تقول الكاتبة شكوفه نهال:

بعد أن فجع عاكف في تركيا الكمالية وخاب ظنه فيها، ظلّ إنساناً، فلم يتراجع عن التزامه، لم يُغره المال، ولم يَسْتَمِلْهُ المنصب. لم يخن عاكف ضميره، ولم يخدش كبريائه، ظلّ إنساناً كما هو إنسان، واقتفى أثر الطريق الذي اعتقد فيه الحق».

أما حسن علي يوجل فيوجز فكر عاكف في العبارة الآتية: «يرى محمد عاكف أن تخلص الأمة من المصائب المختلفة، ووصولها إلى السعادة إنما يكمن في العودة إلى ماضي الأمة الأصيل، إلى عصر النبي ﷺ، هذا العصر الذي ينادي محمد عاكف دائماً باتخاذ النوال والمثل».

□ يقول الأستاذ الدكتور نور الدين طوبجي: «حاول الشيوعيون والقوميون والماسونيون خنق صوت عاكف حتى بعد موته، إلا أن شباب هذه الأمة تبني فكر عاكف وأعماله وفرضها على وجه تركيا رغم التعقيم الرسمي عليه».

* محمد عاكف يرد على الماديين وعلى رأسهم توفيق فكرت :

كان الأدب هو شغل عاكف الشاغل وأهله اطلاعه الواسع على الأدب أن يعمل أستاذًا له في جامعتي إستانبول والقاهرة.

رأس عاكف تحرير مجلة إسلامية أدبية وفكرية هامة، هي مجلة الصراط المستقيم، وقد تغير اسمها في أواخر أيامها إلى «سبيل الرشاد». وكتب فيها عاكف كثيرًا. وكانت هي اللسان المعبر عن آراء الإسلاميين في الفكر وفي الأدب وفي الدفاع عن الإسلام وفي مهاجمة الماديين.

* التغريبيون والإسلاميون :

سذكر التاريخ بالخزي والعار التغريبيون الأتراك: أمر الله أفندي وساطع الحصري والأمير صباح الدين بك عضو جمعية الاتحاد والترقي، وأحمد رضا بك الذي ينكر الغيب وكان رئيسًا للاتحاد والتقري في باريس، وعبدالله جودت، وجلال نوري، ورضا توفيق وهؤلاء رأوا ضرورة استبعاد الحروف العربية واتخاذ الحروف اللاتينية للكتابة، وجعل العلمانية أساس فكر المجتمع، وتحديث الأسرة، وضرورة هدم نظام التعليم الديني السائد في الدولة. وأتى من بعدهم الماركسي ناظم حكمت.

وقاوم الإسلاميون هذا التيار التغريبي وكان على رأس الإسلاميين سعيد حليم باشا (١٨٦٣ - ١٩٢١)، وأحمد نعيم بابان، وحمدي يازير (١٨٧٧ - ١٩٤٢)، وشيخ الإسلام موسى كاظم (١٨٥٨ - ١٩٢٠)، وشيخ الإسلام مصطفى صبري (١٨٦٩ - ١٩٥٤)، وإسماعيل حقي (١٨٦٨ - ١٩٤٦) ومحمد علي عيني (١٨٦٩ - ١٩٤٥)، وأحمد حلمي شهبندر زاده (١٨٦٥ - ١٩١٣)، وإسماعيل فني (١٨٥٥ - ١٩٤٦). ومحمد عاكف الذي طالما صدح بشعره «فليرجع المسلمون إلى صدر الإسلام» و«الذين غرقوا في

الضلالة عندما استقرت الغلظة والوحشية في قلوبهم وأعماقهم، والذين كانوا يثدّون بناتهم أحياءً في رمال الصحراء. إذا بهم في ثلاثين عاماً من الإسلام قد ملكوا الأرض بتقدم ثلاثين ألف سنة».

□ وفي تضامن العالم الإسلامي يقول محمد عاكف: «لن يحيا التركي بدون العربي، ومن ينكر قولي هذا فهو أبله. فالتركي للعربي عينه اليمنى وساعده الأيمن»، و«فلندفن الفرقة في قبر النسيان».

وكانت هناك معارك فكرية بين الجانبين، منها ما كان بين أحمد حلمي شهبندر زاده الذي ردّ في كتابه «مسلك الماديين» على جلال نوري (١٨٧٧ - ١٩٣٩) الذي كان من المفكرين المقربين لآتاتورك.

إلا أن أشهر هذه المعارك كانت معركة عاكف - فكرت.

□ أما توفيق فكرت (١٨٦٧ - ١٩١٥م) فهو شاعر مادي وتمثّل أدبه في

أمرين:

أ - الإلحاد.

ب - مهاجمة نظام السلطان عبدالحميد والدولة العثمانية.

□ وفي الإلحاد، يقول:

أنا لا أعرف المعبود ولا أعرف العابد.

أنا أعرف نفسي بأنّي أعبد الطبيعة؛

وأرى في السموات آلاف المساجد؛

وأرى ضميري ساجداً فيها. وفي هذا طاعتي.

أما كتابي إن كان لا بد من كتاب فهو مسرح الطبيعة.

وأما الدين إن كان لا بد من دين فهو الحياة.

□ وفي مهاجمة الدولة العثمانية، وفي التمرد على قيم الإيمان يقول:

لا محارب، لا حرب، لا استيلاء.

لا تسلط، لا سلطنة، لا شقاء.
لا شكوى، لا ظلم، لا استبداد.
أنا أنا، وأنت أنت، لا رب ولا عباد.

□ يقول شاعر الإسلام محمد عاكف عليه رحمة الله، عن توفيق فكرت، عبارة مؤداها أنه لا يمكن السكوت على فكرت بأي شكل من الأشكال وينبri محمد عاكف ليهاجم فكرت ويهاجم الأدباء المعتقدين بالمادية، فيقول:

أدباء المادية: مخلوقات قبيحة.
أيترك هؤلاء لتوجيه الناس!!!
بعض أدباء المادية سماسرة
لترويج الفواحش.

ما شعر شعراء المادية إلا
حديث عن الخمر والبغايا والساقطات.
شعراء المادية ضائعون.
ليس لأحد منهم مبدأ
«فكرت» يسب الآن، خالقه.
ويغدقون عليه المال
فيعمل - بلا حياء - شماساً،
في كنيسة البروتستانت.

شعراء المادة الملحدون . . سفلة

باعوا أعراضهم للسماسة^(١) .

يعني كان توفيق فكرت ينادي بفكر مادي وثقافة متحللة. أما عاكف فينادي بالعلم وبسمو الأخلاق أي الأخذ بعلوم العصر والأخذ في نفس الوقت بأخلاق الإسلام.

تمسك توفيق فكرت وثقافته في حياته فترك ابنه متحللاً حتى أصبح ابنه واسمه «خلوق» قسيساً ترك بلاده ليستقر في الغرب، وتمسك محمد عاكف بالعلم العصري والأخلاق الإسلامية فترك خلفه جيلاً مسلماً واعياً يترحم عليه.

* المفكر الإسلامي نجيب فاضل (١٩٠٥ - ١٩٨٣) مؤلف كتاب «نسيج

الفكرة»:

نجيب فاضل قلد وسام أشعر شعراء اللغة التركية في مايو ١٩٨٠ وتولى عمادة الأدب التركي بجدارة، وامتاز - رحمه الله - بوضوح الرؤية الإسلامية بكل أبعادها وإلى الإسلام الشامل وكان - رحمه الله - هو واجهة الفكرة الإسلامية في مواجهة المادة.

ويعتبر عام ١٩٣٤م أهم عام في حياة نجيب فاضل وفكره، وهو العام الذي التقى فيه بالشيخ عبدالحكيم الأروسي، وفيه بدأ نجيب عهداً جديداً من الوعي والاعتراف بدور القيم في الحياة، وأخذ نجيب عن طريق هذا الفكر الطارئ على حياته، دوراً إيجابياً في حياة تركيا الفكرية والسياسية، وبذلك أيضاً أخذ دور الرائد ليذكر الأتراك ومن في تركيا بأن لبلادهم قيماً أصلية

(١) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص ٤٣٤ - ٤٣٧).

وتاريخاً عريضاً، وأن الطريق أمامهم للنهوض من التخلف والانحطاط إنما يكمن في مراعاة القيم وعدم الجري وراء التقليد بلا ضرورة وبالتالي وجد نجيب فاضل نفسه في صف، ووجد الإداريين - وقتها - وزملاء القلم من الماديين في صف آخر. ذلك لأن تركيا كانت قد اتخذت الخط الأوربي مساراً رسمياً لحياتها، ووقف نجيب عملاقاً حينما أدلى برأية في بعض قضايا التاريخ، وأعاد الاعتبار إلى شخصيات تاريخية شُهِت نتيجة لدعايات بعض الأحزاب مثل شخصية السلطان عبدالحميد الثاني، والسلطان محمد وحيد الدين.

أدان نجيب فاضل فترة التنظيمات التي نسي الناس فيها من عثمانيين - أي من أتراك - وعرب وغيرهم؛ أصولهم وأصالتهم وأصبحوا تابعين للغرب. ونذكر هنا أن لنجيب فاضل كتاب «نسيج الفكرة» أهم وأخطر أعمال نجيب على الإطلاق يحمل فكرته في نهضة شعوب الشرق، يضارع إن لم يتفوق على كل ما كتب في اللغات الشرقية في موضوعه. توفي نجيب فاضل عام ١٩٨٣م.

□ وله قصيدتان مشهورتان «الشرق العظيم»^(١) و«البشرى» في الأولى

يقول نجيب فاضل:

أشْرِقُ أيُّها الشرق العظيم
أشْرِقُ من هنا. من عندي أنا؟
فمرآة آفاقي علم من نار؛
ورماد أبي هو أنتِ:
أيتها الأرض السوداء

(١) يعني بذلك بلاد الإسلام.

❑ وفي الثانية يقول نجيب فاضل:

سيدخل الفرسان من ثغرات الأسوار؟

إلى مدينة الأصنام.

الإنسان في مدينة الأصنام.

جثة عفنة تقف على الأقدام.

ستنشق السموات

لتعلن البشرى.

لتعلن أنه:

بشرى لكم؟

ها هي ذي الشمس التي لا تعرف المغيب:

قد أشرقت. اهـ.

نعم أشرقت شمس الإسلام التي لا تعرف المغيب..

* الأمير سعيد حلیم باشا من أعظم المدافعين عن الإسلام:

❑ قال محمد إقبال عن سعيد حلیم باشا وعن جمال الدين الأفغاني في

كتابه «جاويد نامه» (ص ٦٠) «لم ينجب الشرق (في القرن التاسع عشر)

أفضل من هذين الرجلين»^(١).

ولد سعيد حلیم باشا في القاهرة عام ١٨٦٣م وهو حفيد محمد علي

باشا والي مصر. درس سعيد حلیم باشا اللغات العربية والفارسية والفرنسية

والإنجليزية. ثم سافر إلى سويسرا ودرس هناك خمس سنين. ولما أتم دراسته

عاد إلى إستانبول، وأصبح من دعاة وحدة العالم الإسلامي حول الخلافة

والسلطنة العثمانية. وعمل وزيراً للخارجية العثمانية، وعين في ١٣ يونيو عام

(١) الأفغاني وضحنا صورته من قبل، ولا يُقبل كلام إقبال فيه.

١٩١٣م صدرًا أعظم أي في عهد الاتحاد والترقي.

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م دخل الاتحاديون بالدولة إلى جانب ألمانيا في هذه الحرب. وكان سعيد حليم باشا يبذل جهداً كبيراً لكي تبقى البلاد على الحياد. ولما لم يقنع أحدًا بذلك استقال، لكن الدولة تمسكت به حتى عاد إلى مباشرة عمله. وفي عام ١٩١٧ استقال وحل محله طلعت باشا. وعندما احتل الإنجليز إستانبول نفى سعيد حليم باشا إلى مالطة وقضى فيها سنتين واغتاله أحد الأرمن في روما يوم ٦ ديسمبر ١٩٢١م.

□ وكان سعيد حليم باشا يتقن الفرنسية ويكتب بها، ولسعيد حليم باشا عدة مؤلفات عبارة عن رسائل منها:

المشروطة (الحكم الدستوري) - مشكلاتنا الاجتماعية - مشكلاتنا الفكرية - التعصب - تجربة قلمية حول انحطاط العالم الإسلام - النظم الإسلامية في الإسلام.

ويختلف الأمير سعيد حليم باشا عن جده محمد علي باشا أن الأخير كان متحمساً للغرب، إلا أن الأمير كان رجلاً ذا تجربة عملية في سياسته الدولية في أوقات عصيبة، وذا اطلاع واسع في سياسته الأوربية الحديثة، وكان مصلحاً، وأجبرته الظروف المحيطة في كل حياته، أن يفكر طويلاً في المشاكل المتعلقة بمستقبل الإسلام والمسلمين، كان رجلاً له اطلاع واسع في أفكار إنجلترا وفرنسا وألمانيا، كاطلاعه في القرآن الكريم وتفسيره والأحاديث النبوية وشروحها، فكان لذلك جديراً بأن ينصح للعالم الإسلامي فيما يختص بسياساته المستقبلية، ولم يكن نصحه أوربياً، بل إسلامياً^(١).

فمثلاً يقول الأمير: «نجح الإسلام في وضع القاعدة القائلة: إن الإنسان ليس ملزماً بأي شكل بأن يخضع لقوانين مجاوريه، حتى ولو كانت تلك

(١) مريم جميلة، «الإسلام في النظرية والتطبيق»، ترجمة س. حمد (ص ١٢٩) الكويت =

القوانين معبرة عن إرادة الغالبية العظمى. ذلك إن أمثل هذه القوانين تستوجب أن تكون اختيارية لحد ما، فهو يخضع لإرادة خالقه».

«وهكذا، فقد أبطل الإسلام المذهب التجريبي والعقلي على أساس أن الأول والثاني ما هما إلا مجموعة من الأخطاء والاغترارات.. وجاء الإسلام بالقواعد التي أعطت للناس حق تحرير أنفسهم من تلك السیادات الخيالية التي نصبوها لأنفسهم».

«ومن وجهة النظر السياسية، إن الإسلام - بلا منازع - أوجد أصح مفهوم للسلطة، وأعطاه أهميتها الحقيقية»^(١).

وبالرغم من تفوق المبادئ الإسلامية الواضح في تنظيم المجتمع، فإن العقلية المسلمة قد ضلّت في أيامنا هذه، حتى أنها لتفضل قاعدة «إرادة الأمة كسلطة غير محدودة، ولا تناقش على قاعدة سيادة الشريعة. ولقد انبهرت فئة متزايدة من المفكرين المسلمين بالنجاح المادي والقوة المادية للمجتمع الغربي وهم يصرون باعتبار هذا الرقي الغربي - وهو موضوع تعجبهم المفرط - نتيجة مدهشة لقاعدة سيادة الأمة، هؤلاء الناس يريدون أن تنتهي الشريعة عن أن يكون المصدر والميزان للدولة الإسلامية. وذلك الاعتقاد بالسيادة القوية للأمة، هو اعتقاد باطل كغيره من اعتقادات السيادة التي ظهرت على الغرب، فهو يرتكز على اعتقاد باطل كغيره من اعتقادات السيادة التي ظهرت في الغرب»^(٢).

رحمك الله أيها الأمير العظيم هذه صفحة عن عظماء المسلمين في تركيا نرد لهم بها ديناً عظيماً في رقابنا.

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير الجامع

= ١٩٧٨م.

(١) مريم جميلة، المرجع السابق (ص١٣١).

(٢) مريم جميلة، المرجع السابق (ص١٣٣)، و«العثمانيون» (ص٤٢٩ - ٤٣١).

* الشيخ عثمان دان فوديو يقيم سلطنة «سوكوتو» على التوحيد النقي الصافي لله دره:

«في السودان الغربي: كان الداعية الشيخ عثمان دان فوديو أحد أبناء قبيلة الفولاني في السودان الغربي من أتباع الشيخ ابن عبدالوهاب، فأخذ يحارب البدع الشائعة في عشيرته، ويعمل على تقويض بقايا الوثنية، وعبادة الأموات التي كانت عند بعض السودانيين، ثم أخذ ينشر تعليم الإسلام الصحيحة، واستطاع أن يجمع حوله قبيلته في وحدة متماسكة مرتبطة برباط الدين.

ثم بدأ الشيخ عثمان بعد ذلك سلسلة من المعارك، كان أولها سنة ١٨٠٢م ضد قبائل الحوصة الوثنية، ولم تأت سنة ١٨٠٤م حتى أقام سلطنة «سوكوتو» في السودان، على أنقاض مملكة جبيرثين - النجير الأدنى، ونهر الينوي.

وقد قامت هذه الدولة على أساس الدعوة الوهابية، وامتدت حدودها إلى جميع الأقطار الراقعة بين تمبكتو وبحيرة تشاد، على مساحة أربعمائة ألف كليو متر مربع، كان يسكنها نحو عشرة ملايين من الناس، وقد ظلت هذه الدولة مستقلة نحو قرن من الزمان، حتى احتلها الاستعمار الأوربي وانفصلت عنها فيما بعد ممالك بورنو، والأداموا، وغاندوا، ونوبو، ولكنها ما تزال جميعها محتفظة بالإسلام عقيدة وخلقاً وسلوكاً»^(١).

(١) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص ٣٧٦).